

في عصمة الأنبياء و المرسلين

هل العصمة مفهوم ديني أصيل
في الفكر الشيعي
أم وليدة مدارس فكرية شتّى

عبدالوهاب المحسن

الطبعة الثانية مزيدة

مختصر في كتاب (اليقين في عصمة الانبياء والمرسلين) للكاتب عبدالوهاب المحسن

بتوضيح: هل العصمة مفهوم ديني أصيل في الفكر الشيعي، أم وليدة مدارس فكرية شتّى.

و فيه :

* المقدمة: وفيها إشارة إلى بعض نقاط ضعف المؤسسة الدينية الإمامية والمنتسبين إليها في الاستقراء الديني الأصيل، وذكر أمثلة في نقد مفهوم الكراهة، والافتاء بالاحتياط، وقاعدة الأهم والمهم.

والهدف من ذكر هذه المقدمة هي ثلاثة أمور:

الاول: مراجعة المؤسسة الدينية استقراءها الديني على ضوء الثقلين (كتاب الله والعترة النبوية الطاهرة صلوات الله عليهم أجمعين)، وقد ذكرنا مقتطفاً من تلميحات الشهيد العلاّمة المطهّري (رحمه الله) في هذا الشأن.

الثاني: لا يتّهم كل ناقد بلسان صادق سليم، بالريبة والعدوان.

الثالث: تمهيد للدخول في موضوع عصمة الانبياء(ع) برؤية تحقيقية موضوعية وبدون حكم مسبق.

* مفهوم العصمة لغة وشرعاً، واستخلصنا التعريف بأنّ المعصوم إنسان مخلوق من بعدين مادي ومعنوي، وعليه أن يعصم نفسه ودينه من كلّ سوء وضرر يلحق بهما، سواء كان هذا السوء والضرر صغيراً أم كبيراً.

وتعريفنا للعصمة المتكامل هذا، هو خلاف المتداول في المكتبة الكلامية خلال مئات السنين المنصرمة.

* سرد موجز لآراء المسلمين في العصمة، ثم مناقشة آراء القائلين بها أو عدمها.

* بحثنا في العصمة

* سبب اختلاف المسلمين جميعاً ومنهم علماء المدرسة الإمامية في أبعاد العصمة.

* سرد العديد من آراء علماء الإمامية بتأثر الأنبياء(ع) بنزغ ووسوسة الشيطان وإغراءاته المؤدّية بهم إلى النسيان والخطأ والاشتباه والغفلة في الأمور الحياتية التي لا علاقة لها بالشرع والتبليغ. ومن هؤلاء الأعلام الامام الخميني (ره) صرّح: "أن بعض الأنبياء(ع) لايخلون من سلطة الشيطان كما في انشغال آدم(ع) بالشجرة، الأمر الذي يعدّ من مظاهر تسلّط أبليس الأكبر".

* بحث فلسفي بين بعض علماء الإمامية، هل أن الوسوسة الشيطانية واقعة في بدن الانبياء(ع) لإيذائهم وليقضي من تعذيبهم واتعابهم الشيطان وطره، أم أنّها منحصرة في حدود التشريع المتصلة بأوامر الله تعالى ونهيه!!

*من خلال استطراد العديد من آراء علماء الإمامية، ومن خلال آيات القرآن الكريم نتعرّف على ردود فعل الأنبياء(ع) على الوساوس الشيطانية أن بعضهم (عليهم السلام) استغفر، وبعض آخر لم يستغفر، وفيه أربعة احتمالات ومناقشتها، فيتبلور الرأي الخامس وهو أنّ من استغفر منهم (ع) كان على سبيل المعصية الواقعة بينه وبين مولاه سبحانه لا علاقة لها بحقوق الناس.

* نقاط ضعف الأنبياء كآدم، ونوح، ويوسف، وموسى، وداوود، ويونس (عليهم السلام).

* حقيقة الآيات الأُوَل من سورة الفتح.

* نقاط ضعف النبي إبراهيم(ع).

* مع وجود الشهادة الإلهية بأنّ الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، إلاّ أنّ صريح الثقلين يقولان بعصيانهم(ع) وهو خلاف معتقد المسلمين جميعاً بسبب افتقار التحقيق الموضوعي.

* ماهية آية التطهير وتعلّقها، وهو خلاف ما يعتقده ويتداوله علماء الإمامية منذ عصر الغيبة، بسبب عدم تحقيقها على ضوء الثقلين.

* الفرق بين مقام النبوة ومقام الإمامة التي هي أهمّ سمة ومعتقد شيعي أمام مدرسة الصحابة، وهذا المعتقد هو كذلك لم يبيّنه ولم يحققه علماء الإمامية منذ عصر الغيبة على ضوء الثقلين.

* خاتمة أبحاث الكتاب، وفيها سؤال مفتوح لمن يعتقد أنّ العصمة مفهوم ديني أصيل.

راجياً ممن يصله كتابي هذا قراءته ونشره على أوسع نطاق ما استطاع، فمما ورد عن أهل البيت (عليهم السلام): "زكاة العلم نشره".

عبدالوهاب المحسن
Almuhsn@yahoo.com
Almuhsn@gmail.com

اليقين

في عصمة الأنبياء والمرسلين

اليقين

في عصمة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام

هل العصمة مفهوم ديني أصيل
في الفكر الشيعي
أم وليدة مدارس فكرية شتّى

الطبعة الثانية مزيدة

المؤلّف

عبدالوهاب المحسن

بسم اللّه الرحمن الرحيم

إلى ريحانة الرسول ﷺ

وبنت الزهراء البتول عليها السلام

فاطمة بنت موسى بن جعفر عليهما السلام

أهدي كتابي هذا

تمهيد الطبعة الثانية

﴿بسم اللّه الرحمن الرحيم﴾

الحمد للّه الذي خلق، خلق الإنسان من علق، حمداً كما ينبغي لكرم وجه ربّنا الأكرم الذي علمّ بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلوات الزاكيات والتحيّات الطيّبات، ما دجى ليل وضحى نهار، على من خصّهم اللّه بالكرامة وحباهم بالرسالة، وجعلهم ورثة الأنبياء وختم بهم الأئمّة والأوصياء، محمّدٍ النبيّ القُدَم وآله خير البريّة والأُمم.

* * *

في الطبعة الأُولى من هذا التحقيق، قد ألمحنا للمؤمن الحرّ الحُصحوص الذي يرى الحقّ عقيدته، لا قرباناً مسلوخاً لها، بوجود كلام غضضنا النظر عن سرده فيها، وأوكلناه في هذه الطبعة، وذلك لأسباب، أهمّها كان بسبب ما تعانيه حوزاتنا العلمية من تلكّؤ في فهم بعض الطروحات ودأبها على دراسة مواضيع ومفاهيم لا تنسجم ولا تتفاعل مع الثقلين.

ونحن إذ ننقد حوزاتنا العلميّة بسبب بعض الأفكار التي تتبنّاها،

فذلك لا يعني إلغاء وجودها الخطير في تصحيح مسيرة مجتمعنا الإسلامي، وغمط دورها الحيويّ والنشيط في حفظ التراث الديني الأصيل، ولا يعني التنكّر لدور علمائها العظام وأجلّتها الأعلام طوال القرون المنصرمة في إتحاف المكتبة الإسلامية بالعطاء الفكري الهائل، وما يضخّه علماؤها ومفكّروها اليوم من علوم واستدلالات تتناسب ومقتضيات عصرنا الراهن.

هذا، ولا ننسى أنّ النقد السليم يعصف برماد الأفكار ليبقي أصيلها وهجاً، حيث أطلق الإمام الصادق عنوان الهدية عليه، إذ قال عليه السلام: «أحبّ إخواني إليّ من أهدى إليّ عيوبي»[1]، فمن الذي يردّ مثل هذه الهدايا؟!

وقبل التحدّث عن بعض المفاهيم كأمثلة ونماذج تدلّ على عدم انسجامها مع الثقلين والتي أخذتها الحوزات العلميّة كأُسس وقواعد فقهية وأُصولية لا يمكن زعزعتها أبداً، وما من طالب يبتغي دراسة علوم الدين، فيدخل أبواب هذه المدارس، إلاّ وأخذ تلك المفاهيم بقوّة وعلى يقين كامل بها، ننقل هنا كلمات المفكّر الشهيد المطهري رحمه الله حول بعض أساليب الحوزة الإرشادية والتبليغية، ومنهجها العلمي والدراسي.

يقول العلاّمة الشهيد:

«كانت المعارف الإنسانية قديماً بسيطة ومحدودة، ولذا كان يندر صدور شكّ أو تساؤل من الناس حول مسائلنا الإسلامية آنذاك، أمّا في يومنا هذا أصبحت هذه الشكوك والتساؤلات تكثر وتفد علينا شيئاً

١. الاختصاص، الشيخ المفيد: ٢٤٠.

فشيئاً. وبديهيّ كلّما نضج الفكر علميّاً ومعرفيّاً، تتبلور له أسئلة لم تكن من ذي قبل، لذا يجب علينا رفع شكوكه والإجابة على تساؤلاته، فلا يمكننا ردعه بقولنا: يجب عليك معايشة ومسايرة السذاجة الذهنية السابقة، بل تعتبر هذه الظاهرة أرضية صالحة لاطّلاع الجماهير على الحقائق والمعارف الإسلامية، لأنّه يستحيل علينا مفاتحة ومصارحة الجاهل بكل حقيقة وواقع. إذن نحن فيما سبق من زمان كنّا بحاجة إلى بيان خاصّ في التبليغ، وكتب تتلائم وتنسجم مع تلك الحقبة الزمنية، أمّا في عصرنا الراهن، فالأساليب التبليغيّة الماضية مع كتبها، باتت لا تسمن ولا تغني من جوع وعطش فكري، ويجب علينا غربلتها وتغييرها جذريّاً. إذن نحن محكومون بإحاطة لسان العصر الراهن وأفكاره ومنطقه وطرق حواره، كي نمسك من خلاله زمام هداية الأُمّة».*

ونحن في الوقت الذي ننزّه الحوزة العلميّة ونبرّءها عمّن يتّخذها غطاءً وشعاراً ليستهدف المادّة من وراء قلمه**، في الوقت ذاته نشير إلى

*. ده گفتار، ص ١٨٤. وشهيدنا المطهّري رحمه الله عندما يتحدّث عن هذا الواقع، لا يشكّ أحد بإيمانه الإسلامي وبمبادئه الدينية، وإخلاص عمله وتفانيه ووزنه الفكري في كثير من حقول العلم والمعرفة، حتى قال الإمام الخميني قدس سره في مدحه:

«تراث قلمه، ومواعظه كلّها تربوية وتعليميّة، ونعيماً للروح وجنان النفس. ونصائحه ومواعظه التي صدرت من قلبه المفعم والعامر بالإيمان والعقيدة الحقّة، هي مفيدة ومسرّة للعالِم المتألّه والناس جميعاً». (نصّ من بيان زعيم الثورة الإسلامية الإمام الخميني قدس سره في الذكرى السنوية الأُولى لاستشهاد آيةالله العلّامة المطهّري. صحيفة نور ١٤: ٢٠٨، بيانه قدس سره بتاريخ ١٣٦٠/٢/٩هش).

**. كما ورد في الحديث عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «الشيعة ثلاثة أصناف: صنف يتزيّنون بنا، وصنف يستأكلون بنا، وصنف منّا وإلينا، يأمنون بأمننا و...». مشكاة الأنوار: ٦٣/١.

آفات عامّة يعانيها أيضاً كتّابها ومراكز التحقيق المنتسبة إليها:

١ ـ هواية التأليف واتّخاذه تسلية، أو شوقه وحرصه للدخول في قائمة الكتّاب والمؤلّفين، فينتج عنه ـ بغضّ النظر عن صحّة المادّة وسقمها ـ اجترار المفاهيم، وملل القرّاء من مطالعة الكتاب الإسلامي بشتّى حقوله، فيتراكم في مخازنه لتعلوه الغبرة، وغذاءً للعثّة.

٢ ـ نقل وعدّ آراء المتقدّمين والمتأخّرين في مسألة ما، ومحاولة ضبط كلّ واردة وشاردة فيها من دون تحقيق وفرز المهزول من المصقول، فيكون نصيبه من المعلومات هو الـ«قال» والـ«قيل» فقط، فمثله كمثل شجر ما له ثمر.

٣ ـ عدم استهداف الحقّ، وعبادة الفكرة (الأنا)، لاعتبار أنّه إله الفكر والحقّ المبين، وأنّ ما يُقال من دون أفكاره الباطل، ولذا تراه يرفض القاعدة المعروفة: «كلامي صحيح يحتمل الخطأ، وكلام الآخر خطأ يحتمل الصحّة»؛ أو يذعن لها ولكن لا يطبقها في واقعه العلمي أو العملي، وهذا هو الاستبداد والصنمية من حيث لا يشعر.

٤ ـ رغبة المحقق في إنهاء التحقيق وختمه على ما يشتهي، ولذلك نراه يتجاهل الدليل المخالف بالمرّة، أو يطليه بتبريرات غير واقعية وغريبة عن النهج العلمي.

٥ ـ العبودية الفكرية لهذا الطرف أو ذاك، والتحمّس له.

٦ ـ استنساخ بعض العلوم والمفاهيم من هنا وهناك، وطرحها على أنّها مادّة علميّة جاهزة ومفروغ منها، ثمّ تسجيلها باسمه، وهذا الأُسلوب أدّى إلى تسرّب بعض الأفكار المنحرفة، جيلاً بعد جيل، إلى مدرسة

أهل البيت عليهم السلام لتصبح بعد ذلك قواعد فكرية ثابتة وأصول أصلية.

٧ـ سباق التأليف بين هذا وذاك! كما هو حال سباق التسلّح في الدول الاستكبارية، بفارق أنّ السلاح الجديد يكون أكثر جودة وتطوّراً. فمتسابقو التأليف، وخصوصاً من يمتلك مؤسّسات تحقيقية ودور نشر، ينفق أموالاً باهضة في سبيل اسمه ورسمه، ولهذا يندر ولادة تحقيق يثري الفكر الإسلامي وينفع مكتبته ويستبشر به القرّاء الإسلاميّون.

٨ـ مراكزنا ومؤسّساتنا التحقيقيّة ـ كما هو اسمها ـ بدلاً من أن يكون عطائها ونتاجها من أجل إحقاق الحقّ، أو التنقيب عنه، أو إتمام ما قصر عنه الآخرون باعتبار أنّ ﴿**اللّه هو الحقّ وأنّ ما يدعون من دونه الباطل**﴾[1]، أخذت في الامتداد الاخطبوطي بسبب تحميل الفكرة بنتائجها على عمل التحقيق، فالعمل بهذه الصورة، بغض النظر عن صحّة الفكرة أو سقمها، يثلم المرام، أو يجعله فاشلاً بالمرّة.

وعلى العموم، يعاني المحقّق والمؤلّف الشيعي، بعمله في حقول مفاهيم الإسلام وتعاليمه، من خللين أساسيّين، إمّا ناسياً وإمّا متناسياً، ويندر تجاوز أحد هذين الخللين:

الأوّل ـ خلليّة الحوار والشعور بالمغالبة:

لا ينطلق المحقّق في محاوراته وتساجله الفكري لإثبات عقيدته، أو ما يروم الوصول إليه، من خلال ما يؤمن ويتبنّى الطرف المقابل من أُسس ومبادئ، بل ينطلق من خلال ما يحمل من مفاهيم وأُسس في ذهنه

١. لقمان: ٣٠.

بخلاف الآخر. فطالما القوالب والأشكال الأساسيّة للفكرة، وكذلك لغة الحوار بين الطرفين متباينة وغير منسجمة، فيكون مطارحة الفكر بهذه الصورة عقيم النتج، وخاوي الثمر، فتتّسع الفجوة بينهما، بل هو فساد واضح، كما يشير إليه قوله تعالى:

﴿إذاً لذهب كلّ إلهٍ بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾.[١]

ومن يتلو آيات الذكر الحكيم يجد أنّ القرآن الكريم في عدّة مواطن ينطلق في إثبات الحقّ من خلال تبنّي قوالب فكر الخصم ولغته، لإفحامه وإتمام الحجّة عليه، منها قوله تعالى في مخاطبة اليهود والنصارى:

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ اللّه ولا نشرك به شيئاً ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللّه فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون﴾.[٢]

فالقرآن ينبّه أهل الكتاب الذين انحرفوا عن الدين الإلهي وسلكوا طريق الغيّ، فدعاهم إلى أصل عام و مشترك بين جميع الأديان السماوية، وهو التوحيد وعدم الإشراك باللّه، فمن لم يقبل هذا الأصل المحكم ـ كحدّ أدنى ـ فهو في ضلال مبين. وكذلك خاطبهم القرآن بإلحاقهم النبيّ إبراهيم عليه السلام باليهودية أو النصرانية بقوله تعالى:

﴿يا أهل الكتاب لِمَ تحاجّون في إبراهيم وما أُنزلت التوراة والإنجيل إلاّ من بعده أفلا تعقلون﴾.[٣]

١. المؤمنون: ٩١.
٢. آل عمران: ٦٤.
٣. آل عمران: ٦٥.

وكذلك حوار النبيّ إبراهيم عليه السلام مع نمرود الذي ادّعى الربوبيّة، لبيان سخف معتقده وإتمام الحجّة عليه، في قوله تعالى:

﴿قال إبراهيم فإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبهت الذي كفر﴾.[1]

وسيرة أهل البيت عليهم السلام هي كذلك مشحونة بمثل هذه المحاورات والمطارحات الفكرية التي لا يجد خصمهم فيها إلاّ الاعتراف بعلمهم، والإذعان للحقّ، أو الفشل الذريع والهزيمة منهم عليهم السلام، منها ما قاله الإمام الصادق عليه السلام لابن أبي العوجاء الزنديق الذي اعترض على الإمام بما يؤدّيه المسلمون من مناسك الحجّ بأنّها أعمال عبث، فأجابه الإمام عليه السلام: «إن يكن الأمر كما تقول وليس كما تقول نجونا ونجوت، وإن يكن الأمر كما تقول وهو كما نقول نجونا وهلكت».

فالإمام أبو عبدالله عليه السلام في حديثه هذا، ينبّه الزنديق بأنّ الاعتراض وإن كان على ضوء مذهب العبثية والزندقة، على هذه الشعائر ليس له محلّ أيضاً، لأنّها تعتبر تصرّفاً كباقي تصرّفاتهم اليومية.

الثاني ـ خطئية المنهج:

وهو أشدّ خطورة من الخلل الأوّل، حيث سبّب هذا المنهج تغييراً لبعض مفاهيمنا الإسلاميّة الحقّة، وباتت من مسلّمات الدين وقواعده الراسخة. فالمحقّق هنا يجعل نفسه ميزاناً، ويوسّطها بين الثقلين والبشرية، فإن وردت عليه كلمة برّاقة وشعار لامع من البشرية يتقبّلها

١. البقرة: ٢٥٨.

بقبول حسن، بدون عرضها على القرآن والسنّة لتمحيص وكشف مدى صحّتها أو سقمها، بل يجعلها من مقرّرات الدين الحنيف.

هذا أوّلاً، وأمّا الثاني فهو إن أراد إلقاء نظريّة أو معلومة للبشرية، فهو لا يعرضها على الثقلين لأخذ تأشيرة الجواز بإلقائها، بل يسرق منهما ما تستسيغه وتستمرئه نفسه لتتويج ما يرومه، ولذا نجده يعطف آيات القرآن وروايات مدرسة أهل البيت عليهم السلام على آرائه وأهوائه، بيد أنّ الثقلين قد أوصيا بأن يكونا حلقة وصل بين المحقّق والبشريّة في معارفه وثقافته الإسلامية، فلا يتلقّى ولا يرسل فكرة حتى يعرضها عليهما، وأخذ تأشيرة الجواز منهما استقبالاً وإرسالاً.

وبعد هذا التوضيح نقول: لو التزمت مراكز التحقيق بالملاحظات المذكورة، ووضعها المحقّق نصب عينيه، لوجد كثيراً من القواعد المحسوبة على ديننا الإسلامي كقواعد ثابتة وأساسية، تنهار أمام البحث والنقد، وتحلّ مكانها نظريّات يؤيّدها القرآن الكريم بمحكم آياته، والنبيّ وعترته عليهم السلام بما ورد علينا من صحيح رواياتهم وسيرتهم.

وكنموذج من هذه المفاهيم الخاطئة التي دأب على تحصيلها طلاّب الحوزة العلمية أكثر من ألف عام، مفهوم الكراهة وفعل المكروه في الحقل الفقهي والأصولي* لأتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وهاؤم اقرؤا نصوصاً من تعريفها المتداول في كتب الأصول أوّلاً، ثمّ نتعرّض لها بالنقد، لنرى مدى استقامتها وصحّة مفهومها السائد، وهل يصادق

---

*. ونقول مفهوماً أُصوليّاً، لأنّ تأليفات الأُصول قد اعتنت بتعريف الكراهة وفعل المكروه.

الثقلان على هذه التعريفات؟ أم الشارع الحنيف قصد معنىً آخر لها؟

«الفعل... إن كان مرجوحاً فهو مكروه».(١)

«والمكروه ما الأولى تركه، وليس لفعله تأثير في استحقاق الذمّ».(٢)

«الكراهة: وهي حكم شرعيّ يزجر عن الشيء الذي تعلّق به بدرجة دون الإلزام».(٣)

«الكراهة: وهي ردع الشارع للمكلّف عن الإتيان بشيء، مع ترخيصه بفعله. فالمكروه على هذا، هو الفعل المردوع عن الإتيان به مع الترخيص، ويسمّى (بالنهي التنزيهي)، ويدلّ عليه من الصيغ ما يدلّ على الحرمة مع قرينة الترخيص».(٤)

«هي الدعوة إلى الترك من غير إلزام».(٥)

«إذا كان المكروه بمعناه المعروف، وهو راجحة الترك».(٦)

فعلى ضوء هذه التعريفات، والتعريفات السائدة لفعل المكروه والكراهة، يمكننا تعريفها أيضاً بأنّها عمل دونيّ وسفليّ قد رخّص الشرع الحنيف بإتيانه؛ لورود عبارات التعريف فيها، كـ: «راجحة الترك»،

---

١. مبادئ الوصول إلى علم الأصول، للعلاّمة الحلّي، ص٨٤، ط: دار الأضواء، بيروت ١٤٠٦/١٩٨٦م.

٢. معارج الأصول، للمحقق الحلّي، ط: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام، قم ١٤٠٣.

٣. دروس في علم الأصول، للشهيد محمّدباقر الصدر، ص١٦٤، ط: مجمع الفكر الإسلامي، قم ١٤١٢/١٩٩١م.

٤. الأصول العامّة للفقه المقارن، للسيّد محمّدتقي الحكيم، ص٦٥، ط: دار الأندلس، بيروت.

٥. مبادئ أصول الفقه، لعبد الهادي الفضلي، ص١٤، بيان في أقسام الحكم.

٦. الوافية في أصول الفقه، للفاضل التوني، ص٩٤، ط: مجمع الفكر الإسلامي، قم ١٤١٢.

و«الدعوة إلى الترك»، و«عمل مردوع»، و«حكم شرعي مزجور»، و«ما الأولى تركه».

* أمّا القرآن الكريم الذي هو المصدر الأوّل للتشريع، والذي لا ينبغي لأحد مخالفة نصوص محكماته، فيقول:

﴿**إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾[١]، وأُخرى عن لسان الجنّ: ﴿**سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد**﴾.[٢]

فمن خلال هاتين الآيتين المحكمتين نفهم أنّ كلّ عمل خلاف الرشد، وكلّ تصرّف خلاف الاستقامة هو خلاف القرآن، وما كان مخالفاً له فهو باطل، والباطل حرام، إذ القرآن الكريم لا يصادق على الدونية والرجعية أبداً ولو بمقدار ذرّة.

* وأمّا الروايات الواردة عن أئمّة أهل البيت ﷺ، كذلك هي تستقبح التعاريف السائدة للكراهة، منها ما ورد عن أبي عبدالله الصادق ﷺ:

«من استوى يوماه فهو مغبون... ومن لم ير [يعرف] الزيادة في نفسه فهو إلى النقصان، ومن كان إلى النقصان فالموت خير له من الحياة».[٣]

فهذا الحديث واضح البيان لمن لا يعصم نفسه عن فعل المكروه، هو إلى نقصان ودونية وارتجاع الذي حرّمه الدين الإسلامي الحنيف.

وربّما يعترض علينا بأنّ عمل الكراهة كعمل التجارة، فمن الممكن للتاجر أن يرضى بالربح القليل دون الربح الكثير ومع ذلك نرى الإسلام

١. الإسراء: ٩.
٢. الجنّ: ١ ـ ٢.
٣. وسائل الشيعة ١٦: ٢١٠٧٣٩٤/ وأمالي الصدوق: ١: ٤/٦٦٨.

يمضي على مثل هذه الأعمال ويستحسنها.

فنقول: هذا قياس مع فارق، لأنّ التاجر في عملية البيع يكون بين مسألتين: الأولى خوفه واضطرابه من انصراف المشتري وبقاء السلعة بين يديه، وبين المساومة مع المشتري والرضى بالربح الأدون دون الأعلى، لذا فالتاجر يرى قليل الربح خيراً وأفضل من تعطيل عمل البيع وتكدّس السلع في مخازنها، فتصرّف كهذا في نظر التاجر هو عمل بالأفضل والأحسن، لا الأدون.

أمّا في عمل المكروه على ضوء التعاريف المذكورة، فالمكلّف قد رُخّص له ترك الأفضل والأحسن، والعمل بالأدون بعلم واختيار منه وطوع نفسه تماماً، دون أيّ خوف أو ضرر أو محذور! ولذا فهو إلى دونية ونقصان، الذي نهى وحرّمه الدين الإسلامي.

ونجيب لمن يقول إنّ هذا النقصان عبارة عن ضرر غير معتدّ به ولا يراه الدين شيئاً ذا أهميّة ليؤاخذ المكلّف به، أنّ النقصان في مقابل التمام والضرر في مقابل عدمه حرام، سواء كان قليلاً أم كثيراً، كما ورد عن لسان النبيّ صلى الله عليه وآله: «لا ضرر ولا ضرار» أي لا حكم ضرري في الإسلام، وكيف يكون هناك ضرر غير معتدّ به في الدين من جانب، ومن جانب آخر تصل لنا روايات بأنّ كتاب «الجامعة» فيه أرش الخدش وأحكام أدقّ من ذلك!

هذا، وكيف نعرف أنّ هذا ضرر معتدّ به وذاك غير معتدّ به؟ فهل من وحدة قياسية ثابتة له لتشير إلى الحدّ الفاصل بين المعتدّ وغير المعتدّ به! فالمكلّفون لا يمكنهم تشخيص ذلك! فإن قيل: ما تعارف عليه المجتمع.

نقول: الأعراف الإنسانية متباينة ولا يمكن التعويل عليها فـي هـذه المسألة أبداً، وإن كنتم تقصدون بالعرف هو العرف الإسلامي أو العقلية الإسلامية، كذلك نقول: نحن نشاهد المجتهدين الذين هم نخبة المجتمع الإسلامي، منهم من يحرّم التدخين لتحقّق الضرر عنده، وآخر يراه مباحاً لعدم ورود أو كشف نصّ فيه، ولم يتحقّق الضرر عنده، وكذا باقي أفـراد المجتمع الإنساني والإسلامي، منهم من يراه مضرّاً وآخر لا يرى ذلك.

فكيف يمكن لنا تشخيص المضرّ من غير المضرّ! فهل هـناك مـيزان ووحدة قياسية ثابتة ليشخّص المكلّفون أعمالهم على ضوئها؟

وبصورة أوضح نقول: إنّ أعمال الناس على وجه الأرض لا عدّ لهـا ولا حصر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى قدرة استنباط الأحكام مفقودة عندهم، وكذلك يستحيل لهم الرجـوع للـمجتهد فـي كـلّ مـا دقّ مـن تصرّفاتهم اليومية لمعرفة هل هي مضرّة أو غير مضرّة، وأيضاً يستحيل للمجتهد الإجابة على كتل هائلة من الأسئلة يوميّاً! لأنّ وظـيفته بـيان الحكم لا الموضوع، وإليك نماذج من الأسئلة التي لا تعدّ ولا تحصر:

١ ـ قماش إزاري فيه نسبة من النايلون ويؤذيني في الصيف إن تعرّق جسمي، فهل هذه الأذيّة ضرر معتدّ به أم لا؟

٢ ـ لون القميص يؤيّده قسمٌ من الناس، وقسمٌ يسخرون منّي بسببه، فهل هذه السخريّة تدخل ضمن لباس الشهرة، أي الضرر معتدّ به أم لا؟

٣ ـ أزرار الإزار عددها أقلّ من المـتعارف، أحـد الخـيّاطين يـقول ارتدائه ضرر لانكشاف صدر الرجل في بعض الأحـيان فـي المشـاهد العامّة من خلال الأزرار، وآخر يقول لا ضرر. فما أفعل؟ فهل يسـتغنى

عن ارتدائه، ولم يعتبر ذلك تبذيراً؟

٤ ـ فصال القميص أو البنطال يستقبحه ناس، وآخرون يرونه علامة التحضّر. فما الحيلة والمخرج؟

٥ ـ لون القميص لا ينسجم مع لون البنطال فلا ترتاح له أنفس الناس، وربّما سبّب لهم الكئابة، فهل هذا ضرر معتدّ به أم لا؟

٦ ـ أتناول وجبة الغذاء بملابس عملي في أرقى المطاعم، وهذا ما يمنع ارتياد بعض زبائنه، أو ربعهم، أو نصفهم أو كلّهم له، فهل هذا ضرر معتدّ يلحق بصاحب المطعم؟ وهل نسبة انصراف الزبائن لها تأثير في حدّة الضرر أم لا؟

٧ ـ عمل التحقيق في بداية الليل أو أواسطه يحول دون أداء نوافل الليل فلا أدري هل هذا العمل ضرر معتدّ به أم لا، ولا أدري أداء نوافل الليل وترك التحقيق ضرر معتدّ به أم لا؟

والأسئلة كهذه مطاطيّة وتعجيزية، لا حدّ لنهايتها ولا خاتمة لها، ولو شئنا جعلناها من المطوّلات!

إذن لا يمكن إحالة مقدار الضرر أو اعتداده إلى ما تعارف عليه في المجتمع الإسلامي أو إلى العقلية الإسلامية.

* وأمّا **الدليل العقلي** فهو كذلك لا يوافق على الكراهة بتعريفها السائد في الحوزات العلمية، إذ الأعمال عندما ترفع للّه عزّ وجلّ يوم القيامة لا تخلو من وجهين:

الأوّل: الرفض، بمعنى العمل بالحرام وسخط الربّ عليه، وذلك هو الخسران المبين.

الثاني: القبول، بمعنى العمل بالأمر ورضا الربّ عليه، وذلك هو الفوز الكبير، وأمّا كثرة الثواب المترتب على العمل، أو قلّته فهو بحث آخر بيد اللّه عزّ وجلّ، فمجرّد قبول عمل المكروه يخرجه عن صفة الكراهة، والواجبات كما نعلم تختلف فيما بينها من حيث ترتّب الثواب عليها، كمن يصلّي فرادى، أو جماعة دون العشرة أو أكثر.

ومن يضع الكراهة بين عدم الرفض وعدم القبول، بمعنى العبثية أو التعليق، فهو بعيد من المولى سبحانه، وتعالى اللّه عنه علوّاً كبيراً.

وإذا كان العقل ما يُعبد به الرحمان ويُكتسب به الجنان، وأنّه يجلب المنافع على الصعيدين الماديّ والمعنويّ، ويدفع المضارّ عنهما، فهل هذا العقل يرضى لنفسه العمل بالمكروه بعد علمه بمفهومه المتداول!

ولا يخفى أنّ آيات محكمات من القرآن الكريم تشير بكلّ وضوح إلى أنّ ما بعد الحقّ إلاّ ضلال وبطلان، فالعمل بالمكروه هل هو حقّ أم ضلال وبطلان؟

وأيضاً حديث رفع القلم عن بعض تصرّفات المكلّف لا يشمل المكروهات، أي أنّه عمل إمّا سلبي له عقوبة، وإمّا إيجابي له مثوبة.

وإذا كان الهدف من إنزال الشرائع الإلهية وإرسال الأنبياء والرسل لأجل تكامل الإنسان وسموّه، فهل العمل بالمكروهات ـ على ضوء التعريفات السائدة ـ يحقق التكامل والتسامي للبشرية! ومن المعلوم أنّ ديننا دين العبودية المطلقة للّه عزّ وجلّ، فمن يرتكب العمل المكروه ـ بمفهومه السائد ـ بطوع نفس وإرادة حرّة من دون اضطرار، هو خلاف العبودية المنشودة التي خلق اللّه تعالى الجنّ والإنس من أجلها!

وربّما يعترض أحد ويقول: كيف نستغني عن مفهوم الكـراهـة وقـد حفلت بها روايات من أهل البيت عليهم السلام خرجت عن حدّ الإحصاء؟ وكذا يستحيل حصر أحكام المكلّف بين الوجوب والحرمة، لأنّه تكليف بما لا يطاق، وهو خلاف الشريعة السهلة السمحة، بل دون المفهوم المـتداول للكراهة خرط القتاد!

فنجيب: نحن لا ننكر وجود مفهوم الكراهة في الشريعة الإسـلامية، ونذعن احتفال أحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله وروايات مدرسة أهل البيت عليهم السلام بها، وكذلك لا نقول بانحصار أحكام الشريعة بين الوجوب الحرمة، ولكـنّنا نقول: ما هو معروف الآن على الساحة الإسلامية للكراهة، لا ينسجم مع القرآن والأحاديث الشريفة والدليل العقلي، أي أنّه استفهام باطل.

فإذا كان معنى وتعريف الكراهـة السـائد، الذي يـعتبر مـن مـبادئ وأُسس صرح ديننا تعريفاً مـفشولاً، إذاً يـتبعه فشـل تـعريف ومـعنى المستحبّ السائد تلقائياً، أي قواعد البناء الديني للـعقلية الشـيعية، أو نسبة كبيرة من أحكامنا الشرعية على ضوء هـذه المـفاهيم المـتداولة مهزولة!

نحن نجد أنّ التعاريف السائدة في كتبنا حول الكراهة وفعل المكروه، تتناغم مع مدرسة الخلفاء والأصحاب! أي أفكار ملتقطة.

فهل قانون الدين الإسلامي من خلال الثقلين، استهدف معنى آخـر من حكمه بكراهة عمل أو استحبابه؟

باليقين نقطع نعم، وإثبات هذه المسألة وما يماثلها من مسائل، خارج عن موضوع بحثنا، ومرامنا من تمثيلها في المقدّمة الثانية لهذا الكتاب هو

كنموذج لبيان وهن مفهومها ووهن مفاهيم أخرى التي عضّت عليها الأمّة الإسلامية جيلاً بعد جيل بضرس قاطع، وقبولها على أنّها قواعد ثابتة ومفروغ منها، فلا نقاش فيها، ولا شكّ يعتريها، ويعتبر واضعها وأمثالها على طاولة النقد العلميّ البنّاء هو معتدٍ مريب!

وإليك مثال آخر نتناوله بالنقد على ضوء الثقلين:

أخذ بالاحتياط علماء المذاهب المعاصرون لأئمة أهل البيت عليهم السلام وتناوشه المحدّثون وفقهاء الشيعة منذ الغيبة الكبرى وما زالوا يفتون به بازدياد مستمر وهو محرّم في الشرع من وجهين:

الأوّل: الافتاء بغير علم سواء لنفسه أو لمقلديه من خلال آيات عديدة وروايات كثيرة لا تخفى على طالب العلم.

الثاني: إيجاد العسر والحرج وهو أيضاً من مناهي الشريعة السهلة السمحة بآيات وروايات كثيرة صريحة.

فالفقيه الذي خفي عليه الحكم الشرعي له العمل بأسهل الاحكام لكونه لم يهتد للحكم الشرعي فتشمله المظلّة النبوية صلى الله عليه وآله برفع القلم عن الذين لا يعلمون، وكذلك تشمله مظلّة الإعفاء من قوله تعالى: ﴿**وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به**﴾[1] أو أن يقلّد من يفتي بها من أصحابه في المذهب، لكونه مكلّف أولاً وجاهل في المسألة ثانياً.

فإن أذعن الجمع بعدم معرفة الحكم، وجب على المؤسسة الدينية إنتقاء نخبة وتعيين زمان للبتّ في المسألة لمعرفة حكمها، وفي عدم

---

١. الأحزاب: ٥.

الوصول إلى نتيجة، تبقى المسألة كباقي المسائل العلمية مطروحة لمن يريد الكشف عنها.

وما قول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أخوك دينك فاحتط لدينك بما شئت»[١] وقول الصادق عليه السلام: «لك أن تنظر الحزم وتأخذ بالحائطة لدينك»[٢] إلاّ بمعنى الحذر الذي أشارت إليه آيات كتاب اللّه الكريم، ولا يمكن الأخذ بظاهر كلمتا (فاحتط..الحائطة) إلاّ بشواهد ثقلينية.

وأقول بصراحة: الافتاء بالاحتياط علاوة على الحرمة الشرعية على ضوء الثقلين، هو دمغ العقل، وإغلاق بوابة الفكر، وخنق الاجتهاد الفعّال.

مثال ثالث للنقد:

يتناول علماء الأصول في دراساتهم قاعدة الأهم والمهم عند التزاحم، وأنّ الأهم يقدّم على المهم، وتعتبر هذه القاعدة من المسلّمات عقلاً!! وعلى ضوء هذه القاعدة يرى الأصوليون ومن تلا سورة يوسف عليه السلام من القرآن الكريم أو قرأ قصته، أنه عليه السلام عندما طلب من اللّه تعالى دخول السجن قد عمل بالأهم وهو المستحسن والصحيح في نظرهم إيماناً منهم بالقاعدة المذكورة.

والإشكال الوارد على هذه القاعدة أنّ الأهم بالنسبة إلى الأهم منه يكون مهماً فيحصل التسلسل الباطل.

وعند مراجعة الثقلين نرى أنّهما يرفضان هذه القاعدة ويقولان

---

١. وسائل الشيعة، كتاب القضاء، ح ٣٣٥٠٩.

٢. المصدر، ح ٣٣٥٢٨.

بقاعدة الإصابة، أي الانجاز التام الذي لا يشوبه نقص وخلل وانحراف، إذ لا يكون بعد الاصابة إصابة، وقد ورد عن الامام الصادقعليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿**ليبلوكم أيكم أحسن عملا**﴾ قالعليه السلام: «ليس يعني أكثركم عملاً، ولكن أصوبكم عملاً».(١)

أمّا النبي يوسفعليه السلام فإنّه عمل بالأهم وغفل عن الإصابة، هذا ما أشارت إليه النصوص، منها الرواية التالية:

«شكا يوسفعليه السلام في السجن إلى اللّه فقال: يا ربّ بما استحققت السجن؟ فأوحى اللّه إليه: أنت اخترته حين قلت: ربّ السجن أحبّ إليّ مما يدعونني إليه، هلاّ قلت العافية أحبّ إليّ مما يدعونني إليه».(٢)

وبغض النظر عن صحّة هذه الرواية والنصوص المشابهة لها، كان جديراً بالنبي يوسفعليه السلام أن يطلب من اللّه ذوالكمال والقدرة والإرادة الغير المتناهيتين ما هو أفضل من أن يحصر نفسه بالدعاء في إطار تهديد امرأة العزيز.

فمن خلال الأمثلة الثلاث التي ضربناها نقول: بأنّنا جميعاً نؤمن جزماً بحديث الثقلين الّذان هما أمان من الضلال والانحراف عن مسير الرشد والهدى، إلاّ أنّنا لم نلتزم بهما في المدارسة والتحقيق!! فالأخباري توقف ولم يواكبهما، والأصولي خلط معهما كلام هذا وذاك، ونشاهد بأمّ

---

١. الكافي، ج ٢، ح ٤؛ بحار الأنوار، ج٦٧، ص ٢٥٠، ح ٢٦.
٢. تفسير القمي، الآية ٣٣ من سورة يوسفعليه السلام؛ بحار الانوار، ج ١٢، ص٢٤٧؛ وأشار إليها الصدوق(ره) في علل الشرائع، ج ١، ص٢١٩. وورد هذا النص في مصادر أهل السنة باختلاف الالفاظ، وكذلك وردت روايات في كتب الفريقين بهذا المضمون.

أعيننا هذه الأيام آراء مستجدة في كيفية استنباط الحكم الشرعي لا تلتزم بالثقلين عملياً كوحدة قياسية كافية ومغنية في إستنباط الاحكام.

فإن آمنّا أنّ التمسك بالثقلين أمان من التيه والضلال، نقول: للإنسان أن ينظّر ويقول ما يشاء وينسبه إلى اللّه تعالى، إلاّ أننا لا نوافقه ولا نؤيّده على تنظيره ومقاله حتى يشفعه بأدلّة الثقلين، فنحن أتباع الدليل الأقوى والأوفر منهما.

وبالجملة فالنقد والاثبات لا يتمّ إلاّ على مقياس الثقلين، لا عن ذوق عقلي ودافع شخصي، ولا عن طريق مجمع أو شهرة آراء الرجال! وعندي أنّ قواعد الفقه وأصوله والعلوم الاسلامية منحدرة من نبع واحد، لأنّ الكشف عنهن ومعرفتهن يتمّ من خلال الثقلين. إذن الاهتداء بصراط الثقلين الذي هو من عند اللّه سبحانه وبما أنّه حقّ وصواب، فهو يكشف لنا عن وهن الآراء الباطلة والمناهج المزيفة والأحاديث المجعولة والمدسوسة، فمثلاً التحقيق في مقام الإمامة واستبيانها لا يسمح بالإيمان أن الامام المهدي عليه السلام عند ظهوره يخاف كخيفات النبي موسى عليه السلام، ومن اطلع على بعض خصائص نعيم الآخرة لا يؤمن بأنّ اللّه تعالى يبني بيتاً للسيدة خديجة عليها السلام في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب!! والخ..

أرجو من ذوي الألباب عدم تحميل الفكرة على الحقّ (الثقلين) أو يعطفوا به على أفكارهم ونظريّاتهم، فالتحميل يعني الانحياز للنفس، وعملية العطف على الرأي والطلب له تختلف عن عملية العرض للتصديق! فعلينا أن لا نقول في الدين إلاّ الحقّ، ونسلّم له بغير حرج،

وندور معه حيث ما دار.

وأخيراً: ينبغي لي هنا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الهيئة العاملة في مكتبة مركز الثقافة وعلوم القرآن الكريم التابع لمكتب الاعلام الاسلامي للحوزة العلمية بمدينة قم المقدّسة، إذ أتاحت لي الحرية التامة، ومنحتني الثقة الكاملة لانتقاء ومطالعة ما يلزمني من مصادر لهذا التحقيق، وكذلك أشكر الاخوة المحققين في مكتب الاعلام المذكور على تصبّرهم وتخصيص وقت للحوار والمناقشة.

المحقق – قم المقدّسة

Almuhsn@yahoo.com

Almuhsn@gmail.com

مفهوم العصمة لغة وشرعاً

حاولنا انتقاء أهمّ ما قيل وما ورد من معانٍ لكلمة العصمة في معاجم اللغة وكتبها قديمة كانت أو حديثة، فوجدنا صاحب كتاب «التحقيق في كلمات القرآن الكريم» قد أجاد بيانها وأحسن إيضاحها، فأوردنا معظم تحقيقه فيها. قال صاحب التحقيق:

«عصم:

مصبا* ـ عصمَه اللّه من المكروه يَعصِمُه من باب ضرب: حفظه ووقاه. واعتصمتُ باللّه: امتنعت به. والاسم العِصمة. والمِعصم وزان مِقوَدْ: موضع السِوار من الساعد. وعِصام القِربة رباطها وسَيرُها الّذي تحمل به، والجمع عصم.

مقا** ـ أصل واحد صحيح يدلّ على إمساك ومنع وملازمة. والمعنى فى ذلك كلّه معنى واحد. من ذلك العصمة، أن يَعصِم اللّهُ تعالى عبدَه من

* . مختصر معجم مصباح اللغة للفيّومي.

** . مختصر معجم مقاييس اللغة لابن فارس.

سوء يقع فيه.

واعتصم العبد باللّه تعالى إذا امتنع. واستعصم: التجأ. وتقول العرب: أعصمت فلاناً أي هيّأت له شيئاً يعتصم بما نالته يده، أي يلتجئ ويتمسّك به. والمُعصِم من الفُرسان السيّء الحال في فروسيته تراه يَمتسك بعُرف فرسه أو غير ذلك. والعِصمة: كلّ شيء اعتصمتَ به. وعصمَه الطعام: منعه من الجوع. والعُصم: الحِنّاء ما لزم يدَ المختضبة، وأثره بعد ذلك عُصم، لأنّه باق ملازم. وعِصام المحمل: شِكاله وقيده الذي يشدّ به.

الاشتقاق ١١٥ـ عاصِم: فاعلٌ، من قولهم عصمتُ الرجل أعصُمه عصماً: إذا وقيتَه من شيء يخافه، فأنت عاصم، والشيء معصوم، وعِصام الوِعاء: وكاؤه. وعُصم الشيء: باقي أثره، وهو العَصيم أيضاً. والمِعصم: الذِراع، والجمع مَعاصِم.

العين ٣٦٩/١ـ العِصمة: أن يعصمك اللّه من الشرّ، أي يدفع عنك. واعتصمت بالله أي امتنعت به من الشرّ. واستعصمتُ أي أبيت. وأعصمتُ أي لجأت إلى شيء اعتصمت به. وأعصمتُ فلاناً: هيّأت له ما يعتصم به. والغَريق يَعتصم بما تناله يدُه أي يَلجأ إليه والعصمة: كلّ شيء اعتصمت به.

والتحقيق:

أنّ الأصل الواحد في المادّة هو حفظ مع دفاع. يقال عصمته أي حفظته مع دفاع عنه، وهو عاصم، وذاك معصوم. والاعتصام: اختيار العصمة، أي إرادة أن يعصم نفسه ويحفظها مع دفاع عمّا يضرّه. والاستعصام: طلب حصول العصمة. والإعصام: جعله معتصماً بشيء...

والعِصمة: اسم مصدر بمعنى تحقّق المحفوظيّة والدفاع عنه. ومن لوازم الأصل: الالتجاء والتمسّك والمنع والوقاية وغيرها.

فظهر انّ المادّة يلاحظ فيها قيدان: الحفظ، الدفع. وبلحاظ القيدين استعملت في موارد من القرآن الكريم. وهذا هو الفرق بينها وبين موادّ الحفظ والدفع والصون والمنع وغيرها.

﴿**والله يعصمك من الناس**﴾ ٥/٦٧.

﴿**قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلّا من رَحِم**﴾ ١١/٤٣.

﴿**يوم تولّون مدبرين ما لكم مِنَ الله مِنْ عاصم**﴾ ٤٠/٣٣.

﴿**سآوي إلى جبل يَعصمني من الماء**﴾ ١١/٤٣.

يراد في هذا الموارد الحفظ مع دفع ما يلزم دفعه، وليس النظر إلى الحفظ فقط فانّ هذه الموارد يلاحظ فيها المواجهة بالشرّ والضرر، والحفظ من حيث هو لا يدفع الاضطراب وتشويش الخاطر، فيلزم الحفظ بدفع الخطرات والمضارّ. وهذا لطف التعبير بالمادّة فيها.

وفيها اشارة أيضاً إلى كمال الاقتدار وسعة النفوذ والسلطة للّه تعالى في كلتا الجهتين الحفظ والدفع جميعاً، وضعف ما سواه وعجزه في قبال ما يشاء ويريد.

﴿**قُل مَن ذا الذي يعصمكم مِن الله إن أراد بكم سوءاً**﴾ ٣٣/١٧.

﴿**إلّا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله**﴾ ٤/١٤٦.

﴿**ومَن يعصتم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم**﴾ ٣/١٠١.

﴿**واعتصموا بالله هو مولاكم**﴾ ٢٢/٧٨.

﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا**﴾ ٣/١٠٣.

الاعتصام هـو اخـتيار الحـفظ والدفـاع. وحـرف البـاء للارتـباط والإلصاق. والمفعول محذوف فانّ المراد حفظ النفس وضبطها.

أي احفظوا أنفسكم وادفعوا عنها باللصوق والتوسّل إلى اللّه تـعالى وبحبله، ولا يخفى أنّ المادّة تستعمل بحرف البـاء: إذا كـان النـظر إلى السببيّة والتوسّل. وبحرف من أو عن: إذا كان النظر إلى الدفـع والمـنع. وبحرف إلى: إذا كان النظر إلى جهة الالتجاء.

والاستعصام: طلب العصمة وتحرّي ما يحصل بـه الانـعصام ﴿**ولقد راودته عن نفسه فاستعصم**﴾ ٣٢/١٢. أي طلب العصمة لنفسه والدفاع.

﴿**ولا جناح عليكم أن تنكحوهنّ إذا آتيتموهنّ أُجورهنّ ولا تُمسكوا بعصم الكوافر وسألوا ما أنفقتم**﴾ ١٠/٦٠.

أي لا تضبطوهنّ بعنوان حفظهنّ والدفاع عنهنّ، والإمسـاك يـقابل التسريح. والتعبير بالعِصم وهو جمع العصمة بمعنى الاحتفاظ مع الدفع: فانّ المرأة تعيش في حماية الرجل وحفظه ودفاعه عنها...».[١]

❊ ❊ ❊

فالملاحظ من قول صاحب مصباح اللغة في هذه الكلمة، وكذلك ما أورد صاحب معجم مقاييس اللغة لها، وما ذكر في الاشتقاق فيها، وأيضاً ما ورد في العين لمعناها، وما قاله صاحب التحقيق في تحقيقها، نستنتج أنّ معنى العصمة لغوياً هو: الحفظ والدفاع.

هذا من جانب، ومن جانب آخر، فعلاوة على ما ذُكر لمعنى العصمة

١. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي (عصم).

في كتب اللغة وتحقيق كلمتها، قد احتفل كتاب اللّه تعالى بما يناهز ثلثمائة آية أو أكثر بكلمتي (السوء والضرر)* على الصعيدين المادي والمعنوي، منها:

قوله تعالى: ﴿قُل مَن ذا الذي يعصمكم مِن اللّه إن أراد بكم سوءاً﴾.[1]

وقوله عزّ وجل: ﴿يا أيّها الناس... لا تتّبعوا خطوات الشيطان... إنّما يأمركم بالسوء والفحشاء﴾.[2]

وكذلك قول تبارك تعالى: ﴿إنّما التوبة على اللّه للذين يعملون السوء بجهالة ثمّ يتوبون من قريب﴾.[3]

وأيضاً قوله سبحانه: ﴿قل فمن يملك لكم من اللّه شيئاً إن أراد بكم ضرّاً أو أراد بكم نفعاً﴾.[4]

وقول اللّه عزّ وجل: ﴿وإن يمسسك اللّه بضرّ فلا كاشف له إلاّ هو﴾.[5]

إذن فالعصمة: الحفظ والدفاع، والسوء والضرر هو المطلوب من العبد أن يتجنّبه من خلال النصوص القرآنية، وبملاحظة أنّ حياة هذا الإنسان بين المادّة والروح، فنستنتج أنّ تعريف العصمة من الناحية الشرعية هو: الامتناع وحفظ النفس والدين ووقايتهما ومنعهما عن كلّ ما

---

*. هذا بغضّ النظر عن آيات أُخر تحذّر الإنسان من الولوج في المهالك، أو اتّباع الشيطان، بصفته مظهر من مظاهر الشرّ، والسوء، والضرر للإنسان.

١. الأحزاب: ١٧.

٢. البقرة: ١٦٩.

٣. النساء: ١٧.

٤. الفتح: ١١.

٥. الأنعام: ١٧، ويونس: ١٠٧.

يسوؤهما ويضرّهما، سواء كان صغيراً هذا السوء والضرر أم كبيراً.

وبما أنّ الذنب والمعصية هو أحد مصاديق الضرر والسوء الذي يلحق بالإنسان فيتبيّن هنا ضعف التعريف السائد والمتداول في كتب العقائد: إنّ العصمة من الناحية الشرعية تعني العصمة عن الذنب، وسيتبيّن للقارئ اللبيب من خلال البحث أنّ العلماء ـ بكافّة مذاهبهم ـ عندما عرّفوا معنى العصمة بأنّها «العصمة عن الذنب» قد ضيّع هذا التعريف جهودهم، وتيّه بحوثهم، وجعلهم في حيرة من أمرهم لبقاء فجوات وثغرات في تحقيقهم لم تسدّ بعد.

وهنا أيضاً يتبيّن ضعف رأي من قال بصدور التروك الإرشادية، أو الندبية من المعصوم، أي ترك الأولى؛ لأنّ المعصوم من عرف شرّ الخيرين فيجتنّبه لما يؤول إليه. وسنوضّح هذه المسألة أكثر في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى.

إذن، نحن منطلقون في بحثنا هذا، بروح متحرّرة من كلّ حكم مسبق، وبموضوعية تامّة على أنّ المعصوم مَن حفظ ووقى نفسه ودينه من كلّ سوء وضرر يلحق بهما.

العصمة وآراء الطوائف الإسلامية فيها

ناقشت الطوائف الإسلامية هذه المسألة في أربعة مواضع[1]، وكذلك اختلفوا في وقتها، فمنهم من أوجبها من المهد إلى اللحد، وقسم آخر منهم أوجبها بعد البعثة، وهي:

الأول والثاني:

فيما يتعلّق بتلقّي الوحي وإبلاغ الرسالة، فإنّ الأمّة قد أجمعت على عصمتهم مطلقاً.

الثالث والرابع:

فيما يتعلّق بسيرتهم، وفتاويهم، وسننهم، انقسمت الطوائف الإسلامية إلى قسمين رئيسيّين:

---

١. راجع الصفحات الأُوَل من كتاب تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى؛ وعصمة الأنبياء لفخرالدين الرازي؛ وتفسير القرآن الكريم لصدر المتألّهين ٣: ١١١، ط بيدار، قم المقدّسة.

الطائفة الشيعية، والطائفة السنّية.*

١ ـ الطائفة الشيعية:

هذه الطائفة أقرّت بالعصمة، مستلهمة ذلك من آيات القرآن الكريم، إضافة إلى الدليل العقلي، وهي كذلك تنقسم إلى ثلاث طوائف:

أ ـ وجوب العصمة المطلقة، أي لا يجوز عليهم صغيرة، ولا كبيرة، ولا خطأ، ولا نسيان، ولا سهو، وتفسّر الآيات التي تبدو في القرآن مخالفة للعصمة بمعنى الانقطاع إلى اللّه تعالى... الخ.[١]

ب ـ وجوب العصمة، ويعتبرون الآيات القرآنية التي تبدو مخالفة للعصمة هي بمنزلة ترك الأولى، أو ترك الأمر الندبي، أو الإرشادي.[٢]

ج ـ وجوب العصمة، ويعتبرون الآيات القرآنية التي تبدو مخالفة للعصمة بأنّه خطأ، أو نسيان، أو غفلة، أو سهو في الحياة العادية ولا يرتبط بتبليغ الأحكام الإلهية.[٣]

---

*. أقصد بالطائفة الشيعية التي توجب خلافة أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بنصّ القرآن الكريم ونصّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بلا فصل، وبالطائفة السنّية التي توجب خلافة علي عليه السلام كباقي خلفاء المسلمين.

١. راجع عدم سهو النبي صلى الله عليه وآله للشيخ المفيد؛ نتائج الأفكار، تقريرات آية اللّه الكلبايكاني: ٢٠٠؛ سلسلة أُصول الدين، لآية اللّه دستغيب، كتاب النبوّة: ١٣٠.

٢. راجع كتاب تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى، تنزيه آدم عليه السلام؛ تفسير صدرالمتألهين الشيرازي ٤: ١٢٢، ط: دار التعارف، بيروت.

٣. راجع التفسير الأمثل لآية اللّه ناصر مكارم الشيرازي ٩: ٢٨١؛ مفاهيم القرآن، العلاّمة الشيخ جعفر السبّحاني: ٧٣ ـ ٧٤، وكتابه عصمة الأنبياء: ١٦٠ ـ ١٦١؛ التفسير المبين، محمّد جواد مغنية: ٣٩١.

٢ ـ الطائفة السنّية:

هذه الطائفة أجازت الذنوب والمعاصي، والخطأ، والنسيان، مستدلّة على ذلك بآيات القرآن، وسيرة الرسول ﷺ، وهي تنقسم إلى:

أ ـ مَن يجوّز الإقدام على الكبائر والصغائر.

ب ـ مَن لا يجوّز تعمّد الكبيرة، أمّا ارتكاب الصغيرة فهو جائز بشرط أن لا تكون منفّرة.

ج ـ مَن لا يجوّز عليهم تعمّد الكبيرة والصغيرة، ولكن يجوز صدور الذنب منهم على سبيل الخطأ في التأويل.

د ـ مَن لا يجوّز عليهم الكبيرة ولا الصغيرة لا بالعمد ولا بالتأويل ولا يجوّز الخطأ، أمّا السهو والنسيان فجائزان.*

ويمكننا بعد نقلنا آراء المسلمين حول العصمة أن نلخّصها كالآتي:

أ ـ عصمة مطلقة.

ب ـ عصمة مع ترك الأولى، أو ترك الأمر الإرشادي أو المندوب.

ج ـ عصمة مع نسيان وخطأ في مسائل الحياة العادية لا ترتبط بالأحكام الإلهية ولا الأمور التبليغية.

د ـ ذنوب كبيرة (قبل البعثة أو بعدها).

هـ ـ ذنوب صغيرة (قبل البعثة أو بعدها).

و ـ ذنوب صغيرة بشرط أن لا تكون منفّرة.

ز ـ ذنوب على سبيل سهو ونسيان وخطأ.

---

*. ما أوردناه من آراء قد نقلناها من الصفحات الأُوَل لكتابي تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى، وعصمة الأنبياء للفخر الرازي.

مناقشة أدلّة القائلين بالعصمة وعدمها

١ ـ مناقشة أدلّة القائلين بالعصمة:

استدلّ علماء الطائفة الشيعية على العصمة بآيات من القرآن الكريم، وكذلك بالأدلّة العقلية.

أـ مناقشة أدلّتهم القرآنية على العصمة:

بداية ينبغي الاشارة إلى أنّه لا يجوز الاستدلال على عصمة الأنبياء من خلال الآيات القرآنية التي يمكن تأويلها إلى غير ما هي عليه، كما جاء في وصيّة أميرالمؤمنين عليه السلام لمبعوثه للاحتجاج على الخوارج بعدم المحاججة بالقرآن طالما الآية قد اختلف الفريقان في تأويلها، ولا يمكن حصرها في معنى واحد.

وها نحن نذكر الآيات المستشهد بها على عصمة الأنبياء ونسجل ملاحظاتنا عليها*:

---

*. ما تصفّحنا تفسيراً قد تناول موضوع العصمة، أو كتاباً حولها إلاّ واستشهد كاتبها بمعظم هذه

١ـ ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾[١] فمن هداه اللّه لا يكون على ضلالة.

ـ هذه الآية خاطبت الرسول صلى الله عليه وآله أوّلاً، والناس ثانياً، وهي تعني أنّ الأنبياء ما داموا على هدى من اللّه وجب الاتّباع والاقتداء بهم، لأنّ الهداية والطريق السويّ من اللّه وإليه، كما قال تعالى بعد ذكر إنعامه على الأنبياء بالهداية وذكر مجموعة منهم، قال: ﴿**ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده**﴾[٢]، وأمّا إن كان العمل قد صدر من نبيّ من الأنبياء على غير هداية من اللّه، فلا يجوز الاقتداء به، مثل قوله تعالى محذّراً الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله من اتّباع يونس عليه السلام والاقتداء به في أحد تصرّفاته، فقال: ﴿**فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم**﴾[٣] فهذه الآية تدلّ على أنّ أعمال الأنبياء ليست دائماً وأبداً على هداية مطلقة وتامّة.

الآيات على عصمة النبي إلاّ ما ندر من العلماء، كالشريف المرتضى، فقد استدلّ عليها بالدليل العقلي فقط. ونحن لم نأتِ بالنصوص الواحد تلو الآخر للمناقشة، لاعتبار هذه الآيات من المسلّمات على العصمة لدى الجميع، وتحاشياً للتطويل لما فيه سأم القارئ.

للمزيد راجع تفسير صدرالمتألّهين الشيرازي ٤: ١٢٢، ط: دار التعارف، بيروت؛ نفحات القرآن، آيةاللّه ناصر مكارم الشيرازي ٧: ٧٨ ـ ٧٩، ط: مؤسسة أبي صالح، وآزرهم في ذكر معظم هذه الآيات كدليل على العصمة، فخرالدين الرازي في كتابه عصمة الأنبياء: ٩ وما بعدها، ط: منشورات كتبي نجفي.

وقدّمنا النصّ القرآني في كتابنا هذا على الأدلّة العقلية لحاجة في أنفسنا قضيناها.

١. الأنعام: ٩٠.

٢. الأنعام: ٨٨.

٣. القلم: ٤٨.

ونحن إن سلّمنا جدلاً بأنّ الآية ﴿... **فبهداهم اقتده**﴾ تشير إلى العصمة فإنّنا نقع في مشكلة ثانية، وهي أنّ الرسول صلى الله عليه وآله بما أنّه أشرف وأكمل البشر على وجه الأرض، لا يجوز له الاقتداء بمن هو دونه كمالاً وهداية من الماضين، لأنّه صلى الله عليه وآله أوّل المسلمين للّه من الناحية الرتبية.

وبعبارة أوضح، إنّه صلى الله عليه وآله على الظاهر لا يمكنه أن يحكم بين خصمين بدون سماع قول الثاني* كما حكم النبي داود عليه السلام، أو أن يطلب من المولى تعالى أن يريه عملية إحياء الموتى لاطمئنان قلبه، كما طلب ذلك إبراهيم عليه السلام من ربّه، وحتى الإنسان المسلم لا يمكنه ارتكاب معصية آدم عليه السلام على سبيل الاقتداء، أو يحكم كما حكم داود عليه السلام.

فلو كانت هذه الأعمال على هداية من اللّه لوجب على المسلمين ممارستها إقتداء بهم عليهم السلام! فهذه الآية لا تدلّ على العصمة.

٢ ـ ﴿**وإنّهم عندنا لمن المصطفين الأخيار**﴾[1]، ﴿**اللّه يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس**﴾[2] فالاصطفاء يشير إلى العصمة.

ـ لم يفهم، ولا نجزم بأنّ الاصطفاء هنا بمعنى العصمة، لعلّه اصطفاء للنبوّة، أو لتبيلغ الرسالة، أو للعبادة، أو...الخ، كما خاطب اللّه تعالى موسى عليه السلام بقوله: ﴿**يا موسى إنّي اصطفيتك على الناس برسالاتي**

* . كما روي عنه صلى الله عليه وآله: «إنّما أقضي بينكم بالبيّنات والأيمان». للمزيد راجع الكافي ٧: ١٤/٤١؛ والتهذيب ٦: ٣/٢٢٩؛ والوسائل ٢٧: ٣٣٦٦٣/٢٣٢؛ ومستدرك وسائل الشيعة ١٧: ٢١٥٨٣/٣٦١، و٢١٥٩٤/٣٦٦.

١. ص: ٤٧.

٢. الحجّ: ٧٥.

وبكلامي﴾[١] فهذه الآية أيضاً لا تفيد العصمة.

٣ ـ ﴿**وما أرسلنا من رسول إلاّ ليطاع بإذن الله**﴾[٢]، ﴿**رسلاً مبشّرين ومنذرين لئلاّ يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل**﴾[٣] فالطاعة تدلّ على العصمة، فلا يجوز طاعة النبيّ في معصية، لأنّه حجّة الله.

ـ طاعة فيما أتى به من تشريع وأحكام من الله سبحانه ببراهين و معجزات، وليكون الناس مسلمين، كما هو واضح من سياق الآية، وكذلك بعد أن تتم عملية تبليغ الرسالة، وبيان الحلال من الحرام من قِبَل المرسلين، لم يكن هناك حجّة للناس على الله مطلقاً.

اذن الآيتان تشيران إلى إلزام الناس بما يأتي به الرسل والأنبياء وحسب. ولا يمكن لمعارض إلحام الآيتين بدليل عقلي، فنحن ما زلنا في تحقيق الدليل القرآني على العصمة ولم نتطرق إلى الدليل العقلي.

٤ ـ ﴿**يا أيّها الذين آمنوا إنْ جاءكم فاسق بنبأٍ فتبيّنوا**﴾[٤]، فلو صدر الذنب عنهم لما كانوا مقبولي الشهادة.

ـ ليس كلّ من صدر عنه ذنب على سبيل سهو أو خطأ، أو وسوسة شيطانية ثمّ تاب، يصبح فاسقاً، وإلاّ لسمّينا المجتمع الإسلامي مجتمع الفسّاق، ولم تُقبل شهاداتهم، ولطُعن بجميع رواة الحديث ونقلة التاريخ. فهذه الآية كذلك لا تفيد العصمة.

---

١. الأعراف: ١٤٤.
٢. النساء: ٦٤.
٣. النساء: ١٦٥.
٤. الحجرات: ٦.

٥ ـ ﴿**إنّ الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة**﴾[١]، فلو صدر الذنب عنهم لوجب زجرهم، ولكن زجر الأنبياء غير جائز فكان صدور الذنب عنهم ممتنعاً.

ـ ليست كلّ الذنوب فيها زجر وقصاص وجلد ورجم و قطع أيدي وأرجل، بل هناك من الذنوب ما تكفّر باستغفار وصيام وعتق رقاب وإطعام مساكين، فهذه أعمال محبّبة للعاصي ولا يجد فيها أيّ زجر وأذىً، وكذلك حدّثنا التاريخ عن أشخاص طلبوا من الرسول صلى الله عليه وآله ومن أميرالمؤمنين عليه السلام أن يقتصّ منهم وقد سكنت نفوسهم لهذا القصاص. هنا أيضاً لم نحصل على مفهوم العصمة من هذه الآية.

٦ ـ ﴿**يا أيّها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون**﴾[٢]، فلو أنّهم كانوا يأمرون بالطاعات وترك المعاصي ثمّ أتوا بمعصية لدخلوا تحت هذه الآية و تحت آية: ﴿**أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم**﴾[٣]، وهذا في غاية القبح.

ـ هذا الاستدلال صحيح فيما يفعله الإنسان متعمّداً، وهو في غاية القبح، أمّا إذا فعله الانسان غافلاً، جاهلاً فلا تنطبق عليه الآيتان، وإلاّ لبطل عمل التبيلغ والإرشاد وهداية العباد للخير والصلاح، ولتقاعس كلّ مبلّغ ومرشد ديني عن هذا العمل كي لا يلحقه المقت واللعن من المولى تعالى. فالآيتان كذلك لا تفيدان العصمة.

---

١. الأحزاب: ٥٧.

٢. الصف: ٣ ـ ٤.

٣. البقرة: ٤٤.

٧ـ ﴿**فبعزّتك لأُغوينّهم أجمعين * إلاّ عبادك منهم المخلصين**﴾[١]، أعترف الشيطان أنّه لا يغوي المخلصين، وبما أنّ الأنبياء من المخلصين فوجب القطع بعدم صدور المعصية عنهم.

ـنحن نؤيّد هذا القول بأنّ الشيطان لا يغوي المخلصين*، وأنّ الأنبياء من طائفة المخلصين، ولكنّ القرآن الكريم لم يستثنِ إمكان المسّ والنزغ والوسوسة من الشيطان لهم عليهم السلام، فقد حفل القرآن بعدة آيات تشير إلى ذلك، ومنها ما جاء في قوله تعالى مخاطباً الرسول صلى الله عليه وآله: ﴿**وإمّا ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنّه هو السميع العليم**﴾[٢]، وقوله تعالى عن لسان أيّوب النبيّ عليه السلام: ﴿**أنّي مسّني الشيطان بنصب وعذاب**﴾[٣]، وعن لسان يوشع النبيّ في رحلته مع موسى عليهما السلام: ﴿**فإنّي نسيت الحوت وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره**﴾[٤]، وكذلك فهي تتعارض في الظاهر مع

---

١. ص: ٨٢ـ٨٣.

*. المخلَص: مَن لا يستطيع الشيطان أن يحبّب له الكفر، ويبغّض له الإيمان. والغاوي: مَن لم يقبل الله سبحانه منه أيّ عمل، وقد فسّرت هذه الآية خطأً، واستدلّ بها على العصمة. وستأتيك التفاصيل حولها في مسألة آدم عليه السلام بإذنه تعالى.

وجدير بالذكر أنّه لم يصرّح أحد من المفسّرين، وخصوصاً من استدلّ بهذه الآية على العصمة عندما يقف عند قوله تعالى: ﴿الاّ عباد الله المخلَصين﴾ الذي تكرر ذكره في الآية ٤٠، و٧٤، و١٢٨، و١٦٠، و١٦٩ من سورة الصافّات، بأنّه يقصد منه المعصومين، بل صرّح بعضهم في واحدة طالما وجد فسحة للنطق بها، وتوقّف عند أخرى و عمّمها على المؤمنين. فهذه إشارة واضحة بأنّ تعبير «المخلَصين» الوارد في القرآن الكريم لا يدلّ على العصمة.

٢. فصّلت: ٣٦.

٣. ص: ٤١.

٤. الكهف: ٦٣.

قوله تعالى ﴿**وعصى آدم ربّه فغوى**﴾[١]، فلا يمكن إقناع الخصم بالآية الأولى على أنّها محكمة وهذه مؤوّلة!

فالآية التي استشهدوا بها على العصمة لا تدلّ عليها.

٨ ـ ﴿**إنّي جاعلك للناس إماماً**﴾[٢]، فالإمام هو الذي يُقتدى به، فلو صدر الذنب عن الإمام لكان اقتداء الخلق به باطلاً، فهو إذن معصوم.

ـ أوّلاً: الاقتداء بالذنب والخطأ لم يوجبه اللّه تعالى، وكنموذج ما نلاحظه من النبيّ موسى عليه السلام قد جرّ رأس ولحية أخيه إليه بعدما أخبره اللّه سبحانه في الميقات أنّ قومه قد عبدوا العجل، وأيضاً أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام كان قد جادل سفراء ربّ العالمين للحيلولة دون نزول العذاب القطعي على قوم لوط.

وقد ذكرنا في الدليل القرآني الأوّل (فبهداهم اقتده)، أنّ هناك تصرّفات عديدة للأنبياء عليهم السلام وهي محظورة على الناس ولا يمكن الاقتداء بها. ثمّ إنّ لهذه الآية تحقيق أوكلناه في بحثنا آية التطهير والفرق بين مقام النبوّة والإمامة.

ثانياً: إن سلّمنا بوجوب الاقتداء المطلق، ثمّ صدر ذنب من أحد عباد اللّه وأراد التوبة من معصيته لأنّه يرجو اللّه واليوم الآخر، فمن يجعله إماماً وقدوة في هذا العمل واللّه يخاطبنا: ﴿**لقد كان لكم في رسول اللّه أُسوة حسنة لمن كان يرجو اللّه واليوم الآخر**﴾[٣]؟!

---

١. طه: ١٢١.

٢. البقرة: ١٢٤.

٣. الأحزاب: ٢١.

من الواضح جدّاً أنّ التوبة والاستغفار والإنابة إلى اللّه تعالى هو عمل محبّب عنده عزّ وجلّ، ولهذا فإنّ الطوائف الشيعية وخصوصاً من قالت بالعصمة المطلقة، لا يمكنها القول بأنّ المعصوم لا يتوب ولا يستغفر ولا ينيب إلى اللّه لأنّه لا ذنب له، فيكون التائبون من الذنوب إليه تعالى قد سبقوهم في هذا العمل المحبّب للّه تعالى، ولذلك اخترعوا لهم تبريرات، منها:

١ـ أنّ للنبيّ والإمام حالات خاصّة من الاستغراق، حيث يغرقون في بحر العظمة الإلهية، ويفقدون إحساسهم بأنفسهم، وهذه الحالات غير مستمرّة وغير دائمة، حيث إنّهم لهم كثير من الأعمال الأخرى، كالاهتمام بأمور المسلمين، وتنظيم معيشتهم العائلية من واجبات ومستحبّات ومباحات، ولا شكّ في أنّ حالهم عند معاملاتهم أو عند حديثهم مع الآخرين لا يكون كحالهم في الصلاة والمناجاة، ولذلك يرى النبيّ والإمام أنّ العبودية هي الاستمرار على تلك الحالة من الاستغراق، وعدم الاستمرار عليها يعدّونه من الذنوب بالنسبة لهم، ويطلبون العفو من ذلك.

٢ ـ لأنّ عباداتهم مع كمالها غير لائقة بجنابه تعالى.

٣ ـ من أجل تعليم وتربية الآخرين.

٤ ـ يستغفرون لرفع درجاتهم.

٥ ـ التواضع والاعتراف بالعبودية.

٦ ـ الاستغفار من ذنوب رعيّتهم.

فالتبرير في الوجه الأوّل غير صحيح؛ لأنّ الأنبياء خصوصاً الرسول الكريم ﷺ لم يُكلَّف بتبليغ الشريعة والصلاة والصيام فحسب، بل كان

مكلّفاً بتنظيم حياة المجتمع الإسلامي، والتصدّي لرئاسة الحكومة الإسلامية في المدينة المنوّرة. وسيرته الشريفة خير دليل على ذلك، فهي من أفضل العبادات، فكيف يعتبر المعصوم ذلك ذنباً؟! بل هم يعتبرون ذلك طاعة من طاعات اللّه وليس محلاً للاستغفار، كما أصبحت ضربة عليّ عليه السلام يوم الخندق تعادل عبادة الثقلين. وكمثال ما قال محمّد بن المنكدر عندما خرج إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارّة فلقيه أبو جعفر محمّد بن علي الباقر عليه السلام وهو متّكئ على موليين له، فقال في نفسه: سبحان اللّه شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا، أمَا لأعظنّه، فدنوت منه فسلّمت عليه فردّ عليَّ السلام بنهر وهو يتصابّ عرقاً، فقلت: أصلحك اللّه، شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا، أرأيت لو جاء أجلك وأنت على هذه الحال ما كنت تصنع؟ فقال له الإمام الباقر عليه السلام: «**لو جاءني وأنا في طاعة اللّه عزّ وجلّ أكفّ بها نفسي وعيالي عنك وعن أمثالك**» فقلت: صدقت يرحمك اللّه، أردت أن أعظك فوعظتني.(١)

وممّا يؤسف له أنّ أصحاب هذا الرأي يتصوّرون أنّ مخّ العبادة هو صفّ الأقدام والقيام في المحراب وإتيان الركعات والسجدات ليلاً ونهاراً، متبتّلين إليه تعالى، مع أنّهم قد استقبحوا عبادة المتصوّفة!

والتبرير الثاني فيما يتعلّق بعبادتهم، فكذلك غير صحيح؛ لأنّ عبادة

---

١. فروع الكافي للكليني، ٥: ٦٨ ـ ٦٩، باب ما يجب من الاقتداء بالأئمّة عليهم السلام، والتهذيب ٩٣/٦، باب المكاسب، ح ١٥.

المعصوم ـ كما يقال ـ تامّة ومقبولة، إذن فليس هناك داعٍ للكذب والدجل مع اللّه تعالى.

وأمّا بقيّة التبريرات أي التبرير الثالث، والرابع، والخامس، والسادس، فإنّهم يتصوّرون فيها ساحة ربّ العالمين كساحة البشر (تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً) يقبل منهم المجاملات والتملّق كذباً. فهذه التأويلات والزخارف من الأقوال لا تقنع الناقد والباحث، حيث إنّ جميع أفعال المكلَّف ـ لا الحكم ـ في الشرع الإسلامي تقع بين الرخص والمنع، أي بين القبول والرفض، ولهذا لا ينبغي للمعصوم، بما هو معصوم، أن يتوجّه بالاستغفار والتوبة إلى اللّه تعالى ويرجو عفوه والصفح عنه، على أنّ هناك رابطة روحانية خفيّة وأسراراً فوق العادة لم يصل إليها العقل البشري كي تبرر أو تأوّل أدعيتهم ومناجاتهم.

بلى، هناك احتمال واحد وهو ضعيف أيضاً يدلّ على عدم العصمة، وهو أن نقول: إنّ لهم تكاليف علاوة على تكاليف الآخرين فهم لا يؤدّونها بالصورة التامّة.

والمتتبّع لسيرة أهل البيت الأطهار﴿ع﴾ لا يجد فيها تشابه أبداً بين تصرّفاتهم وحالاتهم في أدعيتهم، وبين ما يدّعونه من هذه التبريرات، فمنها ما رواه طاووس، شارحاً حال الإمام زين العابدين﴿ع﴾ وهو في حجر إسماعيل بعد طوافه وصلاته ليلاً، داعياً ربّه بما يختلج بين جوانحه، وبعد أن اطمأنّ بعدم وجود أحد غير نفسه فاجأه طاووس قائلاً:

ما هذا الجزع والفزع ونحن يلزمنا أن نفعل مثل هذا، ونحن عاصون،

جانون، أبوك الحسين بن علي وأُمّك فاطمة الزهراء، وجدّك رسول الله صلى الله عليه وآله! فأجابه عليه السلام: «**هيهات هيهات يا طاوُس، دع عنّي حديث أبي وأُمّي وجدّي، خلق الله الجنّة لمن أطاعه وأحسن ولو كان عبداً حبشيّاً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشيّاً**».(١)

وها هو عليّ عليه السلام، سيّد الحكماء، وباب مدينة علم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يوضّح معنى الاستغفار، ومتى ينطق الإنسان به، جواباً لمن قال بحضرته «أستغفر الله»، ولم تأت إحدى المعاني الستّة في معناها الذي أشار إليها عليه السلام تتشابه مع إحدى التبريرات المذكورة، فقال عليّ عليه السلام للرجل:

«**ويلك! أتدري ما الاستغفار؟! الاستغفار اسم واقع على ستّة أقسام:**

الأوّل: الندم على ما مضى، الثاني: العزم على ترك العود إليه، الثالث: أن تعمد إلى كلّ فريضة ضيّعتها فتؤدّيها، الرابع: أن تخرج إلى الناس ممّا بينك وبينهم حتى تلقى الله أملس وليس عليك تبعة، الخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذهبه بالأحزان حتى ينبت لحم غيره، السادس: أن تذيق الجسم مرارة الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فحينئذ تقول: أستغفر الله».(٢)

وأجاب العلاّمة حسنزاده الآملي، من أراد منه بيان كيفيّة توجيه وتبرير أدعية الأئمّة عليهم السلام قائلاً:

---

١. المناقب، ابن شهرآشوب ٣: ٢٩١؛ وبحار الأنوار ٤٦: ٢٧٥/٨٢، و٨٧: ٨/٢٠٠.

٢. مستدرك الوسائل ١٢: ١٣٧٠٨/١٣٠؛ بحار الأنوار ٩٣: ٣٣/٢٨٥، نقلاً عن كتاب فلاح السائل؛ وورد هذا الحديث بألفاظ متقاربة في نهج البلاغة، قصار الكلمات، ٤١٧؛ ووسائل الشيعة ١٦: ٢١٠٢٨/٧٧، ط: مؤسسة آل البيت لأحياء التراث؛ والبحار ٦: ٥٦/٣٦.

«ليس لدينا دليل لحمل وتبرير هذه الأدعية على غير ما هي عليه، ولِمَ نفسّرها مجازاً»![١]

فالتبريرات الستّة المذكورة، كلّها تعتمد على الظنّ وليس على دليل علمي واضح وصريح، و ﴿**إنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً**﴾.[٢]

ب ـ مناقشة أدلّتهم العقلية:

استند علماء الطائفة الشيعية إلى عدّة أدلّة عقلية على عصمة الأنبياء، وهي:

الدليل الأوّل: حصول الاطمئنان، وسكون النفس.[٣]

ومعناه أنّ النفس الإنسانية لا تكون ساكنة ومطمئنّة إلى قبول أو سماع موعظة، كسكونها إلى من لا يجوز عليه شيء من الذنوب.

هذا الكلام صحيح، فإنّ النفس إلى من لا يجوز عليه ذنب أكثر اطمئناناً، ولكن هذا الدليل باطل لوجهين:

١ ـ لو فرضنا عدم وجود معصوم مطلقاً، فهل يبعث اللّه نبيّاً أم لا؟ نعم؛ لأنّ اللّه تعالى لا يترك العباد بدون بشير ونذير يبلّغ رسالاته. وقيل: هي واجبة عليه تعالى لطفاً بالعباد.

---

١. در محضر استاد حسن زاده آملي، محسن غرويان: ٥٦ ـ ٥٧، وسيأتيك النصّ بالكامل في الصفحات اللاحقة بإذنه تعالى.

٢. يونس: ٣٦.

٣. راجع تنزيه الأنبياء، الشريف المرتضى: ٢٩، ط: مؤسسة الأعلمي، بيروت؛ الاقتصاد الهادي إلى سبيل الرشاد، الشيخ الطوسي: ١٦١، ط: قم المقدّسة.

٢ ـ أذواق وأمزجة نفوس البشر ليست كلّها بشكل واحد، فكلّ نفس تسكن إلى شيء ما لا تسكن غيرها إليه، فمنهم من يشترط في سكون نفسه العصمة، ومنهم من يشترط التنقّل في الكواكب، ومنهم من يشترط إحياء الموتى... والخ. وهذا يوجب بقاء النبيّ أو الرسول حيّاً إلى يوم القيامة ليعطي كلّ نفس سكونها، وقد حفل القرآن الكريم بآيات لهذه الادّعاءات، منها:

﴿**لولا أُنزل عليه كنز أو جاء معه مَلك**﴾.[1]

﴿**يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾.[2]

﴿**وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجُر لنا من الأرض ينبوعاً* أو تكون لك جَنّة من نخيل وعنب فتفجّر الأنهار خلالها تفجيراً* أو تُسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً* أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه**﴾.[3]

ثمّ ذكر القرآن طائفة من الناس لم يشترطوا في النبيّ والرسول العصمة فحسب، بل شرطوا منه أن يتنزّه حتى عن المشي في الأسواق وأكله الطعام، لأنّها تنفّرهم، وتعدم سكون نفوسهم إليه، وقالوا:

﴿**ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق**﴾.[4]

فهذا الدليل غير وافٍ لإثبات العصمة لاختلاف شروط سكون النفس

---

١. هود: ١٢.

٢. البقرة: ٥٥.

٣. الإسراء ٩٠ ـ ٩٣.

٤. الفرقان: ٧.

عند البشر.

الدليل الثاني: التسلسل الذي يقتضي البطلان.[١]

بمعنى إن كان النبيّ غير معصوم فيحتاج إلى معصوم آخر ليهديه فيتسلسل، وهو باطل.

نحن عندما نشترط العصمة لمن يتلقّى الوحي ويبلّغ التشريع، فيجب أيضاً أن نشترطها في رواة الحديث؛ لأنّهم حلقة الوصل بيننا وبين المعصوم من إيصال أحكام الشريعة إلينا، أي أنّ الرواة كذلك بدورهم يتلقّون الوحي ويبلّغون التشريع، فطالما هم غير معصومين فذلك يلزم تحريف كتاب اللّه والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، ولا نطمئن بشيء منها إطلاقاً! فلا يمكن القول باكتفاء حجّية الراوي أو الرواة الثقاة، ولا يكتفى بها في الأنبياء.

فإن قيل بأنّ المقصود من المعصوم هو من يتلقى التشريع الإلهي، أو إلهامه بدون واسطة بشرية، ولا يتمتّع الراوي بهذه الصفة، نجيب:

حدّثنا القرآن عن إرشاد وهداية الأنبياء بعضهم بعضاً كهداية الخضر النبيّ موسى عليه السلام في الرحلة، وتسديد المؤمنون الأنبياء، كما في قوله تعالى: ﴿**وجاء رجل... قال يا موسى إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنّي لك من الناصحين**﴾.[٢] وأئمّة أهل البيت عليهم السلام بعضهم بعضاً، منها ما رواه ابن

---

١. راجع تنزيه الأنبياء، الشريف المرتضى: ٣٣، ط: مؤسسة الأعلمي، بيروت؛ عدم سهو النبي صلى الله عليه وآله (رسالة)، الشيخ المفيد.

٢. القصص: ٢٠.

أبي نصر البزنطي وهو يتحدّث عن كتاب للإمام الرضا لإبنه محمّد الجواد عليه السلام، ينبّهه بتأثّره ببخل الموالي، جاء فيه:

«يا أبا جعفر بلغني أنّ الموالي إذا ركبت أخرجوك من الباب الصغير، فإنّما ذلك من بخل منهم لئلاّ ينال منك أحد خيراً، وأسألك بحقّي عليك لا يكن مدخلك ومخرجك إلاّ من الباب الكبير».[1]

الدليل الثالث: التسديد بروح القدس.[2]

قال العلاّمة الحيدري ما معناه: إنّ هذا العلم الخاصّ يمنح صاحبه ملكة العصمة المطلقة، وقد جعله الله نوراً يهدي به من يشاء من عباده. ثمّ إنّه (أيّده اللّه) بعد أن أشار إلى ستّة عشر حديثاً في هذا المجال، قال:

«هذه النصوص وعشرات مثلها كلّها تشير إلى الحقائق التالية:

١ـ أنّ الأنبياء والأوصياء ـ عموماً ـ مؤيّدون مسدّدون بروح القدس.

٢ـ روح القدس خلق من خلق اللّه، أعظم من جبرئيل وميكائيل.

٣ـ أنّه سبب علمهم بكلّ شيء، ومنه ملكوت السماوات والأرض، وهذه الروح من الملكوت.

٤ـ أنّه كان مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله، وهو مع الأئمّة عليهم السلام من بعده».[3]

نحن عندما نلاحظ ما أورده العلاّمة السيّد الحيدري حول روح

---

١. الكافي ٤: ٤٣/٥؛ عيون أخبار الرضا ٢: ٨/٢٠.

٢. أشار إلى هذا الدليل العلاّمة الشيخ جعفر السبحاني في كتابه عصمة الأنبياء: ٢٧ ـ ٢٨؛ والعلاّمة السيّد كمال الحيدري في كتابه العصمة: ١٣٧ ـ ١٥٥.

٣. العصمة، السيّد كمال الحيدري: ١٤٦.

القدس، يتبادر إلى أذهاننا أنّ هذه الروح تكون ملازمة للمعصوم طول حياته، ملازمة الرأس للجسد، أو كجريان الدم في عروق وقلب بني آدم ما دام حيّاً. ولكن القارئ اللبيب، والعالم البصير المتتبّع للسيرة النبوية الشريفة، عندما يقف على قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لحسّان بن ثابت الذي انحرف عن خطّ أهل بيت النبوّة عليهم السلام:

«لا تزال يا حسّان مؤيّداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك».(١)

يفهم منه أنّ روح القدس تلازم وتلتقي مع أيّ فرد، وأيّ شخص فيما لو عمل بالحقّ وسار في مسير الهداية والرشاد، وتفارقه فيما لو انحرف هذا الشخص عن الصراط المستقيم؛ وإلاّ لكان حسّان من المعصومين والمقرّبين عند اللّه تعالى، ولكانت تصرّفاته حجّة على الخلق، ووجب عليهم اتّباعه على أنّه قد أُيّد بروح القدس!

فهذا الدليل أيضاً لا يفيد لإثبات العصمة، ولا يسعفها بشيء مطلقاً.

الدليل الرابع: علم اليقين.(٢)

قيل ما معناه: أن العلم القطعي اليقيني بعواقب المعاصي والآثام يعصم الانسان من ارتكابها.

---

١. الإرشاد، الشيخ المفيد ١: ١٧٧؛ مستدرك وسائل الشيعة ١٠: ١٢٢٤٩/٣٩٧؛ بحار الأنوار ٢١: ١٠/٣٨٦، و٣٧: ٤٢/١٦٥. وهناك بعض الروايات بهذا المضمون وردت لبعض الأصحاب.

٢. تفسير الميزان، العلاّمة الطباطبائي رحمه الله ٢: ١٤١ ـ ١٤٢، ط: مؤسسة الأعلمي، بيروت؛ العصمة، السيّد كمال الحيدري: ١١٥ ـ ١٢٠؛ وأشار إلى هذا الدليل أيضاً العلاّمة الشيخ جعفر السبحاني في كتابه أهل البيت سماتهم وحقوقهم: ٩٢، وراجع كتابه عصمة الأنبياء: ٢٢ ـ ٢٣.

«فالعلم اليقيني بكون (السمّ) قاتلاً، هو الذي أوجب امتناع الإنسان عن تناوله بمحض إرادته وتمام اختياره، وكان تناوله مستحيلاً وقوعاً بالنسبة إلى هذا الإنسان العالم به».[١]

وبعد أن شرح العلاّمة السيّد الحيدري (أيّده اللّه) هذا العلم، واختلافه بين الشخص والآخر، قال:

«وممّا تقدّم يتّضح لنا معنى أنّ العصمة سببها (علم مانع من الضلال)، فهو العلم القطعي بالعواقب الأُخروية للمعاصي ورذائل الأفعال، علماً لا يداخله ريب ولا يعتريه شكّ، علماً تسقط دونه الحجب فيرى صاحبه رأي العين، ويلمس لمس الحسّ تبعات المعاصي ولوازمها وآثارها في النشأة الأُخرى».[٢]

ثمّ أضاف السيّد الحيدري قائلاً:

«وبهذا اتّضح لنا أنّ السبب أو المنشأ الرئيس للعصمة هو (العلم)، فكما أنّ الفرد منّا قد عصمه علمه عن تناول السمّ، وعن المشي عارياً بين الناس، وعن إلقاء نفسه من شاهق، وغير ذلك، فكذلك النبيّ والإمام قد عصمهم علمهم عن كلّ باطل وضلال في القول أو الفعل أو السلوك، وكما أنّ هذه الأمور لا سبيل لها في تفكير أيّ واحد منّا، كذلك المعاصي بالنسبة إلى المعصومين...».[٣]

ونجيب أنّ القرآن الكريم وكذلك العقل البشري قد رفضا هذا الدليل

١. العصمة، العلاّمة السيّد كمال الحيدري: ١١٦.
٢. المصدر السابق: ١١٩.
٣. المصدر السابق: ١٢٠.

على عصمة الأنبياء.

فأمّا القرآن فقد رفضه بذكره الشيطان الرجيم وما حصل عليه من العلم القطعي واليقين التامّ إلى حدّ المكاشفة التي لا يشوبها شكّ بالعواقب الأخروية للمعاصي، ولا يخفى عليه شيء من النشأتين، ولكنّ تكبّره طغى على علمه ويقينه فأصبح رجيماً، ومن أصحاب الجحيم. والأعجب من ذلك كلّه أنّه كان ممّن يخاطب ربّ العالمين، ولم يسعفه علمه ويقينه أبداً ليحول بينه وبين معصية اللّه سبحانه!

واللّه تبارك وتعالى جسّد لنا مشهد اللعين يوم القيامة، وما حصل عليه من العلم الراسخ بالعواقب الأخروية للمعاصي، عندما قال لمن حشر معه إلى جنّهم:

﴿إنّ اللّه وعدكم وعد الحقّ ووعدتّكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ إنّي كفرت بما أشركتمونِ من قبل﴾.[1]

وأخرى يقول للكافرين:

﴿إنّي بريء منكم إنّي أرى ما لا ترون إنّي أخاف اللّه﴾.[2]

وكذلك رفضه القرآن الكريم بذكر بلعم بن باعورا ـ كما قيل ـ الذي آتاه اللّه آياته، وعلّمه العلوم الإلهيّة ووضعه على المحجّة البيضاء، وأعطاه من العلوم إلى حدٍّ حيث قال فيه تعالى: **﴿لو شئنا لرفعناه﴾**[3] أي

١. إبراهيم عليه السلام: ٢٢.
٢. الأنفال: ٤٨.
٣. الأعراف: ١٧٦.

حال دون تسامي هذا الشخص إلى درجات العلى، أو كلقمان الحكيم، الخلود إلى الأرض، واللهث وراء الشهوات، ولم ينفعه هذا العلم واليقين شيئاً قط. وأيضاً رفضه القرآن كريم بذكر قصّة النبيّ آدمعليه السلام مرّات في آياته الشريفة، حتى قال أمير المؤمنينعليه السلام في ذكره:

«فباع اليقين بشكّه، والعزيمة بوهنه».[١]

وأمّا العقل البشري فقد رفضه أيضاً عندما يجد أُناساً مع تمتّعهم بالعلم واليقين الذين لا يعتريهما أدنى شكّ وريب بعواقب الفعل وقبحه، لا يعتصمون منه، ولا يتورّعون عن إتيانه، ومن مصاديقه الكثير من علماء الطبّ الذين أيقنوا بضرر التدخين، ورذيلة شرب الخمر، فهم لا يمسكون أنفسهم عن التدخين، ولا يعصمونها عن تعاطي الخمر و... الخ.

وفي الواقع، أنّ قول المتمسّكين بهذا الدليل، هو قياس مع فارق، حيث لم ينتبهوا إلى أنّ الأعمال المحظورة من قِبَل الشارع مقرونة بلذّة ونشوة مادّية، أو نفسية تدفع النفس الأمّارة بالسوء الإنسان إليها، بالإضافة إلى تحريك الشيطان، وما الأمثلة التي أتى بها كلّ منهم إلاّ تعبير عن حالة الضرر المحض الذي يلحق بأيّ إنسان فيجتنبه، من دون ملاحظة الجانب الآخر في هذا الموضوع.

ولذا نجد الشيطان الرجيم يزيّن، ويستغلّ الجانب الثاني الذي أشرنا إليه، ليغلب ويطغى على الجانب الأوّل، بشتّى الأساليب وأنواع الحيل في توريط البشر ودفعهم إلى المهالك، ومن هنا نرى أنّ الخبيث قال

---

١. نهج البلاغه، خطبة ١.

لآدم عليه السلام مركّزاً على الجانب الثاني بقوله:

﴿**يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد ومُلك لا يبلى**﴾.(١)

وقال: ﴿**ما نهاكما ربّكما من هذه الشجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين**﴾.(٢)

ثمّ صوّر لنا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ما آل إليه آدم عليه السلام بعد وسوسة الشيطان له، فقال:

«**فباع اليقين بشكّه، والعزيمة بوهنه، واستبدل بالجذل* وجلاً، وبالاغترار ندماً**».(٣)

ورفض الإمام الخميني قدس سره مذهب القائلين بأنّ العلم بعواقب الآثام يدلّ على العصمة، فقال ما معناه:

«لا يمكن للإنسان تهذيب نفسه بطرق العلم، فالعلم لا يهذّبه، وأحياناً يسلك بالإنسان طريق جهنّم، وأحياناً علم التوحيد يسلك بالإنسان الطريق ذاته، وتارة علم الفقه والأخلاق يقودان الإنسان إلى الجحيم، فالشخص لا يستقيم بواسطة العلم، بل هو بحاجة إلى التزكية».(٤)

فنحن نرى أنّ الشيطان بدّل يقينه الراسخ بالتكبّر، وآدم عليه السلام باع يقينه بالشكّ والاغترار، وبلعم بن باعورا استبدله بالهوى، فمن يدّعي أنّ النبيّ

---

١. طه: ١٢٠.
٢. الأعراف: ٢٠.
*. الجذل: الفرح.
٣. نهج البلاغة، خطبة ١.
٤. خطب وبيانات الإمام الخميني قدس سره (صحيفة نور) ١٩: ٩٠ ـ ٩٦.

لا يعاوض يقينه وعلمه الراسخ بشيء آخر فعليه الدليل، ومجرّد الكلام والادّعاء الذي لا يخرج عن حدود ومحاور التنظير لا يغني شيئاً.

فحجّة أنّ العلم الراسخ واليقين التامّ بعواقب المعاصي لا يصلح دليلاً للعصمة، بل يفيد إلقاء الحجّة على صاحبه فقط، ولا يفيد الإلزام بالردع عن العمل بمقتضاه، امّا الارتداع الحقيقي فلا يتحقق إلاّ بالإرادة الحقيقية المعبّر بها في القرآن بالتقوى.

ملاحظة:

بعد أن أتعب العلاّمة السيّد كمال الحيدري نفسه، وأجهد فكره بكون المنشأ الرئيس لعصمة الأنبياء ومنعهم من ارتكاب المعاصي هو العلم الذي زوّدوا به، قال:

«ولم يشأ القرآن الكريم أن يفصح عن نوع هذا العلم، وحقيقته، بل تركه مبهماً لدينا، وأشار إلى بعض آثاره، فكان منها العصمة من كلّ ضلال كما تقدّم».[1]

هذا الكلام في نظرنا غير صحيح، وما ينبغي للسيّد كمال الحيدري أن ينطق بهذا القول نيابة عن الله وعن كتابه المجيد، على أنّه لم يشأ أن يفصح عن نوع هذا العلم وحقيقته، وتركه مبهماً للعالمين!

وكان جديراً بالسيّد أن يقول مثلاً: لم أتوصّل، ولم تتّضح لي حقيقة هذا العلم ...الخ.

١. العصمة للسيّد الحيدري: ١٣٥.

فاللّه تعالى أخبر نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله على أنّ كتابه المجيد هو تبيان لكلّ شيء، وما من صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، منها قوله تعالى:

﴿**ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكلّ شيء**﴾.[١]

وكذلك قوله عزّ وجل:

﴿**ما فرّطنا في الكتاب من شيء**﴾.[٢]

ونحن قد حقّقنا في كتابنا «الإسم الأعظم» على أنّ التقوى أساس كلّ علم ومعرفة، وأساس كلّ نيّة، وفكرة، وهمّ، وعمل، وحركة، وسكون، و...الخ، وما من شيء صدر من الإنسان أو فكرة بيّتها في صدره إلاّ وقاسها اللّه في ميزان التقوى.

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام وهو يعرّف التقوى:

«**... هو ميزان كلّ علم وحكمة، وأساس كلّ طاعة مقبولة، والتقوى ما ينفجر من عين المعرفة باللّه، يحتاج إليه كلّ فنّ من العلم، وهو لا يحتاج إلاّ تصحيح المعرفة بالخمود تحت هيبة اللّه وسلطانه...**».[٣]

الدليل الخامس: الدرجة القصوى من التقوى.

وقيل ما معناه: الدرجة العليا منها تعصم الإنسان من اقتراف القبائح والمعاصي والآثام.[٤]

---

١. النحل: ٨٩.

٢. الأنعام: ٣٨.

٣. مصباح الشريعة: ٤٤ ـ ٤٥، ونقله صاحب بحار الأنوار ٦٧: ٢٩٥/ ٤٠.

٤. راجع عصمة الأنبياء، العلاّمة جعفر السبحاني: ٢١، وكذلك كتابه أهل البيت سماتهم

الكلام هذا مقبول لدينا، والكلّ يعترف بشهادة القرآن الكريم بأنّ الدرجة القصوى من التقوى تعصم الإنسان من كلّ قبيح ومعصية، ونحن نجد أمير المؤمنين، وسيّد الموحّدين، عليّ عليه السلام يقول:

«بالتقوى قرنت العصمة».[١]

وكذلك قوله عليه السلام الذي يشير فيه إلى نتائج وثمرة التقوى، وهي العصمة، فيقول:

«إلجأوا إلى التقوى فإنّها جُنّة منيعة، مَن لجأ إليها حصّنته، ومَن اعتصم بها عصمته».[٢]

ولكنّنا عندما نقف عند قوله تعالى:

﴿إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم﴾.[٣]

وقوله عزّ وجل:

﴿تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض... ورفع بعضهم درجات﴾.[٤]

نفهم منهما أنّ الأنبياء والرسل متفاوتون في درجات التقوى، ففيهم حبيب اللّه، وروح اللّه، وكليم اللّه، وخليل اللّه، وصفوة اللّه، ومنهم مَن وصل إلى درجة النبوّة فقط، والثاني حصل على مرتبة الرسالة، والآخر وصل إلى درجة الإمامة!

وحقوقهم: ٩٢.

١. غرر الحكم، ٥٨٦١، ط: مكتب الإعلام الإسلامي للحوزة العلمية بقم المقدّسة.

٢. المصدر السابق، ٥٨٨٧.

٣. الحجرات: ١٣.

٤. البقرة: ٢٥٣.

والتقوى هي: التوقف عند النواهي والعمل بالأوامر الإلهيّة. فعندما نذعن بوجود تفاضل في درجات التقوى عند الأنبياء يتبادر إلى أذهاننا عدم عصمتهم!

ودفع أصحاب نظرية العصمة هذا الإشكال الوارد، وردّوه بأنّ العصمة ذات درجات ومراتب، كما هو الحال في التقوى، أي أنّ الأنبياء قد عايشوا حالة ما بعد العصمة عن الذنب والمعصية، وتفاوت درجاتهم يتعلّق بالالتزامات الجدّيّة في المستحبّات، والمندوبات، وفعل الأفضل، وعدم ترك الأوْلى، والتوقّف عند النواهي الإرشادية.*

ونجيب بأنّه لا يمكن لنا أن نحكم مسبقاً على ضوء فكرة مبيّتة في أذهاننا وعقيدة راسخة في فكرنا بأنّ الأنبياء يعايشون حالة ما بعد العصمة عن الذنب والمعصية. فيجب علينا أن نثبت العصمة أوّلاً، ثمّ نطرح السؤال: هل الأنبياء مختلفون في درجاتها أم لا؟

فعندما أذعنت الطوائف الإسلامية بعصمة النبيّ فيما يتعلّق بتلقّي الوحي وتبليغه، لا يقولون باختلاف درجاتها بين نبيّ وآخر؛ بل هي عصمة مطلقة فيما يتعلّق بتلقّي وحي الرسالة وإبلاغها.

لو فرضنا أنّ الدين الإسلامي قد وصل إلينا عن نبيّ غير الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله فهل يخلّ هذا النبيّ في أداء مهمّته؟ وإذا اختلفت أدوار الأنبياء فيما بينهم في أداء عملية التشريع، فهل يقصّرون في أدائها؟

*. سنبيّن للقارئ الكريم ضعف ووهن هذا التبرير في الصفحات التالية عندما نتناول عقيدة مَن يقول ويذعن بصدور التروك الإرشادية والندبية من المعصوم.

فإن جوّزنا عليهم التقصير أو الخلل بأيّ صورة كانت، يتبعه نسف أصل الشرائع جملة وتفصيلاً!

ومن المؤسف، أنّ الكثير من المسلمين مازالوا على عقيدة خاطئة بتصوّرهم العصمة ذات مراتب ودرجات، وتفضيل المولى تعالى لهم بجعله كلَّ واحد منهم في درجة تبعاً لدرجة عصمته. فهذا الكلام غير وجيه، ولم يكن هناك درجات فيها فيما إذا أثبتنا العصمة، أي أننا إمّا نوجبها، وإمّا نعدمها.

فمثلاً عندما يتفوّق تلامذة بانتقالهم من مرحلة دراسية إلى مرحلة أخرى وهم مختلفون في معدّل الدرجات، فنحن لا نُشكل على تفوّقهم ونجاحهم، ولكن بما أنّهم معصومون، كيف يختلف معدّل درجاتهم! فبحسب التعريف السائد لعصمة الأنبياء (العصمة عن الذنب) يجب أن يكونوا جميعاً بمعدل واحد وهو أقصاه، فلا ينبغي لأحدهم تجاوز أوامر اللّه تعالى ونواهيه، بل يجب عليهم أداؤها بالدقّة التامّة كما تقتضيه عصمتهم.

فنحن نلاحظ النبيّ إبراهيم عليه السلام ـ مثلاً ـ قد حصل على درجة الإمامة بعد عناء مرير وامتحانات وابتلاءات دامت سنوات عديدة، حتى شاب الرأس وابيضّت محاسنه الشريفة، فلو كان معصوماً كما صوّر له عليه السلام، لكان امتحان اللّه عزّ وجلّ لأبراهيم عليه السلام هباء وعبثاً، لأنّه معصوم، أي أنّه يعلم بأنّه قادر على أداء امتحان اللّه بكلّ سهولة وبساطة، وكذلك علم اللّه أنّه عليه السلام قادر على أداء الامتحان!

ومن خلال مصدري التشريع نشاهد إنّ جميع الأنبياء ـ باستثناء أبو

الأنبياء وخاتم الرسل عليهم السلام ـ لم يصلوا إلى مرحلة الإمامة، ولم ينالوا هذه المرتبة السامية التي طالما كان يحلم بها النبيّ إبراهيم عليه السلام ﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا صبروا**﴾[1]، فنحن لا يمكننا القول بعدم إعطاء اللّه تعالى لهم فرصاً لنيل هذه المرتبة الشريفة، فهو خلاف عدله وحكمته سبحانه، ولذلك نجزم بأنّهم لم يوفّقوا في أداء الامتحانات الإلهية لنيل هذه المنزلة الشريفة!

ثمّ نحن إن رضينا جدلاً بوجود مراتب في العصمة، فمن خلال الآيات القرآنية، وأقوال السواد الأكبر من العلماء بوقوع وحصول التروك والأخطاء من الأنبياء في بعض الأوامر الإلهية*، نفهم من ذلك أنّهم جميعاً لم يصلوا إلى مرحلة العصمة التي يريدها اللّه تعالى منهم، أي عصمة الكثير منهم غير تامّة، وهذا لا يختلف فيه اثنان.

إلى هنا اتّضح بطلان الأدلّة العقلية بخصوص العصمة المطلقة، فيتبلور هنا الرأي الآخر من آراء العلماء، وهو عصمة مع ترك الأوْلى، أو ترك الأمر الإرشادي، أو الندبي و...الخ.

هذا الرأي يبطل كذلك عندما نبحث عن السبب في ترك المعصوم الأوْلى، أو الأمور الإرشادية، أو الندبية، فالأمر لا يخلو من أحد هذه الوجوه الآتية، وهي تخالف مفهوم العصمة التي شرطوها:

١ ـ السهو.

---

١. السجدة: ٢٤، ونبسط هذه المسألة أكثر في بحث الفرق بين النبي والإمام.

*. سنشير إلى جملة من هذه الآراء في فصل «بحث عامّ في العصمة»

٢ ـ النسيان.

٣ ـ الغفلة.

٤ ـ اطّلاع المعصوم بالموضوع والإقدام عليه (عمداً).

٥ ـ عدم اطّلاع المعصوم بالموضوع والإقدام عليه (عبثاً).

وانّي لأستغرب من أصحاب هذه النظرية كيف يبرّرون تأثير وسوسة الشيطان لآدم عليه السلام وعصيانه وغوايته بترك الأولى أو الندب، وهو عليه السلام قد أُنعم عليه بالجنّة! ثمّ تقلّد وسام النبوّة بعد عصيانه، ويذعنون بصدور المعصية من الناس في حال وقوعهم في وسوسة الشيطان عندما يصلون إلى آية: ﴿**يا بني آدم لا يفتننّكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة**﴾[1]، فهم يجعلون رحمة اللّه على آدم عليه السلام، ونقمته على البشرية!

ثمّ إنّ ترك الأولى أو الإرشاد أو الندب، هو أحد مصاديق الاستخفاف بحكم اللّه تعالى. هذا ما نفهمه من رواية جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«أتاه رجل فقال: وقعت فأرة في خابية فيها سمن أو زيت فما ترى في أكله؟ قال: فقال: أبو جعفر عليه السلام: **لا تأكله**، فقال له الرجل: الفأرة أهون عليَّ من أن أترك طعامي من أجلها، قال: فقال أبو جعفر: **إنّك لم تستخفّ بالفأرة، وإنّما استخففت بدينك**».[2]

فكذلك المعصوم، على ضوء أصحاب عقيدة ترك الأولى، أنّه لم يتمسّك بالكبرى، وهو عدم عصيان ربّه الأعلى؛ لهذا فهو أحد مصاديق

---

١. الأعراف: ٢٧.

٢. وسائل الشيعة، ١: ١٤٩، كتاب الطهارة، الباب ٥ من أبواب الماء المضاف، ح ٢.

الاستخفاف بحكمه تعالى والاستخفاف بالدين، كما حذّر الرسول الكريم صلى الله عليه وآله من هذه الأفعال بقوله: «**لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت**».(١)

وقال صاحب كتاب قوت القلوب:

«ليس العالم الذي يعرف الخير من الشرّ، هذا العاقل يعرفه، ولكن العالم من يعرف خير الشرّين يعني يفعله إذا اضطرّ إليه، وعرف شرّ الخيرين يعني فاجتنبه لما يؤول إليه».(٢)

ونحن وإن سلّمنا جدلاً بحصول التروك الارشادية أو الندبية من المعصوم، فمصداقه مصداق من لا يزال لا يعرف خير نفسه، وصلاح حاله فهو أجدر أن لا يعرف خير وصلاح الآخرين، فكيف يصحّ أن يكون نبيّاً.*

---

١. المستدرك ١١: ١٣١٧٥/٣٢٩، نقلاً عن أمالي الشيخ الطوسي، و١١: ١٣٢٣١/٣٥١ نقلاً عن القطب الراوندي في دعواته بلفظ مقارب.

٢. قوت القلوب في معاملة المحبوب، محمّد بن علي الحارثي (متوفى ٣٨٦هـ) ١: ١٤٦، ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

*. وجّهت الأسئلة التالية إلى عدد من علماء ومراجع مدينة قم المقدّسة للإجابة عليها فلم يجيبوني، والأسئلة مفتوحة هنا للجميع:

أ ـ السبب في إقدام المعصوم (بما هو معصوم) على التروك الإرشادية والندبية؟

ب ـ مصداق التروك الارشادية أو الندبية عدم معرفة صلاح وخير النفس، فكيف يمكن للمعصوم الذي لا يعرف ولا يشخّص صلاح نفسه أن يعرف صلاح وخير الآخرين؟

ج ـ هل هناك نهي ندبي أو إرشادي في القرآن بصيغة «لا» لا يدلّ على الحرمة في حال عدم توقّف العبد عنده، كما ارتكب آدم عليه السلام نهيين، وبإمكانه ارتكابه مرّات إلى ما شاء الله بأنه لا يدلّ على الحرمة؟! وكذلك نوح وداود عليهما السلام لم يتوقّف كلّ منهما عند نهيهما، وموسى عليه السلام لم يتوقّف عند النهي ثلاث مرّات مع الخضر عليه السلام، الأولى كانت نسياناً، والأخريتان كانتا عمداً.

وقد نفى العالم الجليل الاسترآبادي رحمه الله عند ذكر أدلّة العصمة، صدور التروك من المعصوم على أنّها تنافي هذا المفهوم، فقال:

«ومنها: أنّ الغاية من خلق الإنسان حصول الكمال في القوّة العلمية هو العقل المستفاد، وفي العملية الامتناع عن القبيح وفعل الأفضل وتكميل النفس، وذلك لا يحصل إلاّ بالمعصوم».(١)

فيظهر إنّ العمل بالمهم بالنسبة إلى الأهم هو عمل قبيح، وإن كان على وجه الإباحة، فهو أيضاً مصداق لترك الأفضل الذي ما ينبغي ارتكابه.

وجدير بنا أن ننقل هنا تصريح العلاّمة المجلسي رحمه الله عندما رأى النصوص تخالف أصحاب هذه العقيدة فقال:

«ويظهر منه عدم انعقاد الإجماع من الشيعة على نفي مطلق السهو من الأنبياء عليهم السلام».(٢)

فإذا كانت هناك نواهٍ بصيغة «لا» في القرآن الكريم لا تدلّ على الحرمة للذي يرتكبها ولا يتوقّف عليها، وجب على الفقهاء والمجتهدين بيانها للمكلّفين والمقلّدين كما هو دأبهم في بيان الحلال والحرام!

وفي الواقع إنّ دراسة معاني وبيان القرآن من الناحية الأدبية شيء، والتشريع وما يريده اللّه من عبده من خلال آياته شيء آخر.

وبعبارة أوضح: لو كان النهي الإرشادي لا يدلّ على الحرمة، لأصبحت جميع نواهي القرآن إرشادية ولا تدلّ على الحرمة أيضاً، لإطلاق صفة الإرشاد على كتاب اللّه سبحانه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿إنّا سمعنا قرآناً عجباً * يهدي إلى الرشد﴾ (الجنّ: ١ ـ ٢)، وكذلك قوله تعالى: ﴿إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ (الإسراء: ٩).

١. البراهين القاطعة، الاسترآبادي، صورة من نسخة حجرية مرقّمة بالحبر الأخضر: ١٠١، قسم إحياء التراث الإسلامي في مكتب الإعلام الإسلامي للحوزة العلمية بقم المقدّسة.

٢. بحار الأنوار ١٧: ١٢٠.

ثمّ أكّد رحمه الله وهو متحيّر:

«المسألة في غاية الإشكال لدلالة كثير من الأخبار والآيات على صدور السهو عنهم عليهم السلام وإطباق الأصحاب إلاّ من شذّ منهم على عدم الجواز».[١]

أمّا الرأي الثالث الذي صادق على صدور السهو والنسيان والخطأ من المعصوم في الحياة الشخصية، أي في غير الأوامر الإلهية والتبليغ والتشريع، كارتداء المعصوم إزار ابنه أو أخيه، أو يرتديها سهواً بصورة غير متعارفة، فهو غير مقبول عندما نرى المعصوم ساهراً ليله، قد انهمرت دموع عينيه على خدّيه، مستغفراً منيباً إليه تعالى ممّا صدر منه.

وقد سُئل العلاّمة حسن زاده الآملي حول أدعية أئمّتنا عليهم السلام هل هي على وجه الحقيقة أم المجاز؟ فأجاب: «ليس هناك دليل على حمل وتبرير هذه الأدعية على غير ما هي عليه، ولِمَ نفسّرها مجازاً».*

* * *

إلى هنا اتّضح لنا أنّ ما أتت به الطائفة الشيعية من أدلّة على وجوب العصمة في النبيّ والإمام غير محكمة، وغير ناهضة بالمطلوب.

فتظهر هنا الآراء السنّية بأشكالها على عدم العصمة.

٢ ـ مناقشة القائلين بعدم العصمة في غير الوحي وتبليغه:

أ ـ ذنوب كبيرة (قبل أو بعد البعثة).

---

١. المصدر السابق ٢٥: ٣٥١.

*. سيأتيك نص السؤال والجواب في «بحث عام في العصمة» إن شاء الله.

نحن إن أجزنا صدور الكبيرة من النبيّ عليه السلام فهو لا يخلو من أن يكون مصيره إلى جنّة عدن، أو نار السعير.

فإن قلنا مصيره إلى الجحيم، فهو خلاف ما وعد اللّه النبيّين من إعطاء أجرهم وإدخالهم الجنّة التي عرضها السماوات والأرض وتشفيعهم في أُممهم ـ فتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ـ، وإن قلنا مصيره إلى جنّة المأوى، فهي إشارة خضراء لبني الإنسان لارتكاب المآثم وانتهاك الحرمات من قتل وسبي وإهلاك الحرث والنسل، وهو باطل.

ونجيب لمن يستفسر ويقول: بإمكان النبيّ الإتيان بكبيرة فيستغفر منها، فيدخل الجنّة. فنقول: إنّه سواء استغفر أم لم يستغفر فإنّ أجره على اللّه ومن الموعودين بالجنّة، ولهذا تسقط حجّة اللّه على عباده.

ب، وج ـ ذنوب صغيرة (قبل أو بعد البعثة بشرط أن لا تكون منفّرة).

هذه كذلك حالها حال ما ذكرنا في الكبائر، وهو باطل؛ لأنّ الذنوب كلّها شديدة، وبقياسها مع بعضها تكون صغيرة وكبيرة، وكلّ ذنب قبيح، وكلّ قبيح هو منفور عنه وحرام الإتيان به، وما شرطوه هنا من أنّها لا تكون منفّرة، فهو اصطلاح بين عوام الناس، فربّ ذنب صغير ينفّر ويستقبحه شخص، وربّ ذنب كبير لا ينفر منه آخر، كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «**ربّ كبير من ذنبك تستصغره**».[1]

وكذلك قوله عليه السلام:

«**لا تحقّرنّ صغائر الآثام فإنّها الموبقات، ومَن أحاطت به محقّراته**

١. غرر الحكم ١٧٨/ ٣٥٧٣، ط: مكتب الإعلام الإسلامي للحوزة العلمية بقم المقدّسة.

أهلكته».[١]

د ـ ذنوب على سبيل السهو والنسيان والخطأ:

هذه الطائفة تزعم إمكان صدور الخطأ والسهو والنسيان في أقوال وأفعال المعصوم، أي في كلّ ما لم يوح إليه، فله العصمة فيما يتعلّق بتبليغ الوحي وإبلاغ الرسالة، وأمّا ما وراءها، فله حكم الإنسان المجتهد فيما أتى من قول وفعل، فقد يقع منه قصد الشيء الذي يريد به وجه اللّه تعالى فيوافق خلاف مراده سبحانه، ولذلك لا يقرّه عزّ وجلّ، فمن علماء هذه الطائفة قال:

«... والتصديق بالأحكام التي تُعلم يقيناً أنّه عليه السلام حكم بها دون ما فيه اختلاف واشتباه».[٢]

فلو كان النبيّ يخطأ ويسهو لسرى هذا إلى جميع أفعاله وتقاريره، أي سننه، بل إلى جميع الأحكام، فينتفي الغرض من البعثة وهو بيان الأحكام الإلهية.

وبعبارة أخرى، إذا كان النبيّ المسدّد بالوحي وبرعي إلهي قاهر، يخطأ في بيان الأحكام، فلا يمكن لأحد تشخيص خطأ أو صواب أقوال وأفعال النبيّ.

ونحن نجد هذا اليقين الذي أشاروا إليه قد مزّق وشطر المسلمين، وكلّ شخص قد ارتأى بعض أقوال الرسول صلى الله عليه وآله أو تقاريره، أو أفعاله

١. غرر الحكم ١٨٦/٣٥٦٩٦، ط: مكتب الإعلام الإسلامي للحوزة العلمية بقم المقدّسة.
٢. المنهاج في شعب الإيمان ١: ٢٥، شرح المقاصد ٥: ١٧٧، المحصّل: ٥٦٧.

على أنّه حكم، خلافاً للآخرين فهم لا يرون ذلك حكماً، وهذه إحدى الفتن، و:

«إلههم واحد ونبيّهم واحد وكتابهم واحد، أفأمرهم اللّه بالاختلاف فأطاعوه؟! أم نهاهم عنه فعصوه؟! أم أنزل اللّه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه؟! أم كانوا شركاء له، فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى؟! أم أنزل اللّه سبحانه ديناً تامّاً فقصّر الرسول صلى الله عليه وآله عن تبليغه وأدائه، واللّه سبحانه يقول: ﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيء﴾ ؟!».[1]

فهنا نستنتج أيضاً إلى أنّ أدلّة أهل السنّة بعدم عصمة النبيّ في غير تلّقي الوحي وتبليغه باطل كذلك.

فإذن ما هي الحقيقة!

نحن عندما ناقشنا أدلّة علماء الشيعة على العصمة، تبيّن عدم نهوضها، وعندما ناقشنا أدلّة أهل السنّة على عدم عصمتهم، اتّضح تحقّقها، فهل الأنبياء الرسل عليهم السلام معصومون حقّاً أم لا؟!

نتيجة البحث:

قبل أن نتناول بالتفصيل موضوع العصمة في الفصل القادم، أودّ أن أشير بأنّنا قد توصّلنا إلى أنّ الطوائف الاسلامية جميعاً قد فسّروا وأوّلوا آيات القرآن الدالّة بظاهرها على عدم العصمة حسب ما يقتضيه مذهبهم، فمنها من قالت هو الانقطاع إلى اللّه والتواضع له، ومنها من قالت هو ترك

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٨.

الأولى أو الندب، ومنها من أذعنت بصدور كبيرة أو صغيرة، وأخرى اعترفت بحصول الخطأ والسهو منهم و...الخ.



بحث عام في العصمة

القرآن الكريم هو المصدر الأساس والينبوع الرئيسي في التشريع الإسلامي الذي أمرنا اللّه سبحانه في تدبّر آياته وفهم معانيه. فهو عندما يذكر آيات من قبيل:

﴿قل يا أيّها الذين هادوا إن زعمتم أنّكم أولياء للّه من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين﴾.(١)

وكذلك: **﴿وعلى الذين هادوا حرّمنا كلّ ذي ظفر﴾**.(٢)

نفهم من هاتين الآيتين أن الخطاب قد وجّه إلى اليهود، الذين تديّنوا بشريعة موسى عليه السلام.

وكذلك عندما نسمع قوله تعالى وهو يقول:

﴿يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات اللّه﴾.(٣)

---

١. الجمعة: ٦.
٢. الأنعام: ١٤٦.
٣. آل عمران: ٩٨.

وأيضاً: ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تصدّون عن سبيل اللّه﴾.[١]

وكذلك: ﴿من أهل الكتاب أُمّة قائمة يتلون آيات اللّه﴾.[٢]

نفهم منها أنّ دائرة الخطاب أصبحت أوسع من الدائرة السابقة بشمولها اليهود، والنصارى الذين اتّبعوا النبيّ موسى وعيسى عليهما السلام، ولا يمكن استثناء أحد ممّن اتّصف بإحداهما.

وأيضاً عندما نقرأ قوله تعالى:

﴿يا أيّها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾.[٣]

و: ﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾.[٤]

وأيضاً: ﴿يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين للّه شهداء بالقسط﴾.[٥]

نفهم أنّه خطاب قد وجّه للذين أسلموا وتديّنوا بدين خاتم الرسل صلى الله عليه وآله خصوصاً، وبقية الأنبياء عموماً، فلا يمكن استثناء أحد ممّن تزيّن بصفات الإيمان.

وعندما نتصفّح القرآن الكريم ونتلو آيات كقوله عزّ وجل:

﴿يا أيّها الناس اتّقوا ربّكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده﴾.[٦]

و: ﴿إن يشأ يذهبكم أيّها الناس ويأتِ بآخرين﴾.[٧]

---

١. آل عمران: ٩٩.
٢. آل عمران: ١١٣.
٣. البقرة: ١٥٣.
٤. آل عمران: ١٣٠.
٥. المائدة: ٨.
٦. لقمان: ٣٣.
٧. النساء: ١٣٣.

وأيضاً: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربّكم﴾.[١]

وكذلك: ﴿إنّ الله لذو فضل على الناس﴾.[٢]

نفهم من هذه الآيات أنّ الخطاب موجّه إلى البشرية جمعاء، ولا يُستثنى منها أيّ صنف من الناس، إلاّ إذا ما استثنت آية قرآنية أحداً من الناس، كقوله تعالى:

﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله بغير علم﴾.[٣]

وقوله عزّ وجلّ: ﴿فأبى أكثر الناس إلاّ كفوراً﴾.[٤]

فإذن نحن عندما نقرأ قوله تعالى:

﴿لو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابّة﴾.[٥]

وأيضاً: ﴿لو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة﴾.[٦]

نفهم منها أنّه قد صدر ظلم ـ بمعناه الواسع ـ من كلّ الناس ومنهم الأنبياء، لشمول هذه الآية كلّ البشر ممّن وجب عليه التكليف، وقد وردت آيات أُخر في عدّة سور من القرآن تؤيّد ظواهر ألفاظها صدور ظلم من الأنبياء، كقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام:

﴿إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي﴾.[٧]

---

١. النساء: ١٧٤.
٢. البقرة: ٢٤٣.
٣. لقمان: ٦.
٤. الاسراء: ٨٩.
٥. فاطر: ٤٥.
٦. النحل: ٦١.
٧. القصص: ١٦.

وكذلك على لسان يونس عليه السلام: ﴿سبحانك إنّي كنت من الظالمين﴾.(١)

والغريب أنّه عندما يقف السيّد العلاّمة الطباطبائي رحمه الله والبعض الآخر على الآية ﴿لو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابّة﴾ يستثني من الناس، الأنبياء والأئمّة عليهم السلام ويقول:

«أمّا جلّ الناس فإنّهم يهلكون بظلمهم وأمّا الأشذّ الأندر وهم الأنبياء والأئمة المعصومون من الظلم فهم لا يوجدون لهلاك أبائهم وأُمهاتهم من قبل».(٢)

فكأنّه رحمه الله نسي أنّ أوّل من ظلم نفسه بعصيان ربّه الأعلى هو أبو البشرية آدم عليه السلام، فكيف يستثني من هذه الآية الأنبياء والأئمّة عليهم السلام؟ وهو الذي أيّد صدور ظلم من النبيّ آدم عليه السلام بقوله:

«فهو عليه السلام ظالم لنفسه على كلّ تقدير».(٣)

وأيضاً عندما نقرأ الآية الكريمة:

﴿إنّ الذين اتّقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون﴾.(٤)

فهي تدلّ على مسّ الشيطان للأنبياء عليهم السلام لشمول دائرتها لهم بـ«اتّقوا». فلا يمكن استثناء الأنبياء من الذين اتّقوا مطلقاً، وشاهد على ذلك قوله تعالى على لسان النبيّ أيّوب عليه السلام، إذ قال:

---

١. الأنبياء: ٨٧.
٢. الميزان، العلاّمة الطباطبائي، ج ١٢، تفسير الآية ٦١ من سورة النحل.
٣. تفسير الميزان ١: ١٣٤، ط: جامعة المدرّسين، قم.
٤. الأعراف: ٢٠١.

﴿**واذكر عبدنا أيّوب إذ نادى ربّه أنّي مسّني الشيطان بنصب وعذاب**﴾.[١]

وقد أيّدت آيات القرآن المجيد، حدوث الوسوسة في صدور كلّ الناس بما فيهم الأنبياء، وفي النبيّ آدم وأيّوب عليهما السلام قد ظهرت بصورة واضحة لا ريب فيها... الخ.

ربّما يطرح سؤال هنا: كيف يستطيع الشيطان أن يمسّ الأنبياء وقد اعترف بأنّه لا يستطيع إغواءهم بقوله: ﴿**لأُغوينّهم أجمعين* إلاّ عبادك منهم المخلَصين**﴾[٢]، والأنبياء والرسل من المخلصين وقد شهد اللّه تعالى على ذلك؟

نحن لم نقل يغويهم، بل قلنا يمسّهم، ثمّ إنّ معنى الغواية هو الميل والضلال والجهل، وهو خلاف الرشد.* وأمّا المسّ في هذه الآية فمعناه إلقاء الوساوس والخواطر الفاسدة، وقد ذكر العلاّمة الطباطبائي رحمه الله حصول الوسوسة للأنبياء عندما تناول تفسير قوله تعالى عن لسان الشيطان الرجيم: ﴿**فبما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم**﴾[٣]، فقال:

«أيّ لأجلسنّ لأجلهم على صراطك المستقيم وسبيلك السويّ الذي يوصلهم إليك وينتهي بهم إلى سعادتهم لما أنّ الجميع سائرون إليك سالكون لا محالة مستقيم صراطك فالقعود على الصراط المستقيم كناية

---

١. ص: ٤١.

٢. ص: ٨٢ـ٨٣.

*. معنى قوله تعالى: ﴿وعصى آدم ربّه فغوى﴾ سيأتي عندما نتناول مسألة آدم عليه السلام، وكذلك نبيّن من هم المخصلون، ومن هم الغاوون إن شاء اللّه تعالى.

٣. الأعراف: ١٦

عن التزامه والترصّد لعابريه ليخرجهم منه». [١]

فالسيّد العلاّمة رحمه الله يؤيّد وقوع الوسوسة الشيطانية لجميع البشر بما فيهم الأنبياء بقوله: «لما أنّ الجميع سائرون إليك سالكون لا محالة مستقيم صراطك».

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿**هذا من عمل الشيطان**﴾ [٢] أفادنا كبار علماء الطائفة بتأثّر موسى عليه السلام بوسوسة الشيطان، منها:

«أي من إغوائه حتى زدت من الإيقاع به». [٣]

«أي بسببه هيّج غضبي فضربته، فهو من إغرائه». [٤]

«لكن الشيطان كما يوقع بوسوسته الإنسان في الإثم والمعصية كذلك يوقعه عليه السلام في أي مخالفة للصواب يقع بها في الكلفة والمشقّة». [٥]

فقول العلاّمة رحمه الله: «كذلك يوقعه...» بمعنى: كذلك الشيطان بوسوسته يوقع موسى عليه السلام في أي مخالفة للصواب التي تؤدّي إلى الكلفة والمشقّة.

وكذلك أقرّ رحمه الله بحصول الوسوسة للأنبياء عندما تناول تفسير قوله تعالى: ﴿**وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره**﴾ [٦]، فقال:

«ولا ضير في نسبة الفتى نسيانه إلى تصرّف من الشيطان بناء على أنّه كان يوشع بن نون النبي، والأنبياء في عصمة إلهية من الشيطان لأنّهم

١. تفسير الميزان ٨: ٣٢.

٢. القصص: ١٥.

٣. التبيان، الطوسي ٨: ١٣٦.

٤. مجمع البيان، الطبرسي ٧: ٤٢٢.

٥. الميزان، الطباطبائي ١٦: ١٦.

٦. الكهف: ٦٣.

معصومون ممّا يرجع إلى المعصية وأمّا مطلق إيذاء الشيطان فيما لا يرجع إلى معصية فلا دليل يمنعه قال تعالى: ﴿**واذكر عبدنا أيّوب إذ نادى ربّه أنّي مسّني الشيطان بنصب وعذاب**﴾». [١]

هنا أيضاً أكّد وقوع الوسوسة لهم عليهم السلام بقوله: «إيذاء الشيطان».

ومرّة أُخرى نشاهد السيّد العلاّمة الطباطبائي عندما تناول تفسير قوله تعالى: ﴿**ونسيا حوتهما**﴾ [٢]، يقول:

«﴿**نسيا حوتهما**﴾ بنسبة النسيان إليهما معاً: نسيا حال حوتهما، فموسى نسي كونه في المكتل فلم يتفقده والفتى نسيه إذ لم يخبر موسى بعجيب ما رأى من أمره». [٣]

فهو دليل آخر على صدور النسيان من يوشع عليه السلام بسبب الوسوسة.

وقد تناول آية الله ناصر مكارم الشيرازي في تفسيره الأمثل الآيتين: ﴿**فنسيا حوتهما... فإنّي نسيت الحوت**﴾ [٤]، فقال:

«وهنا يطرح سؤال: هل يمكن لنبي مثل موسى عليه السلام أن يصاب بالنسيان حيث يقول القرآن ﴿**فنسيا حوتهما**﴾ ثمّ لماذا نسب صاحب موسى عليه السلام نسيانه إلى الشيطان؟

في الجواب نقول: إنّه لا يوجد ثمّة مانع من الإصابة بالنسيان في المسائل والموارد التي لا تربط بالأحكام الإلهية والأمور التبليغية، أي

١. تفسير الميزان، تفسير الآية ٦١ من سورة الكهف.
٢. الكهف: ٦١.
٣. راجع تفسير الميزان للآية المذكورة.
٤. الكهف: ٦١ و ٦٣.

في مسائل الحياة العادية وخاصّة في المواقع التي لها طابع اختياري كما قالوا عن موسى هنا، وسوف نشرح لك ذلك فيما بعد.*

أمّا ربط نسيان صاحبه بالشيطان، فيمكن أن يكون ذلك بسبب أن قضية السمكة ترتبط بالعثور على ذلك الرجل العالِم، وبما أنّ الشيطان يقوم بالغواية، لذا فإنّه أراد من خلال هذا العمل (النسيان) أن يصلا متأخّرين إلى ذلك العالِم وقد تكون مقدّمات النسيان قد بدأت من (يوشع) نفسه حيث إنّه لم يدقق ويهتمّ بالأمر كثيراً».(١)

ثمّ إنّ آية اللّه الشيرازي تناول قوله تعالى: ﴿**لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً**﴾(٢) مفسّراً، فقال:

«يعني أخطأت ونسيت الوعد فلا تؤاخذني بهذا الاشتباه».(٣)

وعلّق محمّد جواد مغنية في تفسيره لهذه الآية قائلاً:

«وتدلّ هذه الآية بظاهرها أنّ النسيان في غير التبليغ عن اللّه جائز على الأنبياء».(٤)

وقال العلاّمة السيّد محمّد حسين فضل اللّه بخصوص نسيان النبيّ في سورة الكهف:

«لا نجد هناك أيّ دليل عقلي أو نقلي يفرض امتناع نسيان النبيّ لمثل

---

*. «وسوف نشرح ذلك فيما بعد» يقصد به قوله تعالى عن لسان موسى عليه السلام: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ (الكهف: ٧٣).

١. التفسير الأمثل، آية اللّه ناصر مكارم الشيرازي ٩: ٢٨١.

٢. الكهف: ٧٣.

٣. التفسير الأمثل، آية اللّه ناصر مكارم الشيرازي ٩: ٢٨٧.

٤. التفسير المبين، محمّد جواد مغنية، الآية ٧٣ من سورة الكهف.

هذه الأمور الحياتية الصغيرة لأنّ ذلك لا يسيء إلى نبوّته من قريب أو بعيد».[١]

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿**لا تؤاخذني بما نسيت**﴾، قال السيّد فضل الله:

هذا موقف ثانٍ للنسيان يعيشه موسى عليه السلام في ذاته ـ لأنّ النسيان حالة اضطرارية لا يملك معها الإنسان عنصر الاختيار».[٢]

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿**قال ألم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبراً**﴾[٣] أفادنا السيّد فضل الله إلى صدور خطأ من موسى عليه السلام، فيقول:

«وكأنّه لسان حال النبي خضر للنبي موسى عليهما السلام: لماذا لم تستفد من التجربة الأولى التي عرفت فيها خطأ موقفك في اهتزاز مشاعرك أمام الحدث الذي لم تفهمه ولم تفكر بأنّ من الممكن أن يكون له وجهٌ آخر».[٤]

وأبدى شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي رحمه الله رأيه أيضاً في قوله تعالى: ﴿**فإنّي نسيت الحوت وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره**﴾، فقال:

«﴿**فإنّي نسيت الحوت**﴾ ثمّ قال: ﴿**وما أنسانيه**﴾ يعني الحوت ﴿**إلاّ الشيطان أن أذكره**﴾ أي وسوسني وشغلني بغيره حتى نسيت، فلذلك أضافه إلى الشيطان، لمّا كان عند فعله. ومعنى ﴿**وما أنسانيه**﴾ أي الحوت، يعني نسيت أن أذكر كيف اتّخذ سبيله في البحر. وجاز نسيان

١. من وحي القرآن، العلاّمة فضل الله ١٤: ٣٦١، ط: دار الملاك، بيروت.
٢. المصدر السابق: ٣٦٩.
٣. الكهف: ٧٢.
٤. من وحي القرآن، العلاّمة محمّد حسين فضل، تفسير الآية.

مثل ذلك مع كمال العقل لأنّه كان معجزاً».(١)

فشيخنا الطوسي قدس سره قد أجاز نسيان الأنبياء بتأثير وسوسة الشيطان لهم كما هو الملاحظ في النبيّ يوشع عليه السلام حيث أشار شيخ الطائفة مفسّراً: «أي وسوسني وشغلني بغيره حتى نسيت».

والشيخ الطبرسي تناول تفسير آية: ﴿**لا تؤاخذني بما نسيت**﴾، فقال:

«أي غفلت من التسليم لك وترك الإنكار عليك وهو من النسيان الذي هو ضدّ الذكر».(٢)

وفي حديث طويل لأمير المؤمنين عليه السلام مع زنديق ادّعى التناقض في القرآن، فقال له عليه السلام:

«وأمّا هفوات الأنبياء، وما بيّنه الله في كتابه، ووقوع الكناية عن أسماء من اجترم، أعظم ممّا اجترمته الأنبياء ممن شهد كتاب الله بظلمهم، فإنّ ذلك من أدلّ الدلائل على حكمة اللّه عزّ وجلّ الباهرة، وقدرته القاهرة، وعزّته الظاهرة، لأنّه علم أنّ براهين الأنبياء عليهم السلام تكبر في صدور أُممهم، وأنّ منهم يتّخذ بعضهم إلهاً كالذي كان من النصارى في ابن مريم، فذكرها دلالة على تخلّفهم عن الكمال الذي تفرّد به عزّ وجلّ ألم تسمع إلى قوله في صفة عيسى، حيث قال فيه وفي أُمّه: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ يعني أنّ من أكل الطعام كان له ثُفل ومن كان له ثفل فهو بعيد ممّا ادّعته النصارى لابن مريم».(٣)

وأتحفنا السيدّ فضل اللّه قائلاً:

١. التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي، ٧: ٦٨، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢. مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ الطبرسي ٤: ١٨٧، ط: دار مكتبة الحياة، بيروت.
٣. بحار الأنوار ٨٩: ٤٣؛ و٩٠: ١١٢، نقلاً عن كتاب الاحتجاج.

«إنّ الأسلوب القرآني لا يريد أن يعمّق الفكرة التي تتحدّث عن شخصية الأنبياء بالمستوى الذي يوحي بأنّ هناك أسراراً فوق العادة تكمن في داخل شخصيّتهم، في ما هي الخصائص الذاتية للشخصية. فهناك أكثر من نقطة ضعف خاضعة للتكوين الإنساني في طبيعة الروح والجسد، ويمكن أن تتحرّك لتضع أكثر من وضع سلبي على مستوى التصوّر والممارسة».(١)

وأردف العلاّمة فضل اللّه بعد تناوله قصّة آدم عليه السلام وما حدث له في جنّته قائلاً:

«نستفيد منها نقطتين، الأُولى: أنّ النبوّة تلتقي بمواقع الضعف البشري في أكثر من موقع، ولا تفرض الكمال الذي يبتعد عن طبيعته البشرية. الثانية: أنّ القرآن لا يريد أن يعطي النبي هالة مقدّسة في مجال التصوّر، بل يريد أن يدفع بالتصوّر إلى أن يتحرّك بشكل طبيعي في فهم الشخصية من خلال البعد الظاهري الذي يكشف عن العمق الداخلي، عبر الوسائل العادية التي يمتلكها الناس في معرفة عمق الأشياء من خلال ظواهرها».(٢)

وقال الشيخ الصدوق:

«وكان شيخنا محمّد بن الحسن بن محمّد بن الوليد رحمه الله يقول: أوّل درجة في الغلوّ نفي السهو عن النبي صلى الله عليه وآله».(٣)

---

١. ومن وحي القرآن ١٥: ١٦٧.

٢. المصدر السابق ١٥: ١٦٧.

٣. من لا يحضره الفقيه ١: ٢٣٣/١٠٣١.

وآية‌الله الشيخ الهاشمي الرفسنجاني عندما تناول تفسير قوله تعالى عن لسان النبيّ نوح عليه السلام: ﴿**ربّ إنّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم**﴾[1]، قال:

«تدلّ على علمه واطّلاعه عليه السلام المحدودين، وعدم عصمته عن الخطأ والاشتباه».[2]

وقد اعترف الشيخ العلاّمة جعفر السبحاني بوقوع الأنبياء تحت تأثير الوسوسة الشيطانية التي تؤدّي بهم إلى سوء التدبير، وضلال السعي، والأعمال الخاطئة، والنسيان، واستيلاء الغفلة عليهم، ولم يعتبر

وقد اعترض الشيخ المفيد رحمه الله بشدّة على رأي الشيخ الصدوق ومن ذهب مذهبه هذا وسمّاهم بالمقلّدة، وألّف رسالة في عدم سهو النبي صلى الله عليه وآله وقال ما ملخّصه: «إنّ جواز السهو على النبي صلى الله عليه وآله يتسلسل إلى كلّ شيء حتى إلى المحرّمات، ومنها تلقي الوحي وتبليغه».

ونحن لا نؤيّد قوله هذا رحمه الله، لأنّ صريح آيات الذكر الحكيم قد ذكرت وقوع الأنبياء في نسيان وخطأ. وهي لا تخشى التسلسل الذي أشار إليه الشيخ المفيد. فما ذهب إليه فهو مخالف لنصّ القرآن الذي أمرنا أئمّتنا عليهم السلام بضرب ما خالفه عرض الجدار لأنّه زخرف.

وكذلك رفض آية‌الله العظمى السيّد محمّد رضا الكلبايكاني رحمه الله قول الشيخ الصدوق وقال: إنّ نفي السهو عنهم عليهم السلام ليس بغلوّ، ثمّ إنّه رحمه الله استشهد برواية ردّاً على الغلاة وهي تشير إلى صدور الذنب من أئمّتنا عليهم السلام ونحن ننقلها ردّاً على كلامه قدس سره بدون تعليق:

«فوالله ما نحن إلاّ عبيد خلقنا الله واصطفانا، ما نقدر على ضرّ ولا نفع إلاّ بقدرته، إن رحمنا فبرحمته وإن عذّبنا فبذنوبنا، ولعن الله مَنْ قال فينا ما لا نقول في أنفسنا، ولعن الله مَنْ أزالنا عن العبوديّة لله الذي خلقنا وإليه مآبنا ومعادنا وبيده نواصينا».

نتائج الأفكار، تقريرات آية‌الله السيّد محمّد رضا الكلبايكاني: ٢٠٠، والرواية نقلها من كتاب الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ١ و٢: ٢٣٥.

١. هود: ٤٧.

٢. تفسير راهنما، الشيخ الهاشمي الرفسنجاني مع نخبة من المحقّقين في مركز الثقافة وعلوم القرآن التابع لمكتب الإعلام الإسلامي للحوزة العلمية بقم المقدّسة ٨: ١١٨.

ذلك أمراً غريباً. فقال الشيخ العلاّمة موضّحاً لقوله تعالى: ﴿**هذا من عمل الشيطان إنّه عدوّ مضلّ مبين**﴾[١]:

«فكما أنّ المعاصي تنسب إلى الشيطان، قال سبحانه: ﴿**إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلّكم تفلحون**﴾ فكذلك الأعمال الخاطئة الناجمة من سوء التدبير وضلال السعي، السائقة للإنسان إلى العواقب المُرّة، تنسب إليه أيضاً.

فالمعاصي والأعمال الخاطئة كلاهما تصحّ نسبتها إلى الشيطان بملاك أنّه عدوّ مضلّ للإنسان، والعدوّ لا يرضى بصلاحه وفلاحه بل يدفعه إلى ما فيه ضرره في الآجل والعاجل، ولأجل ذلك قال بعد ما قضى عليه: ﴿**هذا من عمل الشيطان إنّه عدوّ مضلّ مبين**﴾».[٢]

وأضاف العلاّمة الشيخ السبحاني قائلاً:

«وأمّا قوله سبحانه: ﴿**فعلتها إذاً وأنا من الضالين**﴾ فالمراد من الضلال هو الغفلة عمّا يترتّب على العمل من العاقبة الوخيمة، ونسيانها، وليس ذلك أمراً غريباً...

وعلى الجملة: إنّ كليم اللّه يعترف بتلك الجملة عندما اعترض عليه فرعون بقوله: ﴿**وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين**﴾ ويعتذر عنها بقوله: ﴿**فعلتها إذاً وأنا من الضالين**﴾ والمناسب لمقام الاعتذار هو تفسير الضلال بالغفلة عمّا يترتّب على العمل من النتائج ونسيانها. وحاصله أنّه

---

١. القصص: ١٥.

٢. مفاهيم القرآن، العلاّمة السبحاني، ٥: ٧٢؛ وكذلك كتابه عصمة الأنبياء: ١٥٧ ـ ١٥٨.

قد استولت عليّ الغفلة حين الاقتراف وغاب عنّي ما يترتّب عليه من ردّ فعل ومرّ العاقبة ففعلت ما فعلت».[١]

والإمام الخميني قدس سره من المعتقدين بالعصمة المطلقة وغير المطلقة، أفادنا قائلاً:

«أمّا بعض المعصومين من الأنبياء والأولياء عليهم السلام فليسوا أصحاب عصمة مطلقة ولا يخلون من سلطة الشيطان كما في انشغال آدم عليه السلام بالشجرة، الأمر الذي يعدّ من مظاهر تسلّط إبليس الأكبر ـ إبليس الأبالسة ـ».[٢]

وقد نقل السيّد محمّد حسين فضل اللّه رأي العلاّمة الطباطبائي حول تأثير وسوسة الشيطان وإيذائه للأنبياء في أبدانهم وإتعابهم دون إضلال، ثمّ ناقش رأيه وبيّن موضع ضعفه وبطلانه، وأيدّ وقوع الوسوسة في أجواء حركة الإنسان، أي في ساحة اختياراته العملية المتّصلة بأوامر اللّه ونواهيه، ونحن ننقل رأي السيّدين الجليلين، مستدلّين ومستنتجين وقوع الأنبياء تحت تأثير الوسوسة الشيطانية:

[وقد أجاب صاحب تفسير الميزان على ذلك بقوله:«إن الذي يخصّ الأنبياء وأهل العصمة، أنّهم لمكان عصمتهم، في أمنٍ من تأثير الشيطان في نفوسهم بالوسوسة، وأمّا تأثيره في أبدانهم وسائر ما ينسب إليهم بإيذاء أو إتعابٍ أو نحو ذلك من غير إضلال، فلا دليل يدلّ على امتناعه،

١. المصدر السابق، ٧٣ ـ ٧٤؛ وكذلك كتابه عصمة الأنبياء: ١٦٠ ـ ١٦١.

٢. آداب الصلاة، الفصل الثاني، مراتب الطهور، ص ١٢٠، ط: مؤسسة تنظيم و نشر تراث الإمام خميني قدس سره.

وقد حكى اللّه سبحانه عن فتى موسى، وهو يوشع النبي عليه السلام: ﴿**فإنّي نسيت الحوت وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره**﴾.

ولا يلزم من تسلّطه على نبيٍّ بالإيذاء والإتعاب لمصلحةٍ تقتضيه كظهور صبره في اللّه سبحانه، وأوبته إليه أن يقدر على ما يشاء في من يشاء من عباد اللّه تعالى إلاّ أن يشاء اللّه ذلك وهو ظاهر».(١)

ويوضّح صاحب الميزان تفسير الآية بقوله: «والظاهر أنّ المراد من مسّ الشيطان له بالنصب والعذاب، استناد نصبه وعذابه إلى الشيطان بنحوٍ من السببية والتأثير، وهو الذي يظهر من الروايات، ولا ينافي استناد المرض ونحوه إلى الشيطان، استناده أيضاً إلى بعض الأسباب العادية الطبيعية، لأنّ السببين ليسا عرضيين متدافعين، بل أحدهما في طول الآخر... ولا دليل يدلّ على امتناع وقوع هذا النوع من التأثير للشيطان في الإنسان، وقد قال تعالى: ﴿**إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان**﴾ فنسبها أنفسها إليه، وقال حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿**هذا من عمل الشيطان إنّه عدوّ مضلّ مبين**﴾، يشير إلى الاقتتال».(٢)

ولنا ملاحظة على ذلك، أولاً بأنّ دراستنا لدور الشيطان في الأرض، أنّه لا يخرج عن أجواء حركة الإنسان في ساحة اختياراته العملية المتّصلة بأوامر اللّه ونواهيه لإضلاله بطريق الوسوسة التي تدعو

١. تفسير الميزان ١٧: ٢١٠ ـ ٢١١.
٢. المصدر السابق ١٧: ٢١٠.

الإنسان إلى الاستجابة له في حركة الانحراف عن الخطّ المستقيم، وهذا ما عبّر اللّه عنه في قوله تعالى: **﴿إنّ الذين عند ربّك لا يستكبرون عن عبادته ويسبّحونه وله يسجدون﴾**. وفي قوله تعالى: **﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾**.

وفي ضوء ذلك، فإننا لا نجد في الصورة التي يقدّمها القرآن عن الشيطان أنّه يمثّل إحدى المؤثّرات الطبيعية في مرض الإنسان أو في تعبه، لأنّ المسألة المطروحة لا علاقة لها بمفهومي الإمكان والاستحالة، ليكون الحديث عن الإمكان مطروحاً من ناحيةٍ فلسفية، بل المسألة تنتسب إلى الفكرة القرآنية التي استندت إلى قصّة إبليس وآدم في بداية الخليقة، لتثير موضوع خطّ الهدى الذي يريده اللّه للإنسان من مواقع اختياره، ومسألة الضلال الذي يحرّكه الشيطان من خلال الوسوسة، بعيداً عن أيّ شيء آخر. والظاهر أنّ هذه القصّة التي كرّرها القرآن في سوره وآياته، تمثّل العنوان العامّ للفكرة، بحيث تكون التفاصيل متفرّعة عنه.

أمّا حديث التأثير الشيطاني في الأشياء من خلال آية المائدة، فلا يدلّ على المقصود، لأنّ الظاهر إرادة الارتباط بهذه الأشياء في الجانب العملي من خلال وسوسته للإنسان في الأخذ بها بالطريقة المضادّة لمصلحته، وهذا ما نفهمه من آية موسى عليه السلام، لأنّ قتله للقبطي* قد يكون

*. يشير السيّد محمّد حسين فضل اللّه إلى آية ﴿... فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان﴾ (القصص: ١٥)، ونحن سنتناول هذه الآيات بالشرح والتفصيل في مسألة موسى عليه السلام إن شاء اللّه تعالى.

ناشئاً من الوسوسة الخفيّة التي نجحت في إحداث حالةٍ من الإثارة التي تقود إلى ذلك.

ثانياً: إنّنا نؤكّد ما ذكره صاحب تفسير الكشّاف، بأنه «لا يجوز أن يسلّط اللّه الشيطان على أنبيائه ليقضي من تعذيبهم وإتعابهم وطره»، لأنّ تسليطه عليهم لا يمثّل أيّة غايةٍ واضحةٍ في واقع الرسالة والرسول، بل يمثل سلبية معنويّة في خضوع الرسول للتعسّف الشيطاني بالطريقة التي لا يستطيع فيها أن يدافع عن نفسه، بينما كان التسليط في دائرة الوسوسة متحرّكاً في الأجواء التي تتيح للإنسان أن يواجه فيها إبليس، ليصدّه عن التأثير عليه.

وإذا كان صاحب الميزان يثير مسألة المصلحة في ذلك، «كظهور صبره في اللّه سبحانه وأوبته إليه»، فإنّ ذلك لا يصلح توجيهاً للمسألة، لأنّ من الممكن أن يتمّ ذلك بطريقة المؤثّرات الطبيعية والأسباب العادية، لأنّ إبليس إذا وعى ذلك، فإنّه لا يقوم به باعتبار أنّه يترك تأثيرات إيجابية في ارتباط أيّوب باللّه].[1]

ومن نافلة القول، نذكر كلام الشهيد المطهريّ رحمه الله وهو يتحدّث عن النشاط الوسوسي الشيطاني للإنسان بتفصيل، مخالفاً لما آمن به العلاّمة السيّد الطباطبائي رحمه الله، فيقول الشهيد المطهريّ:

«ومنطقة نفوذ الشيطان تنحصر في حدود التشريع ولا تشمل التكوين، فالشيطان يؤثر في مجال الأفعال التشريعية والتكليفية

١. ما بين [ ] نقلناه من تفسير: من وحي القرآن، العلاّمة فضل الله ١٩: ٢٦٨ ـ ٢٧٠.

للإنسان، وهو يؤثّر في مجال الإنسان فقط ولا يتناول غيره، وحتى نفوذه في مجال الإنسان محدود بحدود الفكر ولا يشمل الجسد، ونفوذه في فكر الإنسان محدود أيضاً بحدود الوسوسة وإظهار الباطل بمظهر الحقّ. وقد عبّر القرآن دائماً عن نفوذ الشيطان بكلمات (التزيين) و(التسويل) و(الوسوسة) وما يشبهها. أمّا أنّ هناك شيئاً في النظام الكونيّ يخلقه الشيطان أو أنّ له سلطة تكوينية على البشر بصورة قدرة قاهرة على الإنسان تجبره على الشرّ فهذا ممّا يرفضه الإسلام ويأباه القرآن... فحدود الشيطان هي الدعوة والتزيين ولا يتجاوزها».[1]

فالقارئ اللبيب، والعالم البصير، والحاكم العدل المنصف، يفهم من خلال هذه المحاورة، وما أوردناه من آراء العلماء، حصول الوسوسة الشيطانية للأنبياء بحيث تؤدّي بهم إلى الأخطاء والتروك الإرشادية والندبية ـ كحدّ أدنى ـ. وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام ما يشير ويؤيّد هذه الأقوال، إذ قال عليه السلام:

«التوبة حبل الله ومدد عنايته، ولابدّ للعبد من مداومة التوبة على كلّ حال، فكلّ فرقة من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من اضطراب السرّ وتوبة الأولياء من تكوين (تلوين) الخطرات، وتوبة...».[2]

وننقل مرّة أخرى قول العلاّمة المجلسي رحمه الله هنا، فيقول:

«المسألة في غاية الإشكال لدلالة كثير من الأخبار والآيات على

١. العدل الإلهي: ٩٢ ـ ٩٣، ط: مؤسسة النشر الإسلامي، ط: الخامسة ١٤١٦هـ.
٢. مصباح الشريعة: ٤٣٤، ط: نشر صدوق؛ ومستدرك الوسائل ٢: ٣٤٨، كتاب الجهاد، أبواب جهاد النفس وما يناسبه.

صدور السهو عنهم عليهم السلام وإطباق الأصحاب إلاّ من شذّ منهم على عدم الجواز».[١]

وقيل للرضا عليه السلام: إنّ في الكوفة قوماً يزعمون أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يقع عليه سهو في صلاته، فقال:

«كذبوا ـ لعنهم الله ـ إنّ الذي لا يسهو هو الله الذي لا إله إلاّ هو».[٢]

وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«فلا تكفّوا عن مقالة بحقّ، أو مشورة بعدل، فإنّي لست في نفسي بفوق أن أُخطئ ولا آمن ذلك من فعلي إلاّ أن يكفي الله من نفسي».[٣]

وقال أبو عبدالله الصادق عليه السلام:

«إنّا لنذنب ونسيء ثمّ نتوب إلى الله متاباً».[٤]

وأمّا الرواية المنسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله التي قال فيها:

«**ما منكم من أحد إلاّ وله شيطان** قيل: وأنت يا رسول الله؟ **قال: ولا أنا إلاّ أنّ الله تعالى أعانني عليه فأسلم**».[٥]

هذه الرواية بغضّ النظر عن دراسة سندها فهي ساقطة من الاعتبار لقول الرسول فيها «إلاّ انّ الله أعانني عليه فأسلم»؛ لأنّ هذا القول مخالف لنصوص القرآن ودليل العقل:

---

١. البحار ٢٥: ٣٥١.
٢. بحار الأنوار ٢٥: ٣٥٠، نقلاً عن عيون أخبار الرضا: ٣٢٦.
٣. نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦.
٤. كتاب الزهد، لحسين بن سعيد الأهوازي، من أعلام القرن الثالث: ٧٣؛ والبحار ٢٥: ٢٠٧.
٥. البحار ٦٣: ١٧٧/٣٢٩ بدون سند؛ وكنز العمّال ١: ١٢٧٧/٢٥٣، بلفظ مقارب.

أولاً: إنّها خلاف نصوص القرآن الدالّة باستمرار الوسوسة في الأنبياء على مدى حياتهم، منها: ﴿**وكذلك جعلنا لكلّ نبيّ عدوّاً شياطين الإنس والجنّ**﴾[1].

ثانياً: عمل الشيطان هو الوسوسة إلى الذنوب والمحقّرات، فإن لم يوسوس، ولا يمسّ ـ كحد أدنى ـ فليس هناك فلسفة لتقرّبه لشخص ما لإيقاعه في مكائده، كما أنّ طارق الباب لو تيقّن على مدى الزمان بعدم فتح الباب المطروق لا يمكث وراءه لحظة واحدة.

ثالثاً: قول: «فأسلم» فهذا الكلام علامة الغلوّ، حيث جُعل النبيّ صلى الله عليه وآله أعظم وأجلّ من اللّه سبحانه ـ فتعالى اللّه عن ذلك علوّاً كبيراً ـ والنبيّ صلى الله عليه وآله بريء من هذا القول، فلو كان الشيطان ـ أيّ شيطان ـ يسلم لأحد لأسلم للّه عزّ وجلّ فهو أحقّ بالتسليم.

رابعاً: هل الشيطان قد أسلم للرسول صلى الله عليه وآله فقط من دون الأنبياء؟!

وقد سُئل العلاّمة حسن زاده الآملي حول طرق توضيح وتبرير، أو توجيه أدعية ومناجاة الأئمّة عليهم السلام على أنّها غير ما هي عليه، فقال:

«ليس لدينا دليل لحمل وتبرير هذه الأدعية على غير ما هي عليه، ولِمَ نفسّرها مجازاً؟! بصورة عامّة هناك مفاهيم روحانية نقيّة لطيفة في أدعية ومناجاة الأئمة عليهم السلام مفقودة في رواياتهم. والدليل واضح، فإنّ المخاطبين في الروايات عامّة الناس، فلذا فانّ الأئمّة عليهم السلام يُكلّمون الناس على قدر عقولهم، أمّا في الأدعية والابتهالات فإنّ المخاطب هو

١. الأنعام: ١١٢.

اللّه. فما نضح منها فهو ما كان في قلوبهم. وما يختلج في صدورهم قد جرى على ألسنتهم عليهم السلام في انقطاعهم العرفاني إلى اللّه».[1]

فالعلاّمة (متّع اللّه المسلمين بطول عمره) يذعن باعتراف الأئمّة عليهم السلام في الأدعية بصدور ذنب، أو سهو، أو خطأ منهم أمام اللّه تعالى، ولكن بما أنّ عقول الناس لا تقاس بعقل الإمام وهو يناجي ربّه، لم يفهم ما هو المراد من تلك الكلمات إلاّ اللّه والإمام، وبعبارة أوضح، المقصود من الذنب الذي صدر منهم هو مجهول عنده (حفظه اللّه)، أي أنّه في حيرة من أمره فلا يستطيع أن يقول أنّ الأئمّة عليهم السلام كاذبون مع اللّه، ولا يستطيع أن يقول هم مذنبون، فهو خلاف العصمة. ونحن أمام خيارين، ولا يمكننا الفرار إلاّ بقبول أحدهما!

إمّا الكذب مع اللّه، فهو غير مقبول، وإمّا أن نسأل كيف يقع الذنب.. أين.. متى.. وبأيّ شكل؟

ولا يخفى على القارئ الكريم أنّ الإنسان لا يمكنه الاعتراف للآخرين بذنوبه بأشكالها المختلفة كي يغفروا له تلك الذنوب، بل هذه العملية تقع بين العبد وربّه فقط، ولهذا فالإمام لا يتوجّه للناس ويعترف لهم بذنوبه كي يفهم منه أنّه عليه السلام قد أذنب، ولست أدري هل غطّى وستر

---

١. در محضر استاد حسن زاده آملي، محسن غرويان: ٥٦ ـ ٥٧، والنصّ كما يلي:
«دليلى نداريم كه اين تعابير را حمل بر حقيقت نكنيم، چرا حمل بر مجاز كنيم. اصولاً لطائفى كه در دعاها و مناجاتهاى ائمه عليهم السلام در روايات نيست، علّت آن هم روشن است، مخاطب در روايات مردمند، لذا ائمه هم به اندازه عقل و فهم آنان سخن مى‌گفتند، امّا در دعاها ومناجاتها، مخاطب خدا است، لذا آن چه اندرون داشتند بيان مى‌نمودند، آن‌چه حاكى از مجلس بزم عرفانى در اندرويشان بود به زبان جارى مى‌كردند».

العلاّمة الآملي في كلامه هذا الفارق في كلا الوجهين، أم غفل عنهما.

نتيجة البحث:

من خلال ملاحظتنا لآيات من القرآن الكريم، وعدّة من أحاديث أهل البيت عليهم السلام، واستقرائنا لآراء المعتمدين من علماء الشيعة، تبيّن لنا وقوع الخطأ والنسيان من الأنبياء، وكذلك تعرّضهم لوساوس الشيطان وحيله، ومنهم من قد مسّه بنصب وعذاب كالنبي أيّوب عليه السلام، ومنهم من نسب عمله إلى فعل الشيطان كالنبي موسى ويوشع عليهما السلام، إذن نحن نجزم بما لا شكّ ولا ريب فيه بصدور عمل من المعصوم على سبيل الخطأ، أو السهو، أو النسيان، أو التروك بأشكالها المختلفة، بتأثير الوسوسة الشيطانية.

هذا أوّلاً، أمّا الثاني: لا يمكن لنا القول أنّ الوسوسة الشيطانية للأنبياء تؤدي بهم إلى ترك المندوبات أو النسيان، فتبعثهم إلى الارتباط بالله وتقرّبهم إليه تعالى أكثر فأكثر، لأنّ إبليس إذا وعى ذلك، فإنّه لا يقوم به باعتبار أنّه يترك تأثيرات إيجابية فيهم على طاعة المولى سبحانه!

وأمّا الثالث: أنّنا عندما نراجع آيات الذكر الحكيم نجد أنّ ردّ فعل الأنبياء في مثل هذه الوساوس على نوعين:

الاوّل: الاستغفار، وطلب التوبة، كما استغفر آدم، وموسى عليهما السلام.

الثاني: عدم الاستغفار، كالنبيّ يوشع في رحلته مع موسى عليهما السلام.

فنستنتج أنّهم عليهم السلام لا يخلون من أحد هذه الوجوه:

١ ـ العمل على سبيل المعصية، وعدم الاستغفار.

٢ـ العمل على سبيل المعصية، ونسيان أو ترك الاستغفار.

٣ـ العمل على غير سبيل المعصية، والاستغفار أفضل (كخصلة وعمل حسن).

٤ـ العمل على غير سبيل المعصية، وعدم الاستغفار.

فالرأيان الأوّل والثاني مرفوضان في نظر من قال بالعصمة.

أمّا الوجه الثالث فهو يدلّ على أنّ من ترك الاستغفار قد ترك الأولى، أو الاستغفار من عمل على غير سبيل معصية، وقد بيّنّا ضعف هذين الرأيين وأوضحنا وهنهما في الصفحات الماضية من هذا الكتاب.

ومن خلال محكم آيات القرآن الكريم نؤكّد انّ اللّه سبحانه لا يؤاخذ بشراً على خطأ أو نسيان، قال تعالى: ﴿**لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً**﴾[1]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿**وليس عليكم جناح فيما اخطأتم به ولكن ما تعمّدت به قلوبكم**﴾[2]، ويؤكّد الرسول الأكرم برفع القلم عن المخطئ والناسي بقوله صلى الله عليه وآله: «رفع عن أمّتي تسعة أشياء: الخطأ والنسيان و...».[3]

إذن التبرير والتوجيه لا يصلحان على أن الانبياء عليهم السلام يستغفرون اللّه سبحانه ويطلبون عفوه تعالى من خطأ أو نسيان، إذ هو تحصيل حاصل.

فهنا يتبلور ويتجلّى الرأي الرابع، وهو العمل على غير سبيل

١. الكهف: ٧٣.

٢. الاحزاب: ٥.

٣. حديث رفع القلم صحيح السند في مصادر عديدة عند العامة والخاصة، وقد استدل به الفقهاء في كثير من ابواب الفقه.

المعصية، وعدم الاستغفار، فنستنتج منه:

من عمل على سبيل المعصية منهم عليهم السلام فقد استغفر.

أودّ إيضاح هذه النقطة أيضاً، فأقول: إنّ علماء الشيعة قد أجمعوا، ولا يشذّ واحد منهم، على أن يكون تصرّف المعصوم بأيّ شكل من أشكاله أن لا يمسّ التشريع، وإلاّ انتفت النبوّة والغرض من الإرسال، وعدم اعترافهم بصدور ظلم أو ذنب من المعصوم هو لخشيتهم من تسرب هذا الإشكال إلى أصل التشريع، وورود الخدش فيه.

فإذن هم لا يخالفون فيما إذا قلنا مثلاً:

ترك الأولى لا يمسّ التشريع. ترك الندب لا يمسّ التشريع. النسيان لا يمسّ التشريع. الغفلة لا تمسّ التشريع. الخطأ لا يمسّ التشريع. وسوسة شيطانية لا تمسّ التشريع. ظلم النفس لا يمسّ التشريع. الذنب لا يمسّ التشريع.

وكذلك معظم علماء السنّة قد ذهبوا إلى هذا الرأي، ومن ذلك قولهم:

«... والتصديق بالأحكام التي تُعلم يقيناً أنّه عليه السلام حكم بها دون ما فيه اختلاف واشتباه».[1]

وحتى الذين جوّزوا الكبائر أو الصغائر على الأنبياء فهم يشترطون في العصمة الشرط ذاته.

فإذن الجميع متّفقون في الشرط ومختلفون في المصداق.

فالباحث المدقّق، والعالم البصير، البعيد عن التعصّب، عندما يشاهد

---

١. المنهاج في شعب الإيمان ١: ٢٥، شرح المقاصد ٥: ١٧٧، المحصّل: ٥٦٧.

تصرّفات وأعمال الأنبياء في هذه المسألة من خلال آي الذكر الحكيم، يجدها تحمل الشروط التالية:

١ ـ أن لا يترتّب عليها سوء أو ظلم على الآخرين (شخصية محضة).

٢ ـ بتصوّر التصرّفات الصادرة ممضية من قِبَل المولى تعالى.

٣ ـ أن لا تغيّر وتحرّف التشريع الذي كلّفوا في بيانه للناس.

والشرط الأخير قد أجمع عليه العلماء جميعاً في القول بوجوب العصمة.

وبعد هذا التوضيح نجد أنّ المدافعين عن عصمة الأنبياء وهم الأغلبية الساحقة الذين جوّزوا ترك الأولى عليهم، قد طعنوا في عصمتهم جملة وتفصيلاً من حيث لا يشعرون، بعد نسبهم التروك للمعصوم فيما يتعلّق بعلاقاته مع الناس، وهو من الذنوب التي لا يدعها اللّه عزّ وجل حتّى يحاسب المذنب عليها، كميل واستهواء يوسف عليه السلام امرأة العزيز بميل الطباع، وأيضاً داود عليه السلام لم يسلم من هذا الطعن.

وكذلك تأييدهم تدخّل موسى عليه السلام في عمل شيطاني ـ كما قيل ـ وهو غافل، وإنهائه على أفضل ما يتصوّره الشيطان، بقتله القبطي، وستأتي التفاصيل في الأبواب الخاصّة بهم إن شاء اللّه.

العامل الرئيسي لهذا الاختلاف:

نحن عندما نتناول موضوع العصمة، أو عدمها، فإنّنا يجب أن نبحثها في سبع دوائر وليس في ثلاث أو أربع دوائر، كما سلّم بها علماء الطوائف

الإسلامية للنبي والرسول[١]، فمنها ما هو مشترك بينه وبين الناس كإنسان، كباقي بني آدمعليه السلام، ومنه ما هو ليس مشتركاً، بصفته نبيّاً ورسولاً ومبلّغاً عن الوحي، وهي:

١ـ تلقّي الوحي.

٢ـ تبليغ الرسالة.

٣ـ الإفتاء.

٤ـ السنّة، وهي تنقسم قسمين:

الأوّل: علاقته مع الناس، وبدورها تنقسم إلى:

الف ـ قول، ومنه الإفتاء.

ب ـ فعل.

ج ـ تقرير.

الثاني: علاقته مع اللّه سبحانه وتعالى، أي أداء أوامره والتوقّف عند نواهيه على المستوى الفردي، ونقصد بها التصرّفات الشخصية التي لا يتعلّق نفع لأحد أو ضرر بأحد من البشر في حال أدائها أو عدمها.

فتحقيق العصمة عن الذنب يبحث في كلّ دائرة من الدوائر المذكورة، لأنّنا نريد أن نعلم هل الأنبياء معصومون فيها، أم لا؟

فمسألة العصمة عن الذنب التي تناولها علماء المسلمين بكافّة مذاهبهم، وكذلك حصر بحثهم وتنقيبهم لمفهوم العصمة في ثلاثة أو أربعة

---

١. راجع عصمة الأنبياء للفخر الرازي، فصل شرح الأقوال والمذاهب في هذه المباحث؛ وكذلك تفسير الميزان للعلاّمة السيد الطباطبائي، ٢: ١٣٦، كلام في عصمة الأنبياء، جاء فيه: «توضيح هذه النتيجة أنّ العصمة على ثلاث أقسام... الخ».

موارد، قد حرفت سهام أفكارهم لإصابة الصواب، وغفلوا عن المواضع الأخرى التي أوضحناها بوجوب أو عدم وجوب عصمة النبيّ فيها.

هذا أوّلاً، وثانياً قياسهم لمعنى الذنب والمعصية بما هو متعارف عند عامّة الناس من كذب، وفحش، وسرقة و...الخ، ونسوا المعنى الحقيقي للذنب والمعصية، أي لم يوضّحوا مصطلحها فيما يريده اللّه تعالى من عبده من أفعال وتصرّفات على مدى مسير حياته في هذه الدنيا، ولهذا أصبحوا في مأزق، إمّا وجوب العصمة، وهو خلاف نصوص القرآن والسيرة المطهّرة، وإمّا عدمها وهو خلاف الدليل العقلي ومنطق الصواب.

فعلماء العامّة عندما تناولوا موضوعها ووجدوا أنّ النصوص القرآنية تخالف هذه المسألة، انزلق فكرهم ووصل بهم إلى حدّ القول بجواز كفر النبيّ، وإتيانه الفواحش والكبائر.

وعلماؤنا الشيعة كذلك، عندما أثبتوها بأدلّتهم الضعيفة، حَمَلوا وبرّروا نصوص القرآن التي تخالف ما أثبتوه على توجيهات وتبريرات واهية، والأغرب من هذا كلّه هم ليسوا على أمر واحد، فكلّ عالم منهم قد فسّرها وأوَّلَها بما يرتأيه، بدون دليل عقلي مقنع، وبرهان واضح وقاطع، فمنهم من قال ترك الأولى، أو ترك الندب، ومنهم من قال خطأ أو نسيان، والآخر قال سهو، ومنهم من قال على سبيل الانقطاع، حتى إنّ الشيخ المحقق آيةاللّه جوادي الآملي عندما تناول مسألة عصيان نبيّنا آدم عليه السلام قد تردّد وتحيّر فيها كثيراً، ولم يعطِ دليلاً مقنعاً فيها، فلا يقدر على القول إنّه عليه السلام لم يعص، وهو خلاف النصّ القرآني، ولا يقدر على الاعتراف بعصيانه كنبيّ، فهو خلاف العصمة، فقال (حفظه اللّه):

«معصية قبل النبوّة».

ثمّ قال: «ليس هناك تشريع».

ثمّ قال: «هو سرّ من أسرار اللّه سبحانه».

وبعدها قال: «إنّها مسألة كالمسائل العلمية المجهولة، فأقصى ما يستطيع أن يقوله المرء: لست أدري».

وأخيراً قال: «إذا ثبت أنّ أجواء معصية آدم عليه السلام من خلال سورتي البقرة وطه أنّها قبل النبوّة، عند ذلك يتنفّس الانسان الصعداء قليلاً».[1]

فنحن ليس لنا محيص إلاّ أن نفتح سجلاًّ لنتناول فيه مسألة العصمة من جديد لنسجّل فيه الحقيقة بما يوافق وينسجم مع روح ونصّ القرآن الكريم الذي أنزله اللّه تعالى تبياناً لكلّ شيء، وبما يوافق دليل العقل ومنطق الصواب، ولا نحيد عنهما قيد أنملة.

فالسؤال المطروح هنا، أين تقع هذه الأخطاء، والتروك، والنسيان، وكذلك الوسوسة والمسّ، في حياة المعصومين؟ أفي تلقّي الوحي وإبلاغه؟ أم في سيرته مع الناس وإفتائه؟ أم في الأوامر الإلهية؟ أم الأمور الشخصية؟ أو...الخ.

---

١. راجع المجلس ٣٩ في تفسير سورة الأعراف بتاريخ ٧٦/١٢/١٠ هـ ش)، انتشارات فيضيّة بمدينة قم المقدّسة، ولأنّ كلامه المذكور بلغة فارسية، وجاء في صفحات متفرّقة فقد صرفت النظر عن نقله هنا.

العصمة وأبعادها

١ و ٢ ـ العصمة في تلقّي الوحي وتبليغ الرسالة:

اتّفقت طوائف المسلمين جميعاً على عصمة النبيّ في هذه المرحلة، وآمنت بما يوحى إليه من كلام ربّاني وما يبلّغه من تشريع عن اللّه سبحانه وتعالى، وأذعنوا بأنّ النبيّ المتصل بعالم الغيب والملكوت الأعلى لو لم يكن معصوماً في المهمّتين المذكورتين لبطلت نبوّته، ولانتفى الغرض من بعثته، وقد وردت آيات عديدة من الذكر الحكيم تدلّ على ذلك، منها:

﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربّهم وأحاط بما لديهم وأحصى كلّ شيء عدداً﴾.[1]

أي أنّ الهدف ومهمّة إرسال النبيّ والرسول هو تبليغ رسالات ربّ العالمين، كما أرادها اللّه سبحانه، بدون زيادة أو نقصان، وكذلك قوله تعالى: **﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثمّ لقطعنا منه**

---

١. الجنّ: ٢٨.

الوتين﴾.[١]

بمعنى أنّ النبيّ أو الرسول لم يزد ولم ينقص حرفاً واحداً في التشريع أو كتاب اللّه عزّ وجلّ، ولو زوّد أو نقّص لأخذه اللّه بقدرته، وقطع منه الوتين. إذن فاللّه سبحانه هو المتكفّل بحفظ الدين من زيادة أو نقصان.

٣ ـ الإفتاء:

الافتاء أو الفتوى هو النظر البالغ التامّ، والحقّ، والواقع في أيّ مسألة من المسائل. وأمّا من الناحية التشريعية فيُقصد به بيان حكم اللّه تعالى.

وفي هذه المرحلة أيضاً يجب في النبيّ أو الرسول أن يكون مسدّدا بالعناية الإلهية، فالافتاء أيضاً هو عبارة عن تبليغ الرسالة وحكم اللّه عزّ وجلّ للناس، فلو أجزنا التخطئة في الافتاء لسرت هذه المسألة إلى بقيّة الأحكام الشرعية، وهو نفي الغرض من البعثة.

وقوله سبحانه: ﴿**لو تقوّل علينا بعض الأقاويل...**﴾ لم يفهم منه التبليغ فحسب، بل يفهم منه أيّ قول وحكم ينسبه النبيّ أو الرسول للّه ربّ العزّة، ومن الآيات التي تشير إلى ذلك قوله تعالى عن لسان الأنبياء:

﴿**حقيق عليّ أن لا أقول على اللّه إلاّ الحقّ**﴾.[٢] وأيضاً: ﴿**ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقّ**﴾.[٣]

---

١. الحاقّة: ٤٤ ـ ٤٦. في مصادر أحاديث أهل البيت عليهم السلام نزلت هذه الآية في حقّ علي بن أبي طالب عليه السلام بوجوب خلافته وإمارته على المسلمين بلا فصل بعد رسول اللّه صلى الله عليه وآله.

٢. الأعراف: ١٠٥.

٣. المائدة: ١١٦.

إذن ليس هنا أيضاً فسحة بالتخطئة، لأنّ اللّه سبحانه وتعالى هو الراعي والحافظ لرسالاته والمسدد لأنبيائه فيما يبلغون عنه.

٤ ـ السنّة:

الف ـ علاقته مع الناس:

١ ـ القول، الفعل، والتقرير:

الدوائر الثلاث هذه هي أيضاً كسابقتها، فلا يجوز للنبي أن يتكلّم بكلام فارغ أو سخيف لا معنى له، وكذلك أفعاله، فلا يرتكب من المعاصي ما يترتّب عليه تضييع حقوق الآخرين، كالزنى، والسرقة والغيبة، والنميمة، والتطفيف ولو بحبّة، فكل ذلك ما لا يجوز عليه، فإن كان صاحب الفضل والحق كافراً، فلأنّ مصيره إلى النار، يصرّ على معاقبة النبيّ، أو يتجاوز عنه تكرّماً، وهو خلاف وعد اللّه للأنبياء عليهم السلام، وخلاف قوله تعالى: ﴿**ولن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلاً**﴾.[1]

وإن كان صاحب الحق والفضل مؤمناً، فهو لا يرضى يوم القيامة دون مقام النبيّ أو يطلب أعلى من درجته، أو الصفح. فهنا أيضاً لا يمكن أن يكون لأحد من المسلمين، أو المؤمنين فضل أو منّة على نبي، خصوصاً النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون**﴾.[2]

---

١. النساء: ١٤١.

٢. الحجرات: ٢.

فهذه الآية لم تخصّص رفع الصوت على النبيّ فحسب، بل تعني أي عمل يؤدّي إلى مهانة شخصيّته، أو استحقار شأنه، أو عدم احترامه، وإجلاله وتكريمه وتوقيره. فالقرآن أشار إلى أدنى حالة يمكن أن يستعلي بها الإنسان على النبيّ.

وحال هذه الآية حال آية وصاية اللّه وقضائه لبني الإنسان بعدم قول كلمة «أُفّ» للوالدين، فليس لأحد أن يجيز لنفسه ضرب أبويه باعتباره أنّ الآية لم تخصّص الضرب!

وأمّا التقرير فكذلك، لا يجوز للنبي أو الرسول أن يصادق على منكر أو ينهى عن معروف عمداً أو خطأً، فكلّ ذلك يرتبط بدوره بمسائل التشريع الذي شاء المولى تعالى حفظه من أي تحريف وتزييف.

ومن هنا نجد الرسول صلى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام قد نهوا أُناساً عن أدنى المحرّمات، وكادت تكون في أعيننا عملاً مباحاً لا يترتّب عليه عقاب، أو هو عمل مقرّب للمولى تعالى، لولا تنبيههم عليه واستنكارهم له، وأنّهم عليهم السلام لم يمرّوا على هذه الظواهر كمرّ السحاب بدون مبالاة، وبلا اهتمام، بل بيّنوا وأشاروا إلى حكم اللّه فيها، فمنها ما قاله رسول اللّه صلى الله عليه وآله عندما مرّ على أحد الأصحاب وهو يغرف الماء في وضوئه: «**يا عبدالله لا تسرف**، فقال: يا نبي اللّه، وفي الوضوء إسراف؟! قال: **نعم**».[1]

ورواية بشر بن مروان، قال:

«دخلنا على أبي عبداللّه عليه السلام فدعا برطب فأقبل بعضهم يرمي

---

١. كنز العمّال ٩: ٢٧٠٢٧/٤٧٤.

بالنوى، قال: وأمسك أبو عبدالله عليه السلام يده فقال: **لا تفعل، إنّ هذا من التبذير، وإنّ الله لا يحبّ الفساد».**[1]

ولذا نرى أنّ الله سبحانه في آيات عديدة من كتابه المجيد، قد أوجب على المسلمين طاعة الانبياء، وقرن طاعتهم بطاعته خصوصاً النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بمعنى أنّ ما يأمر به النبيّ هو أمر اللّه، وما ينهى عنه هو نهي اللّه عزّ وجلّ، فمن المحال أن يمضي المولى سبحانه خلاف إرادته.

فطاعة النبيّ أمراً ونهياً هو بيان الحكم الإلهي، كما في قوله تعالى:

﴿**وما أرسلنا من رسول إلاّ ليطاع بإذن اللّه**﴾.[2]

وقوله تعالى:

﴿**من يطع الرسول فقط أطاع اللّه**﴾.[3]

وقد تناول المفسّرون هاتين الآيتين بالشرح والتفصيل، وقالوا بوجوب الطاعة الكاملة والمطلقة، لأنها تنصبّ في الطاعة الربانية، واختصاراً ننقل هنا بعض ما ورد في هذا السياق من تفاسير أهل السنة، حيث أنّ هذه المسألة مفروغ منها عند علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

يقول الفرّاء البغوي في تفسيره لهاتين الآيتين:

«قوله تعالى: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلاّ ليطاع بإذن اللّه**﴾. أي بأمر اللّه، لأنّ طاعة الرسول وجبت بأمر اللّه، قال الزجاج: ليطاع بإذن اللّه لأنّ اللّه قد أذن فيه، وأمر به، وقيل ﴿**إلاّ ليطاع**﴾ كلام تامّ كافٍ ﴿**بإذن اللّه**﴾ أي بعلم

---

١. العيّاشي في تفسيره ١٥: ٢٦٨/١٨٢٠٨؛ بحار الأنوار ٧٥: ٣٠٣/٥.

٢. النساء: ٦٤.

٣. النساء: ٨٠.

اللّه وقضائه، أي وقوع طاعته يكون بإذن اللّه».[١]

وقال أيضاً عندما تناول تفسير قوله تعالى ﴿**من يطع الرسول**...﴾:

«قوله تعالى: ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع اللّه**﴾. وذلك أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يقول: «**من أطاعني فقد أطاع اللّه، ومن أحبّني فقد أحبّ اللّه**»، فقال بعض المنافقين: ما يريد هذا الرجل إلاّ أن نتّخذه ربّاً كما اتّخذت النصارى عيسى بن مريم ربّاً، فأنزل اللّه تعالى: ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع اللّه**﴾. أي من يطع الرسول فيما أمر به فقد أطاع اللّه».[٢]

وقال محمّد علي الصابوني، عندما تناول قوله تعالى: ﴿**لقد كان لكم في رسول اللّه أُسوة حسنة لمن كان يرجوا اللّه واليوم الآخر وذكر اللّه كثيراً**﴾[٣]:

«﴿**لقد كان لكم في رسول اللّه أُسوة حسنة**﴾ أي كان لكم أيّها المؤمنون في هذا الرسول العظيم قدوة حسنة، تقتدون به(صلّى اللّه عليه وسلّم) في إخلاصه، وجهاده، وصبره، فهو المثل الأعلى الذي يجب أن يقتدى به، في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، لأنّه لا ينطق ولا يفعل عن هوى، بل عن وحي وتنزيل، فلذلك وجب عليكم تتبّع نهجه، وسلوك طريقه ﴿**لمن كان يرجوا اللّه واليوم الآخر**﴾ أي لمن كان مؤمناً مخلصاً يرجو ثواب اللّه، ويخاف عقابه ﴿**وذكر اللّه كثيراً**﴾ أي وأكثر من ذكر ربّه، بلسانه وقلبه».[٤]

---

١. معالم التنزيل في التفسير والتأويل لأبي محمّد الفراء البغوي، الآية.

٢. المصدر السابق، الآية.

٣. الأحزاب: ٢١.

٤. صفوة التفاسير، محمّد علي الصابوني، أستاذ بكلّية الشريعة والدراسات الاسلامية في جامعة عبدالعزيز بمكّة المكرّمة، تفسيره هذا مستمدّ من تفسير الطبري، الكشاف، القرطبي، الآلوسي، ابن‌كثير، البحر المحيط، وغيرها، ٢: ٥٢٠، ط دار القلم، بيروت.

وصاحب تفسير فتح الرحمن تناول هذه الآية موضّحاً، فقال:

«لكأنّه قسم من ربّنا تبارك وتعالى وتحقيق أنّ خاتم النبيّين يؤتسى به في فعله ويقتدى به في خُلقه وقوله، فهو نعم الهادي لكم يا من آمنتم وجاهدتم، وأكرم قدوة لمن يؤمّل في رضوان اللّه، والفوز يوم يلقاه، ولمن ذكر اللّه تعالى كثيراً، فإنّ كثرة الذكر تعقب ملازمة الطاعة، وبها يتحقّق الائتساء بالبشير النذير ـ صلّى اللّه عليه تعالى وسلم ـ».[١]

فلاحظ أيّها القارئ اللبيب، قول الأستاذ الصابوني: «فهو المثل الأعلى الذي يجب أن يقتدى به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله...».

وقول الأستاذ تعيلب: «وتحقيق أن خاتم النبيّين يؤتسى به في فعله ويقتدى في خُلقه وقوله، فهو نعم الهادي لكم».

وأنا لا يمكنني سرد جميع آراء المفسّرين بخصوص هذه الآيات والآيات المتعلّقة بعصمة النبيّ في علاقته مع الناس هنا، وقد تجاوز عدد كتب التفسير المئات، وحسب المتتبع ما أوردناه، فمن أراد مزيد الاطّلاع فليراجع التفاسير الشيعيّة أو السنّية، فانّه سيستنتج وجوب طاعة الناس للنبي وجوباً مطلقاً. فهنا تظهر عصمة النبيّ أو الرسول في هذه المرحلة، حيث لا يمكن أن يصدر منه ظلم وخطأ، بأيّ صورة من خلال أفعاله وأقواله وتقاريره، وكلّ ذلك يرجع إلى إرادة المولى تعالى القاهرة بإيصال شريعته كاملة من غير زيادة أو نقصان إلى البشر.

---

١. فتح الرحمن في تفسير القرآن، عبدالمنعم تعيلب، اُستاذ التفسير بجامعة عبدالعزيز بجدة سابقاً، ٥: ٢٧٩٠، ط دار السلام، القاهرة.

ب ـ علاقته مع اللّه

ونقصد بها أداء أوامر الباري عزّ وجلّ، والتوقّف عند نواهيه على المستوى الفردي، وكذلك الأمور والتصرّفات الشخصيّة التي لا يتعلّق بها نفع أو ضرر على أحد من أصناف الناس في حال أدائها أو عدمها، سواء كانت وجوبية أم إباحية.

في هذه المرحلة لم يرد نصّ قرآني، أو دليل عقلي أو سنّة، على وجود العصمة فيها، بل دلّت الآيات القرآنية، والأخبار والروايات وكذلك السنّة، على صدور الظلم منهم بحقّ أنفسهم. ونحن وإن قلنا - تنزّلاً - إنّه على سبيل ترك الندب أو الإرشاد فهو أحد مصاديق الاستخفاف بحكم اللّه والدين كما بيّناه فيما سلف، وهو أحد مصاديق العمل بغير طاعة اللّه وإن لطف ودقّ هذا العمل، والعمل بغير طاعته عزّ وجلّ هو مصداق للظلم في معناه الواسع، أي وضع الشيء في غير محلّه.

ولهذا نجد وقوع الوسوسة لآدم عليه السلام وصدور معصية منه بشهادة ربّ العالمين، وكذلك نجد وقوع عمل لم يحبّذه اللّه تعالى من يونس عليه السلام ويحذّر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله من سلوك الطريق ذاته، وأيضاً نجد موسى عليه السلام يقتل كافراً مستحقّاً للقتل ثمّ يندم على ما جنت يداه، و... الخ.

وهنا يتبلور سؤال، وهو كيف يمكن لنبيّ العمل بغير طاعة ربّه ويعصيه، وقد أمرنا اللّه سبحانه بالاقتداء بهم؟! أليس ذلك إشارة خضراء لارتكاب المعاصي وإتيان الفواحش لبني آدم عليه السلام؟!

أوّلاً: قلنا فيما سبق أنّ المولى تعالى لم يأمر بالاقتداء لمرتكب

المعصية.

ثانياً: يجب أن نعلم بأنّ اللّه سبحانه وتعالى قد ذكر في محكم كتابه الكريم آيات تشير إلى غفران بعض الذنوب، وأوجب قبول التوبة على نفسه تعالى بمقتضى وعده للذي لم يتساهل ويتسامح في أمر التوبة، ولم يصرّ على ذنبه، منها:

﴿إنّما التوبة على اللّه للذين يعملون السوء بجهالة ثمّ يتوبون من قريب فأولئك يتوب اللّه عليهم وكان اللّه عليماً حكيماً﴾.(١)

وكذلك قوله تعالى:

﴿أنّه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثمّ تاب من بعده وأصلح فأنّه غفور رحيم﴾.(٢)

وأيضاً قوله سبحانه:

﴿الذين يجتنبون كبائر الأثم والفواحش إلاّ اللمم إنّ ربّك واسع المغفرة﴾.(٣)

ثالثاً: قد بيّن لنا الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام هذا الظلم، وهذه الذنوب التي وعد اللّه سبحانه وتعالى عباده بغفرانها، وقبول التوبة من مرتكبها، منها ما ورد عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله:

«الدواوين عند اللّه ثلاثة: ديوان لا يعبأ اللّه به شيئاً، وديوان لا يترك اللّه منه شيئاً، وديوان لا يغفره اللّه. فأمّا الديوان الذي لا يغفره اللّه فالشرك، قال

١. النساء: ١٧.
٢. الأنعام: ٥٤.
٣. النجم: ٣٢.

تعالى: ﴿إنّه من يشرك بالله فقد حرّم عليه الجنّة﴾. وأمّا الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربّه، من صوم تركه، أو صلاة تركها، فإنّ الله يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء الله. وأمّا الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً، القصاص لا محالة».(١)

وما ورد عن أبي جعفر (عليه السلام)، إذ قال:

«الظلم ثلاثة: ظلم يغفره الله، وظلم لا يغفره الله، وظلم لا يدعه الله، فأمّا الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك، وأمّا الظلم الذي يغفره فظلم الرجل نفسه فيما بينه وبين الله، وأمّا الظلم الذي لا يدعه فالمداينة بين العباد».(٢)

ومنها ما ورد عن سيّد الوصيّين أمير المؤمنين (عليه السلام)، حيث قال:

«ألا وإنّ الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفر، وظلم لا يترك، وظلم مغفور لا يطلب. فأمّا الظلم الذي لا يغفر فالشرك بالله، قال تعالى: ﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به﴾ وأمّا الظلم الذي يغفر فظلم العبد نفسه عند بعض الهنات، وأمّا الظلم الذي لا يترك فظلم العباد بعضهم بعضاً...».(٣)

فالعالم البصير، يعلم من خلال هذه الآيات والأحاديث، أنّ الظلم والذنب الذي يقع بين العبد وربّه في بعض الهنات موعود بالغفران، ولا يخفى أنّ ذلك ليس بمعنى تأشيرة لارتكاب المعاصي والذنوب الواقعة

---

١. ميزان الحكمة، الريّ شهري، أنواع الظلم، نقلاً عن نهاية البداية والنهاية ٢: ٥٦.

٢. الكافي ٢: ٣١٨، باب الظلم، ط: دار التعارف، بيروت؛ وبحار الأنوار ٧٥: ١٥/٣١١ باب الظلم نقلاً عن أمالي الصدوق؛ وكنز العمّال ٣: ٧٥٨٨/٤٩٨، و ٤: ١٠٣١١/٢٣٣، و ٤: ١٠٣٢٦/٢٣٦، بألفاظ مقاربة.

٣. نهج البلاغة، أواخر خطبة ١٧٦.

في هذا التخصيص بأنّها تغفر، حيث إنّ اللّه تبارك وتعالى شرط تحقق التوبة لمن ارتكبها جهلاً، أو هفوة من الهفوات، وساعة من ساعات الشيطان، وندم على عمله على أن لا يرتكبها مرّة أخرى، فمن يعاود المرّة والمرّتين يتغيّر المصداق، ويصبح مستخفّاً باللّه تعالى جلّ ذكره، وبدينه. وقد حذّر أئمّتنا من انجراف الإنسان خلف هذه الذنوب. منها ما ورد عن أبي عبداللّه الصادق عليه السلام، إذ قال:

«**لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار**».[١]

فيدلّ على أنّ الاصرار على الصغيرة من نوع واحد أو عدّة أنواع، والانغماس فيهنّ، يجعلهنّ من الكبائر التي لا تغفر، وقد أوعد عليهنّ المولى بالعقاب. وأيضاً من استمرّ في ارتكاب الذنوب ما بينه وبين ربّه فهو يدلّ على أنّه قد أمن مكر اللّه ﴿**فلا يأمن مكر اللّه إلاّ القوم الخاسرون**﴾.[٢]

وربّ سائل يقول:

عرفنا أنّ الذنب الصادر من العبد فيما بين العبد وربّه مغفور بإذنه تعالى، وأنّ النبيّ قد يصدر منه في بعض الأحايين، وبندرة، بعض مصاديق هذا الذنب، فما هذا البكاء والنحيب واختناق عبرته على أثر غزير دمعته ليلاً أو نهاراً ما تكاد تتفطّر منه الجبال إشفاقاً عليه، وكأنّه أكبر وأعظم الجناة والعاصين على وجه الأرض، وقد علم غفران ذنبه

١. الكافي ٢: ١/٢٧٩، باب الاصرار على الذنب، ط: دار التعارف، بيروت.
٢. الأعراف: ٩٩.

لإحرازه شروط الغفران منه تبارك وتعالى؟!

علينا أن نعلم أنّ مقاييس وموازين ونظرة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام تختلف تماماً عن مقاييسنا وموازيننا، أي نحن لا ننظر إلى المعصية والذنب كما هم ينظرون.

فنحن ننظر إلى نوع الذنب من حيث صغره وكبره، وهم عليهم السلام ينظرون مَنْ عصوا، فيصبح ذنبهم الصغير في منظارنا، ما لا تطيقه السماوات والأرضون في حساباتهم، لما فيها من هتك حرمة المولى سبحانه والتجرّؤ عليه، وهذا ما كشف عنه الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام، حيث يقول:

«الذنوب كلّها شديدة».[١]

وقول سيّد البشر وخير الأنام محمّد صلى الله عليه وآله:

«لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى مَنْ عصيت».[٢]

وأمير المؤمنين عليّ عليه السلام بيّن لنا أنّ تسمية الذنب بصغير أو كبير هو من اصطلاحات البشر، فقال:

«ربّ كبير من ذنبك تستصغره».[٣]

وأنت تلاحظ أيّها المتتبع الكريم أنّ الأنبياء بعد ما حصلوا على غفران من اللّه تعالى على ما صدر منهم، بقوا سنين أو مدّة طويلة وهم يبكون وقلوبهم تعتصر ندماً متأسّفين على ما صدر منهم.

---

١. الكافي ٢: ٧/٢٦٤، ط: دار التعارف، بيروت.

٢. مستدرك وسائل الشيعة ١١: ١٣١٧٥/٣٢٩، نقلاً عن أمالي الشيخ الطوسي، و١١: ١٣٢٣١/٣٥١، نقلاً عن القطب الراوندي في دعواته بلفظ مقارب.

٣. غرر الحكم ٣٥٧٣/١٧٨، ط: مكتب الإعلام الإسلامي للحوزة العلمية بقم المقدّسة.

فهل نحن نتمتّع بمثل هذه الخصلة عندما نذكر ذنوبنا السابقة، ونكون في حال كحالهم واللّه قد أمرنا بالاقتداء بهم؟!

ثمّ إنّهم عليهم السلام مختلفون في الدرجات، كما قيل: حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين[١] أي أنّ البرّ لا يشعر بأنّ العمل الذي قام به هو ذنب من الذنوب، بل يعتبره حسنة يتقرّب بها إلى اللّه عزّ وجل، ولكن المقرّب بما أنّ علمه أوسع وبصره أنفذ لا يلج في هذا العمل.

فكلمتا «بَرّ» و«مقرّب» لا يقصد منهما المراتب الدينية والمعنوية العليا، بل تدلّ على أنّ البرّ يقصد بعمله الخدمة وهو قد وقع في الحرام، والمقرّب هو من كان أقرب من البَرّ إلى الصواب وطاعة اللّه.

ويقع مصداق هذا الحديث مرّة بين شخصين عاديّين، وأخرى بين نبيّين، ومرّة أخرى يقع بين شخص ونبيّ.

ومن المؤسف أن نجد الكثير من المسلمين قد فهموا النصّ المذكور خطأً، وتصوّروا أنّ عمل البَرّ وإن كان صحيحاً يعتبر سيّئة للمقرَّب من الناحية الكمّية، وغفلوا أنّ اللّه لا ينظر إلى حجم وسعة العمل بقدر ما ينظر إلى إخلاصه له تعالى.

وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى هذا المعنى في تفسير قوله تعالى: **﴿ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً﴾**[٢] فقال:

«ليس أكثركم عملاً، ولكن أصوبكم عملاً، وانّما الإصابة خشية اللّه والنيّة

---

١. أورده صاحب بحار الأنوار ٢٥: ١٦/٢٠٤؛ وصاحب كشف الغمّة ٢: ٢٤٥ بدون سند، ويقوى عندي أنّه قول العرفاء.

٢. الملك: ٢.

الصادقة».[١]

وقال الإمام علي عليه السلام:

«**لا يقلّ عمل مع تقوى، وكيف يقلّ ما يُتقبّل**».[٢]

فأحد مصاديق «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين» ما ورد عن عليّ أمير المؤمنين عليه السلام انّه كان يسلّم على النساء، وكان يكره أن يسلّم على الشابّة منهنّ لقوله عليه السلام: «**أتخوّف أن يعجبني صوتها فيدخل من الإثم عليَّ أكثر ممّا طلبت من الأجر**».[٣]

فلولا إشارته عليه السلام لهذه المسألة لوقع كثير من المؤمنين والعلماء والزهّاد في هذا الإثم من حيث لا يشعرون، ويحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، وقربة من القربات إلى اللّه تعالى بإبداءه وإفشاءه السلام مع هذه الفتاة أو تلك الشابّة.

وقد يكون العبد قد استحوذ عليه العجب في صلاة أو تلاوة قرآن أو أيّ عمل مباح، وهو يظنّ أنّ ذلك حلاوة الإخلاص، وهذا من دقيق شأن الشهوة الخفيّة، وقد يلتبس على الضعفاء، ولا يفطن له العلماء والزهّاد.

ونجد أُناساً يحرّضون الآخرين على ارتكاب ما هو خلاف الشرع وهم يتصوّرون ذلك من صميم الدين، أو انّهم قد هضموا مسائله جملة وتفصيلاً، منها ما نقله أبو حامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين، فقال:

---

١. الكافي ٢: ٤/١٦؛ بحار الأنوار ٥٧: ١/١١.

٢. غرر الحكم، ٢٩٤١/١٥٦، ط: مكتب الإعلام الإسلامي للحوزة العلمية بقم المقدّسة.

٣. الكافي ٥: ٣/٥٣٥؛ الفقيه ٣: ١٤٣٦/٣٠٠؛ الوسائل ٢٠: ٣/٢٣٤، أبواب مقدّمات النكاح، الباب ١٣١.

«وجاء رجل [للنبي ﷺ]* فسأله، فقال: **ما عندي شيء ولكن ابتع عليّ، فإذا جاءنا شيء قضيناه**، فقال عمر: يا رسول اللّه ما كلّفك اللّه ما لا تقدر عليه**، فكَرِه النبي ﷺ ذلك، فقال الرجل: أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً، فتبسّم النبي ﷺ وعرف السرور في وجهه».(١)

وذكر صاحب كنز العمّال هذا الحديث في المجلد السادس، الحديث ١٦٩٩٠، وورد فيه قول رسول ﷺ: «**بذلك أُمرت**» جواباً لقول الرجل له ﷺ: أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً.

ومفاد الحديث أن رسول اللّه ﷺ كره أو غضب من قول عمر، ولسان حاله ﷺ يقول: يا عمر، أتعلّمني أحكام الشريعة التي نزلت عليَّ، وأنا صاحب الوحي؟!

فأنا مكلّف ومأمور أن لا أردّ سائلاً.

هذا أولاً. وثانياً، أنا في سعة من أن يبتاع الرجل شيئاً وأقضي عنه، فأنت يا عمر تأمرني بردّ السائل، وعدم العمل بالاستطاعة!

مثال آخر:

قرأت يوماً مقالاً قد نشر في صحيفة (جمهوري اسلامي) الإيرانية يشير فيه صاحب المقال إلى عدم هدر الطّاقة والوقود، وقال ما مضمونه:

عندما نريد سدّ حنفيّة الماء يجب علينا سدّ حنفية الماء الحارّ أوّلاً لما فيه من هدر الطّاقة، أو الوقود الذي استعمل في تسخين ذلك الماء.

---

*. ما بين [ ] زيادة للتوضيح.

**. إشارة من عمر إلى قوله تعالى: ﴿لا يكلف اللّه نفساً إلاّ وسعها﴾.

١. إحياء علوم الدين، أبي حامد الغزالي، ٧: ١٤٢، بيان سخاوته وجوده ﷺ.

نحن نجد صاحب هذا المقال قد غفل عن أنّ بقاء حنفية الماء البارد مفتوحة حتى إغلاق الماء الحار هو إسراف وهدر للماء أيضاً وحرام، ويمكن تلافي هذا الإسراف بسدّ حنفيته بيده الأخرى في زمان واحد أثناء سدّ حنفية الماء الحارّ.

وقد مرّ أيضاً في الصفحات السابقة مصداق هذا الحديث الشريف في إسراف الماء في الوضوء، وتبذير نوى التمر، وستعلم مصداقه في الصفحات اللاحقة

وعبارة «حسنات الأبرار...» ينطبق مصداقها على الأنبياء والأولياء أيضاً*، فنلاحظ فيهم تفاضل درجاتهم، فمنهم من يصل إلى مرحلة الإمامة بعد خروجه من الامتحانات الإلهية موفّقاً بعد سنوات مديدة، ومنهم من لم ينل هذه المنزلة السامية، ومنهم من تصدّى لأمر الرسالة، ومنهم من بقي نبيّاً فقط، ولم يصبح رسولاً، ومنهم ما قد حذّر اللّه تبارك وتعالى النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله من اتّباع هفوته، ومنهم من قتل قبطيّاً ثمّ يقول: ظلمت نفسي، وأمير المؤمنين عليه السلام يقتل كافراً ويقول: لم أقتله حظاً لنفسي، بل قتلته في اللّه.

فلاحظ قول موسى عليه السلام: ﴿**ظلمت نفسي**﴾.[١] وقول عليّ عليه السلام: «**لم أقتله حظاً لنفسي**».**

---

*. لاحظ بحث التجلّي في كتابنا «الاسم الأعظم».

١. القصص: ١٦.

**. سنتاول هذا الموضوع في مسألة موسى عليه السلام.

خلاصة البحث:

تبيّن لنا أنّ الأنبياء قد صدر منهم ذنب أو ظلم، ما يكون بينهم وبين اللّه عزّ وجلّ، وقد ذكر اللّه تعالى بعض مصاديق هذا الذنب في محكم كتابه الكريم، ليتّضح للناس أن لا كمال إلاّ كماله سبحانه وتعالى، والناس أجمع هم العبيد والفقراء إليه تعالى، كما أجاب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام على سؤال سأله زنديق بقوله:

«وأمّا هفوات الأنبياء، وما بيّنه اللّه في كتابه... ذكرها دلالة على تخلّفهم عن الكمال الذي تفرّد به عزّ وجل».[1]

وفي الصفحات القادمة سنتناول أهمّ الآيات الواردة في الأنبياء، التي تتعلّق بموضوعنا هذا، ذاكرين أهمّ آراء العلماء والمفسّرين حولها فنناقشها، ثمّ نذكر تحقيق الموضوع بإذنه تعالى.



١. بحار الانوار ٨٩: ٤٣؛ و٩٠: ١١٢، نقلاً عن كتاب الاحتجاج.

آدم عليه السلام

آيات متعلّقة بالبحث:

﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسيَ ولم نجد له عزماً* وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس أبى* فقلنا يا آدم إنّ هذا عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجنّكما من الجنّة فتشقى* إنّ لك ألاّ تجوع فيها ولا تعرى* وأنّك لا تظمأُ فيها ولا تضحى* فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد ومُلك لا يبلى* فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة وعصى آدم ربّه فغوى* ثمّ اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى﴾.[1]

* * *

التبريرات والتفسيرات التي وضعها المفسّرون والعلماء لأبي البشر آدم عليه السلام فيما يخصّ معصيته، انحصرت في الوجوه الآتية:

١ ـ ترك الأمر الندبي أو الإرشادي.

٢ ـ كان في نشأة غير تشريعية، أي في الجنّة لا في الأرض، فلا نهي

---

١. طه: ١١٥ ـ ١٢٢.

ولا تحريم مولوي.

٣ ـ معصية قبل النبوّة.[١]

أمّا الأوّل فقد أجبنا عليه في أوائل الكتاب، بأنّ من كان معصوماً ـ كما شرطوا ـ فلا يمكن أن يصدر منه حتى ترك المندوب، أي أنّ الإقدام عليه يدلّ على الاستخفاف بحكم اللّه والدين، وقلنا إنّ ترك الأمر الإرشادي أو الندبي هو أحد مصاديق العمل بغير طاعة اللّه، وهو بدوره يدلّ على مصاديق الظلم، كما ورد في أحاديث كثيرة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام تشير إلى ذلك، وقلنا العمل بالتروك لا يخلو من أحد الوجوه التي ذكرناها سلفاً، وهي:

١ ـ النسيان، ٢ ـ الغفلة، ٣ ـ اطّلاعه على الموضوع والإقدام عليه(عمداً)، ٤ ـ عدم اطّلاعه على الموضوع والاقدام عليه(عبثاً).
وكذلك قلنا: من لم يعرف ولا يستطيع أن يشخص خير وصلاح نفسه، فلا يمكنه تشخيص الخير والصلاح للآخرين.

فكلّ ذلك يشير إلى عدم العصمة التي أرادتها هذه الطائفة من العلماء.

وأمّا التبرير الثاني، فهو تبرير غير مجدٍ لمعصية أبو البشر عليه السلام؛ لأنّ العصمة تكون زمانية لا مكانية، أي أنّ العصمة يجب أن تكون على امتداد حياة المعصوم، لا أن تشرق في مكان وتغرب في آخر، وإلاّ

---

١. الآراء نقلت عن تنزيه الأنبياء، الشريف المرتضى؛ عصمة الأنبياء، فخرالدين الرازي؛ الميزان، العلاّمة الطباطبائي ١٤: ٢٢١ ـ ٢٢٢؛ التبيان، الشيخ الطوسي ٧: ٢١٨؛ مجمع البيان، الطبرسي ٧: ٦٣؛ من وحي القرآن، العلاّمة فضل اللّه ١: ٢٥١؛ الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي ١: ١٤٦، و١٠: ٨٥؛ الفرقان في تفسير القرآن، محمّد الصادقي ١٦ و١٧: ٢١٢.

لأجزنا صدور الذنب ممّن كان خارج حدود الكرة الأرضية، كقاطن السفن والمحطّات الفضائية.

وأستغرب من أصحاب هذا التبرير الواهي تصوّرهم أنّ التشريع الإلهي قد وضع لبنيّ آدم في الأرض فقط، واللّه سبحانه قد خلق قبلنا آلاف النشآت! ولا يعلم عددها إلاّ هو الكبير المتعال. وما كرتنا الأرضية، بل مجموعتنا الشمسية إلاّ ذرّة في هذ الكون الرحيب الذي لا يتناهى، وما زالت مراصدنا الحديثة تكشف لنا كلّ يوم عن وجود كتل ومجاميع شمسية تبعد عن كوكبنا ملايين السنين الضوئية.

هذا كلّه يدلّ على أنّ التشريع لم يتعلّق بالكوكب الأرضي فحسب، بل يتعلّق بما كان وبما سيكون، ومن جملتها الجنّة التي سكنها أبونا آدم وزوجه عليهما السلام. وحتى الملائكة لم يستثنوا من تشريع وقانون، فكلّ طائفة منهم لها دساتير خاصة بها، فلا تزيغ عنها ويفعلون ما يؤمرون. ونلاحظ هذا في عدّة آيات من الذكر الحكيم، ومن سجودهم لآدم عندما أمرهم اللّه تعالى ـ والشيطان معهم ـ بذلك.

فَلِمَ يكون أمره عزّ وجلّ للشيطان آنذاك تشريعاً، ويصبح رجيماً لعدم امتثاله للأمر، ويكون أمره تعالى للنبيّ آدم عليه السلام أمراً ونهياً غير تشريعي!

فإذن، لا يمكن تخصيص التشريع، واشتراط العصمة على كوكب الأرض فقط بدون دليل وشاهد على ذلك، وربما يأتي آخر ويخصّصها في بقعة دون أخرى، فعندها تكون الكارثة الكبرى!

وأمّا التبرير الثالث، فكذلك هو ضعيف؛ لأنّ مؤيّدوا نظرية العصمة يوجبون تحقّقها قبل النبوّة، ففاقد العصمة قبلها، لا يُكلّف بالنبوّة.

تحقيق الموضوع:

تناول وأكل نبيّنا آدم عليه السلام من الشجرة المنهيّ عنها، هو معصية مولوية، وذنب بكلّ خصائصه، ولا يمكننا التلاعب، وتأويل آيات اللّه الكبرى إلى ما ليس هي عليه من أجل آدم عليه السلام، حتى قيل:

«فهو عليه السلام ظالم لنفسه على كلّ تقدير».[١]

ولكنّها معصية كانت بينه وبين خالقه، لم تترتّب منها آثار سوء على الآخرين، وكان نهي ربّ العالمين عن أكل الشجرة مقروناً ببقائهم في الجنّة، فعندما خالفا أمره تعالى، أُمرا بالهبوط نتيجة المخالفة، وتفعّل انعكاسات المعصة، واحدة بواحدة وانتهى كلّ شيء.

وما كان بكاء آدم وحواء عليهما السلام بعد خروجهما من الجنّة بكاءً عليها، وشوقاً للعودة إليها، وما كان دعاؤهما لربّ العالمين بغفران ذنبهما من أجل الاستقرار فيها مرّة أخرى، بل من جهة الندم على ما صدر منهما من عصيان أمر مولاهم العزيز.

وقد وقع المفسّرون في إفراط وتفريط عند تفسيرهم للآية الكريمة: ﴿**وعصى آدم ربّه فغوى**﴾[٢]، فمنهم من جوّز المعاصي بكافّة أصعدتها على الأنبياء، ومنهم من هوّنها، كترك المندوب أو المستحبّ، ومن

١. تفسير الميزان ١: ١٣٤، ط: جامعة المدرّسين، قم.

٢. طّه: ١٢١، والغواية: هو ما قابل الرشد، والانهماك في الجهل، والضلال والفساد، وكذلك يراد الاهتداء إلى الشرّ والفساد، وأيضاً بمعنى الميل والانحراف. للوقوف أكثر على هذه الكلمة راجع معاجم اللغة، منها: التحقيق في كلمات القرآن الكريم لحسن المصطفوي.

الممكن عود النبيّ إلى تكرارها، ولا ضير، لأنّه أمر ندبي أو استحبابي!

ولو سأل المفسّرون والعلماء أنفسهم، كيف أطلق اللّه سبحانه وتعالى هذا التعبير على النبيّ آدمؑ ولم يطلقه على عامّة المؤمنين أو المسلمين الذين يجترحون بعض الذنوب ويكتسبون بعض الآثام، صغيرها أو كبيرها، لوصلوا إلى معنى الآية، وهو أنّ الغواية هنا بمعنى الخروج الكامل والانحراف التامّ عن الأمر الإلهي، وأنّ المؤمنين والمسلمين لا تنطبق عليهم هذه الآية إن لم يميلوا كلّ الميل عن جادة الحقّ، ولم ينحرفوا ويخرجوا بصورة كاملة عن أوامر اللّه تعالى إن كانوا يأتون ببعض شعائره سبحانه، بيد أنّ آدمؑ كان له أمر واحد فقط فلم يعمل به، فمال وخرج وانحرف عنه، فانطبق عليه مصداق الغواية.

من هم المخلصون ومن هم الغاوون؟

أقسم الشيطان بعزّة اللّه على أن يغوي الناس كلّهم إلاّ طائفة منهم وسمّاهم المخلَصين، وأجابه ربّ العزّة أن يملأ به ومن تبعه من الغاوين جهنّم، كما ورد في القرآن الكريم هذا الحوار في موطنين، الأوّل، قوله تعالى:

﴿ولأُغوينّهم أجمعين * إلاّ عبادك منهم المخلصين... إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلاّ من اتّبعك من الغاوين﴾.[1]

والآخر، قوله تعالى:

١. الحجر: ٣٩ ـ ٤٢.

﴿لأُغوينّهم أجمعين * إلاّ عبادك منهم المخلصين * قال فالحقّ والحقّ أقول * لأملأنّ جهنّم منك وممّن تبعك منهم أجمعين﴾.[١]

ولكنّنا نرى عصاة ممّن وسوس لهم أو مسّهم الشيطان، ممّن ارتكب بعض الذنوب، قد غفر اللّه تعالى له يوم القيامة، أو ممّن نال شفاعة الأولياء عليهم السلام دون بقيّة العصاة ممّن كتب اللّه عليهم جهنّم.

فكيف يمكن ذلك، واللّه تعالى لم يستثن أحداً، ولم يعيّن نوع ومقدار الغواية لمن قدم عليه يوم القيامة وقد تبع الشيطان، أو غوى، أن يسلك به طريق جهنّم، بقوله: ﴿أجمعين﴾؟ فهل الخلائق جميعاً وخصوصاً المسلمين والمؤمنين بعد أدائهم الواجبات وتورّعهم عن المحرمات يدخلون جهنّم لأنّهم عصوا ويعصون مولاهم العزيز بين فترة وأخرى!

فمن هنا يتبيّن أن ليس كلّ من قدم عليه تعالى يوم الحساب وعليه تبعات بسبب وساوس الشيطان هو من الغاوين، بل الغاوون كما حقّقنا هم من انسلخوا عن أوامر اللّه ونواهيه بصورة كاملة، وكما ورد في قوله تعالى وهو يشرح حال أحد الغاوين، فقال:

﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾.[٢]

فكلّ من صدق عليه صفة التبعيّة للشيطان، والوقوع تحت سلطانه، والغواية، هو من الذين لا يقبل اللّه سبحانه منهم أيّ عمل، ومأواه جهنّم

---

١. ص: ٨٢ـ٨٥.
٢. الأعراف: ١٧٥.

وبئس المصير، ومن صدر منه معصية على سبيل المسّ والنزغ والوسوسة فهو من المحتمل أن يكون من عباد اللّه المخلصين.

وقد زخرت أحاديث أهل بيت العصمة عليهم السلام وهي تبيّن لنا صفات الغاوين والمخلصين، وسبب إطلاق كلمة الغواية على النبيّ آدم عليه السلام.

أمّا أبو البشر، فهو عليه السلام أراد أن يتناول علم ودرجة وفضل محمّد وآله صلوات اللّه عليهم أجمعين، الذين آثرهم اللّه عزّ وجل بها دون سائر خلقه.[1] وأمّا المخلصون فهم شيعتهم عليهم السلام كما حفلت به الكثير من رواياتهم مشيرة إلى هذا المعنى، منها:

«عن أبي عبداللّه عليه السلام في قوله: ﴿**إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾، قال: **ليس على هذه العصابة*** **خاصّة سلطان**، قال: قلت: وكيف ـ جعلت فداك ـ وفيهم ما فيهم**؟ قال: **ليس حيث تذهب، إنّما قول ﴿ليس لك عليهم سلطان﴾ أن يحبّب لهم الكفر ويبغّض لهم الإيمان**».[2]

وعن أبي بصير قال: سمعت جعفر بن محمّد عليه السلام وهو يقول:

«**نحن أهل بيت الرحمة، وبيت النعمة، وبيت البركة، ونحن في الأرض بنيان، وشيعتنا عُرى الإسلام، وما كانت دعوة إبراهيم عليه السلام إلاّ لنا ولشيعتنا، ولقد استثنى اللّه إلى يوم القيامة على إبليس، فقال: ﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم**

١. للمزيد راجع تفسير البرهان للبحراني ١: ١٧٨ ـ ١٧٩، الآية ٣٥ من سورة البقرة، وتفسير الأصفى للكاشاني.

*. هذه العصابة: شيعة أهل البيت (عليهم السلام).

**. فيهم ما فيهم: فيهم من المذنبين والعصاة.

٢. تفسير البرهان ٤: ٣٩٣، ط: مؤسسة الأعلمي، بيروت، نقلاً عن معاني الأخبار: ١٥٨، وكذلك أورده العيّاشي بسند آخر في تفسيره ٢: ١٧/٢٦٢.

سلطان﴾».[١]

وفي حديث آخر، في تفسير هذه الآية، قال أبو عبدالله عليه السلام:

«والله ما أراد بهذا إلا الأئمة وشيعتهم».[٢]

وروى هذا الحديث ابن بابويه في فضائل الشيعة.

ووصف الإمام زين العابدين شيعة أهل البيت عليهم السلام في آخر الزمان المنتظرين لظهور صاحب العصر(عج) بأجلّ التعابير وأحسنها، فمن جملة ما قال:

«أولئك المخلصون حقاً وشيعتنا صدقا».[٣]

هذا الوصف والتعبير عظيم جدّاً، وجدير بالشيعي الموالي لأهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله أن يتنزّه عن كلّ ما يؤثمه.

وفي رسالة عن أبي عبدالله عليه السلام جاء فيها:

«فمن لم يحبّ من أمر الله بحبّه فقد عصى الله ورسوله، ومن عصى الله ورسوله على ذلك، مات وهو [من] الغاوين».[٤]

ما أوردناه اختصاراً للكلام، وهناك روايات أُخر في هذا السياق.

❀ ❀ ❀

١. المصدر السابق ٤: ٣٩٤، نقلاً عن تفسير العيّاشي ٢: ١٨/٢٦٣.
٢. الكافي ٨: ٦/٣٤، ط: دار التعارف، بيروت.
٣. بحار الأنوار ٥٢: ٤/١٢٢، نقلاً عن الاحتجاج.
٤. بحار الأنوار ٧٨: ٩٣/٢١٧، نقلاً عن الكافي.

نوح عليه السلام

آيات متعلّقة بالبحث:

﴿وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزلٍ يا بنيّ اركب معنا ولا تكن مع القوم الكافرين* قال سآوي إلى جبلٍ يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر اللّه إلاّ من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين* وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين* ونادى نوح ربّه فقال ربِّ إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدك الحقّ وأنت أحكم الحاكمين* قال يا نوح إنّه ليس من أهلك إنّه عمل غير صالح فلا تسألنِ ما ليس لك به علم إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين* قال ربِّ إنّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلاّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾.[1]

* * *

لقد تناول المفسّرون والعلماء مسألة ابن نوح هل هو ابنه أم ربيبه

---

١. هود: ٤٢ـ٤٧.

أم... الخ؟ ثمّ بادروا بالإجابة على هذه الأسئلة كلٌّ حسب منهله، وأكثرهم قد نقل آراء الآخرين وأحاديث في هذه المسألة.

والمهمّ في القصّة التي نريد البحث عنها هو دعاؤه عليه السلام لنجاة ابنه من الغرق، هل كان على وجه الصحّة أم كان ذنباً لم يلتفت إليه المفسّرون؟

وقد تصفّحت أُمهات التفاسير، فوجدت معظمها تفسّر وتؤوّل قائلة:

إنّ دعاء وسؤال نوح عليه السلام لنجاة ابنه من ربّ العالمين كانت مسألة طبيعية لا يشوبها إشكال، وكذلك قوله تعالى: ﴿**فلا تسألنِ ما ليس لك به علم**﴾، وأيضاً قوله تعالى: ﴿**إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين**﴾ بأنّها على سبيل الوعظ والإرشاد، وبأنّ نوحاً عليه السلام نهي عن ذلك ولم يقع منه[1]، إلاّ تفسيري الأمثل لآيةالله مكارم الشيرازي وتفسير راهنما لآيةالله الرفسنجاني فإنّهما قالا بصدور زلل وخطأ من النبيّ نوح عليه السلام.[2]

تحقيق الموضوع:

من تابع قصّة نوح عليه السلام وما دار من أحداث بينه وبين قومه، يعلم أنّ ابنه لا يخلو من أحد وجهين:

---

١. على سبيل المثال راجع: تنزيه الأنبياء للسيّد المرتضى؛ وعصمة الأنبياء للفخر الرازي؛ والميزان للعلاّمة الطباطبائي؛ تفسير من وحي القرآن للعلاّمة محمّد حسين فضل الله؛ التبيان في تفسير القرآن للشيخ الطوسي؛ مجمع البيان للطبرسي؛ فتح الرحمن في تفسير القرآن للدكتور أحمد تعيلب؛ صفوة التفاسير لمحمّد علي الصابوني (مستمد من تفسير الطبري، والكشاف، والقرطبي، والآلوسي، وابن كثير، والبحر المحيط، وغيرها)؛ المقتطف من عيون التفاسير لمصطفى خيري المنصوري؛ تفسير النور للشيخ محسن قراءتي.

٢. الأمثل، الشيرازي ٦: ٥١٢ـ٥١٣؛ راهنما، الهاشمي الرفسنجاني ٨: ١٨٨ وما بعدها.

الأوّل: أن يكون من الذين آمنوا والموعودين بالنجاة، والثاني أن يكون من الذين كفروا أو المنافقين الذين تحقّق مصداق الظالم عليهم، الذين كتب اللّه عليهم الغرق، كما طلب نوح عليه السلام من اللّه تعالى أن يهلكهم.

وفي كلا الوجهين لا ينبغي لنوح عليه السلام أن يسأل ربّه في استكشاف الحقيقة أو نجاة ابنه، ففي الصورة الأولى فإنّ اللّه هو الكفيل والواعد بالنجاة، وفي الصورة الثانية لا يستحقّ الكافر دعاءً بالنجاة وقد تمّ قضاء اللّه ووعده بإهلاكهم جميعاً حيث لم يبق أحداً منهم على وجه الأرض.

علماً أنّ اللّه تعالى لم يواعده على نجاة كلّ أهله، بل سبحانه قد استثنى منهم من حقّ عليه القول بالهلاك. ثمّ حذّره عزّ وجلّ من أن يستفسر عن حال الظالمين، أي الكافرين أو المنافقين الذين سوف يغرقون، وبما أنّ ابنه قد غرق فانّه من الظالمين الذين وجب على نوح عليه السلام أن لا يستفسر عنهم.

فهذه إحدى نقاط الضعف التي أشار إليها المولى تعالى في شخصية نوح عليه السلام لعدم الامتثال لأمر اللّه من خلال قوله عزّ وجلّ:

﴿فأوحينا إليه أنِ اصنع الفُلْك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنّور فاسلك فيها من كلّ زوجين اثنين وأهلك إلاّ من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنّهم مغرقون﴾.[1]

فمن خلال هذه الآية الشريفة والواضحة التي لا يعتريها شكّ، نفهم بأنّ نوحاً عليه السلام قد علم أنّ من أهله مَن سوف يغرق، وأنّه من الظالمين الذين

---

١. المؤمنون: ٢٧.

نهاه المولى سبحانه أن يخاطبه بأيّ شكل من أشكال المخاطبة والنداء فيهم والاستفسار عنهم.

فيتّضح أنّ كلام المفسّرين في حمل وتبرير سؤال نوح(عليه السلام) من ربّه على أنّه من باب الاستفسار واستكشاف حقيقة ما آل إليه ابنه، على أنّه كان منافقاً، غير صحيح، وهو خلاف لما أمره اللّه تعالى، وكذلك لا يجوز لأحد من البشر أو من مخلوقاته أن يسأل ربّه أو يناقشه عن أفعاله تعالى؛ لأنّه مالك كلّ شيء والمالك يفعل في ملكه ما يشاء، ولأنّه حكيم، فأفعاله كلّها جارية على الحكمة، فلا يُسأل عن قضائه في خلقه، وليس لأحد أن يقول: لِمَ فعلت كذا وكذا؟ ولا لشخص أن يقول له تعالى: لِمَ؟ وكيف؟ كما قال اللّه تعالى: ﴿**لا يُسأل عمّا يفعل**﴾.[١]

ويشير إلينا الإمام زين العابدين وسيّد الساجدين(عليه السلام) إلى معنى هذه الآية، على أنّ أحداً ما ينبغي له الاستفسار عن أفعال المولى تعالى وتصرّفاته في هذا الكون، فيقول(عليه السلام):

«**... وإن أهلكتني فمن ذا الذي يعرض لك في عبدك أو يسألك عن أمره وقد علمتُ أنّه ليس في حكمك ظلم ولا في نقمتك عجلة**».[٢]

فيظهر لنا أنّ سؤال نوح(عليه السلام) من ربّه، وإن كان على وجه الاستفسار كما ذهب إليه العلاّمة الطباطبائي[٣]، فهو غير جائز، ولذلك خاطبه المولى سبحانه: ﴿**فلا تسألن ما ليس لك به علم**﴾.

١. الأنبياء: ٢٣.
٢. دعاء الإمام السجّاد (عليه السلام) في يوم الأضحى والجمعة.
٣. الميزان، تفسير الآية ٤٥ من سورة هود.

هذا من جهة، أمّا من جهة أخرى، فإنّ دعاء نوح عليه السلام ربّه لم يكن على وجه الاستفسار أو الاستيضاح، بل كان بصفة طلب من اللّه تعالى، وهذا ما أشار إليه الشيخ الهاشمي الرفسنجاني بقوله:

«بما أنّ المفعول الثاني بعد قوله تعالى ﴿**فلا تسألنِ**﴾ يعني ﴿**ما ليس**﴾ قد ورد بدون «عن» لذا يفهم من سؤال نوح عليه السلام هو الطلب وليس السؤال والاستفسار، ولهذا فإنّ ﴿**فلا تسألنِ**﴾ بمعنى لا تطلب منّي نجاة ابنك».[1]

وأفادنا الشيخ مكارم الشيرازي قائلاً:

«فأحسّ نوح أنّ طلبه هذا من ساحة رحمة اللّه لم يكن صحيحاً، ولا ينبغي أن يتصوّر نجاة ولده ممّا وعد اللّه به في نجاة أهله، لذلك توجّه إلى اللّه معتذراً مستغفراً و﴿**قال ربِّ إنّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلاّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين**﴾».[2]

وأضاف الشيخ أيضاً:

«وبمجرّد أن اطّلع على واقع الأمر، أسف على طلبه فوراً واعتذر إلى اللّه راجياً عفوه».[3]

و«واقع الأمر» ليس واقع ما صار إليه ابنه، بل واقع الأمر من أنّه عليه السلام قد نُهي عن السؤال والاستفسار ومخاطبة ربّ العالمين عن الذين ظلموا.

---

١. والنصّ هكذا:

«چون مفعول دوّم «فلا تسألن» ـ يعني، «ما ليس» ـ بدون حرف «عن» آمده است، مقصود از سؤال، درخواست ومطالبه است نه پرسش و جست وجو. بنابراين «فلا تسألن»؛ يعني، از من مخواه و درخواست نكن ... مصداق مورد نظر براى «ما ليس ...» نجات فرزند نوح مى باشد».

٢. الأمثل ٦: ٥١٢.

٣. المصدر السابق: ٥١٣.

فيظهر لنا أنّ نداء نوحعليه السلام من باب الشكوى منه تعالى وإليه، وهي معصية ما بين العبد وربّه، وقد ورد في الحديث عن النبيّصلى الله عليه وآله حيث قال:

«علامة الصابر في ثلاث... والثالث أن لا يشكو من ربّه عزّ وجلّ... وإذا شكا من ربّه عزّ وجلّ فقد عصاه».(١)



١. بحار الأنوار ٦٨: ٣٥/٨٦، نقلاً عن علل الشرائع ٢: ١٨٤؛ وسائل الشيعة ١٦: ٢٠٨٦٢/٢٣، ط: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.

يوسف عليه السلام

آيات متعلّقة بالبحث:

﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ اللّه إنّه ربّي أحسن مثواي إنّه لا يفلح الظالمون* ولقد همّت به وهمّ بـها لولا أن رءا برهان ربّه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنّـه مـن عـبادنا المخلصين* واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر وألفيا سـيّدها لدى البـاب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلاّ أن يسجن أو عذاب أليم﴾.[1]

﴿قالت فذلكنّ الذي لمتنّني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكوناً من الصاغرين* قال ربّ السجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه وإلاّ تصرف عنّي كيدهنّ أصبُ إليهنّ وأكن من الجاهلين﴾.[2]

* * *

كثيراً ما أحاول معرفة وفهم آية أو آيتين من القرآن الكريم تدور في

---

١. يوسف: ٢٣ ـ ٢٥.

٢. يوسف: ٣٢ ـ ٣٣.

ذهني، فأراجع كتب التفسير فلم أجد لها إيضاحاً يشفي الغليل. وفي بعض الأحيان أجد تفسير بعض الآيات لشدّة تعقيده بحاجة إلى تفسير آخر! لذا أرى النصّ القرآني في بعض الموارد أوضح فهماً وأسهل هضماً ممّا أقرأ في كتب التفسير، فأجدهم يبتعدون أشواطاً عن بيان بعض آي الذكر الحكيم، ويحسبون أنّهم يحسنون الإيضاح.

ومن جملة الآيات التي نحن بصدد إيضاحها للقارئ الكريم قوله تعالى: ﴿**ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رءا برهان ربّه**﴾، لم أجد توضيحاً وتفسيراً مقنعاً، فأغلبهم طعنوا بعبد اللّه المسكين يوسف عليه السلام وهم لا يشعرون، واتّهموه بأنّه (همّ بالفاحشة) كما اتّهمته امرأة العزيز عند سيّدها بقولها: ﴿**ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً**﴾؟ ونسوا قوله تعالى: ﴿**ولمّا بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً**﴾.[1] وقالوا ما معناه: «لو لم ير يوسف برهان ربّه لهمّ بامرأة العزيز بشهوة شبابه، ولمال إليها بمقتضى طبيعته البشرية»، حتى قال العلاّمة السيّد الطباطبائي قدس سره في تفسيره:

«وقوله: ﴿**وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه**﴾ معطوف على دخول لام القسم من الجملة السابقة، والمعنى أُقسم لولا رؤيته برهان ربّه لهمّ بها وكاد أن يجيبها لما تريده منه».[2]

---

١. يوسف: ٢٢.

٢. الميزان ١١: ١٢٩؛ وراجع تفسير الأمثل للشيرازي؛ ومن وحي القرآن للعلاّمة محمّد حسين فضل اللّه؛ تفسير البغوي لأبي محمّد البغوي؛ المقتطف من عيون التفاسير لمصطفى خيري المنصوري؛ صفوة التفاسير لمحمّد علي الصابوني (المستمد من تفاسير: الطبري، والكشاف، والقرطبي، والآلوسي، وابن كثير، والبحر المحيط، وغيرها)؛ تفسير الفرقان لمحمّد صادقي.

وأورد أبو حامد الغزالي:

«وروي أنّ سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً. فدخلت عليه امرأة فسألته نفسه، فامتنع عليها، وخرج هارباً من منزله وتركها فيه، قال سليمان: فرأيت تلك الليلة في المنام يوسف عليه السلام وكأنّي أقول له أنت يوسف؟ قال: نعم، أنا يوسف الذي هممت، وأنت سليمان الذي لم تهمّ»!![1]

فمن قال: لولا البرهان الذي شاهده يوسف لهمّ يوسف بامرأة العزيز كهمّها به، غير صحيح وتفسير ساذج، للأدلّة التالية:

١ ـ حقّقنا في بحثنا حول مراحل العصمة، وبيّنّا أنّ الأنبياء فيما يتعلّق بعلاقاتهم مع الناس يجب أن يكونوا معصومين بعصمة إلهية، والهمّ إن فسّر على ما قيل، فهو أحد مصاديق الذنب كما سيتّضح في بحثنا هذا.

٢ ـ عندما قالت امرأة العزيز: ﴿**هيت لك**﴾ أجابها مسرعاً وبدون تأخير: ﴿**معاذ الله إنّه ربّي أحسن مثواي إنّه لا يفلح الظالمون**﴾، فهو دليل على أنّه بعيد كلّ البعد عن هذا العمل، ولا يخطر على فكره وعقله للحظة واحدة، أو معشار ثانية، هذا الفعل القبيح.

٣ ـ الذي لم يلتفت إليه المفسّرون هو مع صعوبة وشدّة الامتحان الربّاني في الموقف الثاني ليوسف عليه السلام، إذ كان بالأمس يقاوم همّ امرأة واحدة ويعالج كيدها وحدها، أمّا في المشهد الثاني فهو أمام عدّة نساء مُطلقات عنان غريزتهنّ الجنسية، متجاهرات في عشقه، ومتظاهرات

١. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٨: ١٩١، ط: دار الكتاب العربي، بيروت.

لإغوائه، ولا أدري ماذا أدّين من حركات لإثارته واستهوائه في مثل هذه المواقف، مع علمه عليه السلام برضى سيّد المرأة بكلّ ما تفعله زوجته، بل رضى سيّدها من رضاها، وهي صاحبة الأمر والنهي، مع ذلك لم يستجب لهنّ، وكأنّه طين على هيئة بشر لم ينفخ اللّه فيه من روحه، ولم تتحرّك غريزته الجنسية مطلقاً، فلم يعد نحو باب، ولا قفز من شبّاك، ولا فرّ إلى ناحية، ولم ير برهان ربّه، بل قال بكلّ طمأنينة وسكون: ﴿**ربِّ السجن أحبّ إليَّ ممّا يدعونني إليه**﴾، وبقي في مكانه ساكناً إلى ما شاء اللّه.

ومن هذا الدليل سنبيّن فيما بعد لماذا انطلق يوسف عليه السلام نحو أحد الأبواب في المرّة الأولى، في خلوته مع امرأة العزيز.

٤ ـ نحن إن علمنا «**إنّ الأعمال بالنيّات وإنّما لكلّ امرئٍ ما نوى**».(١)

وكذلك: «**أنّ النيّة أفضل من العمل، ألا إنّ النيّة هي العمل**».(٢)

وأيضاً: «**نيّة المعصية معصية، يعني العزم عليها**».(٣)

وما ورد عن العلماء بقولهم:

«إرادة المعصية والعزم عليها معصية بلا خلاف».(٤)

«والعزم على المعصية معصية».(٥)

نفهم من ذلك كلّه، أنّه لولا البرهان المفسَّر والمؤوّل لدى العلماء

---

١. ميزان الحكمة، الري شهري، (النيّة)، نقلاً عن كنز العمّال: ٧٢٧٢؛ وأمالي الطوسي ٦١٨/١٢٧٤.

٢. بحار الأنوار ٧٠: ٢٣٠/٦؛ و٢٥٠/٢٦.

٣. اعتقادات الصدوق، نقلاً عن تقريرات الميرزا الشيرازي ٣: ٢٨٨.

٤. التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي ٦: ١٢٠.

٥. مجمع البيان، الطبرسي، تفسير قوله تعالى «وهمّ بها».

والكتّاب* الذي رآه النبيّ يوسف عليه السلام لهمّ بالمعصية، أي لنواها، وبصورة أخرى بمعنى لفعلها.

فنستنتج من ذلك، أنّ مَن يقع في مثل هذه المشكلة يجب أن يرى برهان ربّه، وإن لم يره فليس بمعصية ولا عقاب ولا حجة للّه عليه، ويقولون: ربّنا ما انزجر نبيّك يوسف عليه السلام عن الحرام حتى دفعته وصرفته بمشاهدة برهانك، فنحن لم نشاهد البرهان!

فهذا التفسير لمعنى البرهان الذي ذكره العلماء غير صحيح، وشطب القلم عليه بالبطلان؛ لأنّه يدلّ على الجبر.

نحن إن علمنا بعصمة النبيّ يوسف عليه السلام أمام هذا العمل القبيح فما دور هذا التسديد كما زعموا؟! فَمَثله كمثل الذي يقول: ضف الماء على الماء ليصبح ماء. فتعالى اللّه عن ذلك علوّاً كبيراً.

وقد حدّثتنا صفحات كتب التأريخ، وما زال إخواننا وأصدقاؤنا ينقلون لنا بين فترة وأخرى، عزوف شخص ما عن هذا العمل الحرام، وقد تهيّأت له كلّ أسباب وأجواء القيام به وارتكاب هذا الفعل من غير إزعاج وتعكير، ومن دون خشية أو خوف من الناس، فتركه خشية من اللّه تعالى، وعلماً بسوء عاقبته بدون رؤية برهان، ولا مشاهدة سلطان، ولا علم مكشوف، ولا يقين مشهود، ولا عصمة ظاهرة، ولا حجّة باهرة.

*. ورد معنى البرهان في كتب التفسير بمعان عدّة منها:
النبوّة، العصمة، الإمداد الربّاني، الحجّة الباهرة على قبح الزنى، السلطان المتسلّط على القلوب كالمعجزة، العلم المكشوف واليقين المشهود، اللطف الربّاني و... الخ. راجع في ذلك المصادر السابقة وما شئت من كتب التفسير.

أكان هؤلاء كلّهم أفضل من يوسف عليه السلام في ترك هذا الحرام؟!

فكلّ هذا يدلّ على شطط ما أورده المفسّرون.

وبصورة واضحة وجليّة نقول: إنّ اللّه عزّ وجلّ لا يظهر براهينه ولا يبيّن سلاطينه لأحد من البشر إن أراد القيام بأيّ معصية من معاصيه ومحرّماته، وكذلك لا يظهر برهانه لمن أراد العمل بطاعته.

وقد تصوّر المفسّرون والعلماء أيضاً أنّ التجاذب والصراع بين الاثنين في خلوتهما قد انتهى ببرود غليل شهوة النبيّ يوسف عليه السلام عند رؤيته البرهان، بيد أنّ هذا الصراع لم ينته بعد، ومشكلة دفعه عليه السلام وجذب امرأة العزيز ما زالت في ذروتها، حتى عدا يوسف عليه السلام نحو أحد الأبواب، فهو دليل على أنّه عليه السلام قد عالج الموضوع بصورة تامّة بالهروب منها، أي كانت هناك مشكلة قائمة بحاجة إلى علاج فوري.

وكذلك عدم انتباه المفسّرين وتمحيصهم لقوله تعالى: ﴿**لنصرف عنه السوء والفحشاء**﴾.

«لنصرف عنه» تعني أنّ يوسف عليه السلام كان بعيداً كلّ البعد عن الزنى تماماً، والسوء والفحشاء هما المتقدّمان والمسرعان نحوه، بعكس ما لو كان هو الذي نوى الفعل القبيح، لتبادر لنا من الآية الكريمة: لنصرفه عن السوء والفحشاء، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**ولا تقربوا الزنى إنّه كان فاحشة وساء سبيلاً**﴾.[1]

فمن ينو الزنى فهو الذي يخطو نحوه، ولهذا لم نفهم من الآية أنّ اللّه

---

١. الاسراء: ٣٢.

صرف يوسف عن الزنى، بمعنى أنّ العملية قد تمّت جبراً وقهراً، بل المولى صرف الزنى والفحشاء عنه، وبما أنّ الزنى عمل قبيح قد تقدّم نحو يوسف عليه السلام نفهم من ذلك التهمة المسرعة إليه. ومن الممكن أن يتدخّل الباريّ عزّ وجلّ في مثلها لصالح عبده ولم يكن ذلك جبراً.

ثمّ لماذا حصر المفسّرون همّ الاثنين بالزنى ولم يقولوا ـ مثلاً ـ همّت بضربه لعدم انصياعه لأمرها؛ لأنّه عبدها، أو ربيبها أو ولدها*، وهو كذلك أراد ضربها أو زجرها لاستدعائه إلى فعل الحرام؟!

تحقيق الموضوع:

الهمّ هو حالة نفسانية لبني آدم تحصل وتتبلور فيه بعد عبور الإنسان بقلبه مرحلة النيّة. إذن فالهمّ:

«هو العزم على فعل مع شروع في مقدّماته».(١)

ومن مقدّمات العزم على الفعل هو النيّة، حتى قيل:

«إنّ الهمّ آخر العزيمة عند مواقعة الفعل».(٢)

فمن هنا يتبيّن أنّ يوسف عليه السلام قد نوى القيام بفعل أمام امرأة العزيز، ولولا البرهان الذي رآه لهمّ ولأقدم عليه، فإنّنا لا يمكننا القول إنّ نيّته عليه السلام

---

*. كقوله تعالى عن لسان مَن اشتراه: ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولداً﴾ (يوسف:٢١).

١. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، (هـ م. م.).

٢. معجم الفروق اللغوية، الفرق بين الهمّ والإرادة، ط: جامعة المدرّسين. للاطّلاع أكثر راجع كتب ومعاجم اللغة ليتبيّن لك من خلالها أنّ النيّة تسبق الهمّ.

كانت نيّة ارتكاب الزنى، بل همّ بفعل آخر غير ما ذهب إليه المفسّرون.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه وتعالى قد أخبرنا بهمّ وهدف كلّ واحد منهما، فأمّا المرأة فكان همّها ﴿**هيت لك**﴾، وأمّا همّ يوسف عليه السلام فكان: ﴿**معاذ اللّه إنّه ربّي أحسن مثواي إنّه لا يفلح الظالمون**﴾.

فأرجعُ وأقول: عندما وجد يوسف عليه السلام نفسه في مأزق التهديد الذي أعدّته امرأة العزيز له، ودعوتها لعمل ما لا يرضاه البارئ القدير، أو الصراخ إذا أبى، فهمّ بضربها ﴿**لو لا أن رآ برهان ربّه**﴾ أي لو ضربها تأديباً أو زجراً لصرخت ولعلا صوتها في البيت، فيأتي الجميع ويرون المنظر! يوسف وامرأة العزيز وأثر الصفعة على خدّها ـ محمرّة مثلاً ـ وهي تقول للعزيز: ﴿**ما جزاء من أراد بأهلك سوء**﴾* في هذه الحالة لا يستطيع يوسف عليه السلام دفع الاتهام عن نفسه، ولا قميص مقدود من دبر كمستمسك على براءته، ـ والمقدود من قُبل هو الأسوأ ـ فعندئذ يثأر سيّد المرأة لزوجته ويتحمّس لها، ويقول مبرهناً: امتنعَتْ وأنت ضربتها فصرخَتْ، فيتّهم بجريمتين:

الأولى: السوء، وهي ضرب امرأة العزيز، والثانية: حملها على عمل الفاحشة عنفاً، لذلك لم يجد عليه السلام حلاً وسبيل نجاة في بقائه معها لحظة، أو ضربها، ولم يبق أمامه إلاّ الانطلاق نحو أحد الأبواب، خلافاً للحادث الثاني الذي نلاحظ فيه شدّة الإغواء لتحريك شهوته عليه السلام في خلوته مع

* . لاحظ هذا الاتّهام الذي نسبته إليه وهو لم يُسئ إليها، وتمّ بمجرّد أن عزف عنها وفرّ منها، فكيف يكون حاله حينئذ لو ضربها تأديباً أو زجراً؟!

النسوة، مع كلّ ذلك بقي في مكانه لا ينطلق إلى جهة، ولا فرّ إلى باب، ولا قفز من شبّاك، لأنّ التهديد كان فيه من نوع آخر، كما هو واضح من آيات الذكر الحكيم.

أمّا البرهان* الذي رآه يوسف عليه السلام فهو التقوى، والنور الذي جعله اللّه للأتقياء، يمشون فيه لينظروا فيه عاقبة تصرّفاتهم وأفعالهم في مواجهة المشاكل وعراقيل الحياة، كما قال تعالى:

﴿**يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا اللّه... ويجعل لكم نوراً تمشون به**﴾.(١)

وأيضاً: ﴿**ومن يتّق اللّه يجعل له مخرجاً**﴾.(٢)

وكذلك: ﴿**ومن يتّق اللّه يجعل له من أمره يسراً**﴾.(٣)

وقوله تعالى: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا إن تتّقوا اللّه يجعل لكم فرقاناً**﴾.(٤)

وبصورة عامّة: ﴿**إنّ اللّه مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون**﴾.(٥)

وقد توافرت أحاديث أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله على أنّ خير دليل ومستمسك، وخير طريق لتجنّب معاصي اللّه المولى، والعمل بطاعته ونيل رضاه تعالى، ودخول جنّته بغير حساب، هو التقوى والورع، ومنها:

---

*. وردت كلمة البرهان في عدّة آيات من القرآن الكريم، وكلّها بمعنى الدليل والحجّة، وكذلك أحد مصاديق كلمة التقوى والورع هو الدليل والحجّة.

١. الحديد: ٢٨.

٢. الطلاق: ٢.

٣. الطلاق: ٤.

٤. الانفال: ٢٩.

٥. النحل ١٢٨.

«**التقوى آكد سبب بينك وبين الله إن أخذت به، وجُنّة من عذاب أليم**».[١]

وكذلك: «**سبب صلاح الإيمان التقوى**».[٢]

وأخيراً: «**إنّ التقوى منتهى رضى الله من عباده وحاجته من خلقه، فاتّقوا الله...**».[٣]

فالنبي يوسف عليه السلام قد نوى ضرب امرأة العزيز، وهمّ بالفعل، ولكن خلال لحظة واحدة تبيّنت له الآثار المترتّبة عليه، فعزف عنه والتجأ إلى حلّ آخر، وهو العدو نحو الباب كطريق أسلم وتصرّف أنجح.

وهذه الحالة (مشاهدة البرهان) ليست كالمعجزة التي ذهب إليها العلاّمة الطباطبائي في تفسيره الميزان، وغيره ممّن سلك مسلكه، بل هي حالة طبيعية للانسان، فقد نرى أحياناً أنّ أحداً يهمّ بالشيء ثمّ ينفسخ عزمه هذا خلال لحظة واحدة، بمشاهدة الآثار والنتائج المترتّبة على هذا العمل بعين البصيرة، بغضّ النظر عمّا يعرض للمتّقين الذين يمدّهم اللّه بعناية خاصّة في جميع جوانب حياتهم الدنيوية والأخروية.

ولذلك فالزناة ليس لهم حجّة على اللّه، فاللّه تعالى قد أمر الناس بالتقوى، وهي منتهى حاجته منهم، كما ورد في العديد من آياته الشريفة، منها قوله تعالى:

﴿**وتزوّدوا فإنّ خير الزاد التقوى**﴾.[٤]

---

١. غرر الحكم: ٥٨٨٦/٢٧٠، ط: مكتب الإعلام الإسلامي للحوزة العلمية بقم المقدّسة.
٢. غرر الحكم: ٥٩١١/٢٧١، ط: مكتب الإعلام الإسلامي للحوزة العلمية بقم المقدّسة.
٣. غرر الحكم: ٥٨٥٨/٢٩٦.
٤. البقرة: ١٩٧.

وكذلك قوله تعالى:

﴿يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا اللّه حقّ تقاته﴾.[١]

ذنب يوسف الصدّيق عليه السلام

﴿**وقال للذي ظنّ أنّه ناجٍ منهما اذكرني عند ربّك فأنساه الشيطان ذِكْرَ ربّه فلبث في السجن بضع سنين**﴾.[٢]

تضاربت آراء المفسّرين في كون الشيطان أنسى النبيّ يوسف عليه السلام ذكر ربّه، أم أنسى الناجي من السجن أن يذكر يوسف عند الملك؟

والرأي الأوّل جاء في جملة آراء لعلماء في صفحات متقدّمة من كتابنا، بأنّ النسيان يجوز على الأنبياء، وقد انتقينا إضافة إلى تلك الآراء قول الشيخ الطبرسي في هذه الآية:

«﴿**فأنساه الشيطان ذكر ربّه**﴾ يعني أنسى الشيطان يوسف ذكر اللّه تعالى في تلك الحال، حتى استغاث بمخلوق، فالتمس من الناجي منهما أن يذكره عند سيّده، وكان من حقّه أن يتوكّل في ذلك على اللّه سبحانه».[٣]

ثمّ إنّ كلمة «ذِكْرَ ربّه» لا تعطي معنى ذكر يوسف عند الملك، أي «تذكير ربّه به»، بل هي أقرب إلى معنى نسيان ذكر اللّه تعالى.

---

١. آل عمران: ١٠٢.

٢. يوسف: ٤٢.

٣. مجمع البيان، الشيخ الطبرسي ٥ ـ ٦: ٣٥٩، وقد مال إلى هذا الرأي كذلك الشيخ الطوسي في تفسيره التبيان ٦: ١٤٤.

ثمّ إنّ المسألة المهمّة هنا ليست نسيان يوسف أو عدمه وقد اتّفق جمع غفير من العلماء على صحّة صدور النسيان من النبيّ، بل إنّ التماس يوسف عليه السلام صاحبه، هل هو محمول على الصحّة والصواب أم لا؟

أورد أغلب المفسّرين أنّ الاستعانة بالعباد في كشف الشدائد ممّا لا بأس به، وليس فيه أيّ مساس بالإيمان، ولا يعدّ ذنباً يستحقّ عليه العقاب، ومن حقّ المؤمن أن يستخدم الأشخاص للوصول إلى أغراضه المحلّلة.

هذا صحيح، ومن البديهيّات أنّ هي الدنيا دار الأسباب، فالتمسّك بالأسباب لا ينافي التوكّل فيما إذا كان العبد متوكّلاً عليه سبحانه، ولكن مسألة يوسف عليه السلام تختلف عن هذا التوجيه تماماً، فهو ليس من باب التوكّل بل هو من باب اللجوء إلى جهة، وذلك أنّه عليه السلام حين أصبح مخيّراً بين أمرين ـ عندما قالت امرأة العزيز أمام جمع من النساء: ﴿**ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكوناً من الصاغرين**﴾[1] ـ فاختار الثاني والتجأ عليه السلام إلى اللّه تعالى، وقال: ﴿**ربِّ السجن أحبّ إليَّ ممّا يدعونني إليه**﴾[2]، فاستجاب له ربّه فصرف عنه كيد النسوة، ودخل السجن، وبقي فيه برعاية اللّه المولى، فهو عليه السلام بعينه تعالى التي لا تنام، ما دام فيه، إلاّ ما شاء اللّه. وكان بمقدوره عليه السلام أن يطلب من اللّه القاهر أمراً ثالثاً غير السجن للخلاص من امرأة العزيز.

---

١. يوسف: ٣٢.

٢. يوسف: ٣٣.

فعندما طلب يوسف عليه السلام من صاحبه أن يذكره عند الملك فإنّه قد خرج من هذا اللجوء، ودخل في لجوء آخر، وقد خرج منه على خلاف العرف البشري، ومن الطبيعي أن يُعدّ عمله هذا ذنباً باستبداله الذي هو أدنى بالذي هو خير، وهي معصية قد صدرت منه فيما بينه وبين اللّه.

وقد حفلت عدّة روايات بتوبيخ يوسف عليه السلام بكلمات كـ«رغبتك، استغاثتك، استغثت، أمّلت، تفزع»، وهذا دليل على أنّ الموضوع ليس له أي علاقة بموضوع التوكّل، كما ذهب إليه المفسّرون، ومن هذه الروايات، عن أبي عبد اللّه عليه السلام، قال:

«لمّا قال للفتى اذكرني عند ربّك. أتاه جبرئيل عليه السلام، فضرب برجله حتى كشط له عن الأرض السابعة. فقال له: يا يوسف. أنظر! ماذا ترى؟ قال: أرى حجراً صغيراً. ففلق الحجر. فقال: ماذا ترى؟ قال أرى دودة صغيرة. قال: فمن رازقها؟ قال: اللّه. قال: فإنّ اللّه ربّك يقول لَمْ أنس هذه الدودة في ذلك الحجر في قعر الأرض السابعة. أظننت أنّي أنساك حتى تقول للفتى: اذكرني عند ربّك؟! لتلبثنّ في السجن بمقالتك هذه بضع سنين ـ قال ـ فبكى يوسف عند ذلك، حتى بكت لبكائه الحيطان، ـ قال ـ فتأذّى به أهل السجن، فصالحهم على أن يبكي يوماً ويسكت يوماً، فكان في اليوم الذي يسكت أسوأ حالاً».[1]

* * *

١. تفسير البرهان، السيّد هاشم البحراني ٣: ١٧٦، نقلاً عن تفسير العيّاشي: ٢٧/١٧٧.

موسى عليه السلام

آيات متعلّقة بالبحث:

﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوّه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوّه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنّه عدوٌّ مضلٌّ مبين* قال ربِّ إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنّه هو الغفور الرحيم* قال ربِّ بما أنعمت عليَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين* فأصبح في المدينة خائفاً يترقّب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنّك لغويٌّ مبين* فلمّا أن أراد أن يبطش بالذي هو عدوٌّ لهما قال ياموسى أتريدُ أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلاّ أن تكون جبّاراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين* وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال ياموسى إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنّي لك من الناصحين﴾.[1]

* * *

---

١. القصص: ١٥ ـ ٢٠.

لقد اتّهم جلّ المفسّرين والعلماء[١] موسى عليه السلام بالحمق والعبث، وعدم فهمه واطّلاعه بما يدور حول نفسه ـ والعياذ باللّه ـ وقالوا تدخّل فيما لا ينبغي له، وقتل قبطيّاً دفاعاً عن شيعته السِبطيّ، ثمّ ندم على ما صدر من فعله وطلب المغفرة من ربّ العالمين، فغفر له الإله، ثمّ جاء في اليوم الثاني وقد تغيّر تماماً، عكس ما كان عليه في اليوم السابق، فاتّهم من كان من شيعته ـ بشهادة اللّه ـ الذي أغاثه بالأمس بالغواية! وأراد أن يفتك ويبطش بالقبطي الثاني، وهو قد تاب من هذا العمل في اليوم السابق!

وقسم منهم فسّر قوله تعالى، على لسان موسى عليه السلام: ﴿**هذا من عمل الشيطان**﴾ أنّه الاقتتال بين الإسرائيلي والفرعوني.[٢]

فإذا كان الاقتتال عمل الشيطان، فكيف يتدخّل النبيّ عليه السلام في أعمال شيطانية؟ و لا يعلم أنّها بتحريض منه؟ ويتمّها على أحسن وأفضل ممّا يتصوّره الشيطان! فكلّ هذا خلاف العصمة التي رسموها للأنبياء عليهم السلام.

فمثل هذا التفسير لهذه الآيات بعيد كلّ البعد عن وجه الصواب، وهو يعطينا صورة مشوّهة عن النبيّ موسى عليه السلام.

ونحن هنا نتناول مجملاً أهمّ ما ورد من التفسير[٣] حول تصرّفات

---

١. راجع: تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى؛ وعصمة الأنبياء لفخرالدين الرازي؛ التبيان، الشيخ الطوسي ٨: ١٣٧؛ مجمع البيان، الطبرسي ٧: ٤٢٢؛ الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي ١٢: ١٨٨؛ من وحي القرآن، محمّد حسين فضل اللّه ١٧: ٢٧٧؛ صفوة التفاسير (المستمد من تفسير الطبري، والكشّاف، والقرطبي، والآلوسي، وابن كثير، والبحر المحيط، وغيرها)، محمّد علي الصابوني؛ المقتطف من عيون التفاسير (أهمّ التفاسير السنّية)، مصطفى خيري المنصوري.

٢. راجع تفسير الميزان، الآية.

٣. لمزيد الاطّلاع راجع التفاسير المذكورة سابقاً.

موسى عليه السلام عند دخوله المدينة، واشتباكه في اليوم الأوّل والثاني، وهي:

١ ـ كان الواجب تأخير قتل القبطي.

٢ ـ لم يتعمّد القتل وكان من غير قصد.

٣ ـ قوله عليه السلام لشيعته إنّك لغويّ مبين.

التبرير الأوّل غير صحيح. هذا ما نفهمه من واقعة حدثت في زمن أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام عندما جاء ثلاثة وشهدوا على شخص بالزنى، فقال لهم عليه السلام:

«**أين الرابع**؟ فقالوا: الآن سيجيء، فقال عليه السلام: **اجلدوهم فليس في الحدود نظر ساعة**».[1]

فمن هنا لا يمكن لموسى عليه السلام التريّث فيما إذا كان القبطي الأوّل مستحقّاً للقتل، ولذلك فهو قام بالواجب المطلوب منه فقتله.

أمّا التبرير الثاني، فكذلك هو باطل لوجوه:

أ ـ لما تقدّم بيانه من لزوم عصمة النبيّ في هذه المواطن، ولا يمكنه قتل القبطي إلاّ إذا كان مستحقاً للقتل.

ب ـ توجهه بالبطش للقبطي الثاني في اليوم الآخر، مع أنّه عليه السلام قد استغفر وتاب من قتله للقبطي الأوّل في اليوم الأوّل، ومن هنا يتبيّن أنّه عليه السلام لم يستغفر ولم يتب من عملية القتل، بل من عمل آخر وسيتّضح للقارئ اللبيب في الصفحات القادمة إن شاء اللّه.

ج ـ قول النبيّ موسى عليه السلام «إذاً» في قوله تعالى: ﴿**فعلتها إذاً وأنا من**

١. وسائل الشيعة ١٨: ٨/٣٧٢.

الضالين﴾[١] جواب لفرعون عندما قال له ﴿**وفعلت فعلتك التي فعلت**﴾[٢]، فيدلّ على أنّهعليه السلام قد قتل القبطي بعلم مسبق وبصيرة تامّة؛ لأنّ حرف «إذاً» يفيد المكافأة أو الجزاء أو الجواب، كقولك: «إذن أكرمك» لمن قال: «أزورك».[٣]

وكان وما زال قول «فعلتها إذاً» يستعمل في كتب الأدب العربي وقصصه عندما نؤيّد أو نستنكر فعل أحد وهو يقدم عليه على بصيرة واطّلاع كاملين منه، بقولنا له: «فعلتها إذاً».

وأمّا التبرير الثالث، أي قولهعليه السلام لشيعته ﴿**إنك لغويّ مبين**﴾ فهو باطل كذلك، لشهادة اللّه سبحانه بأنّه من شيعته بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معنىً، فلا يمكن أن يكون من شايع نبيّاً أو وليّاً حقّاً أن يكون غويّاً.

ونحن نلاحظ عندما ذكر اللّه سبحانه وتعالى النبيّ نوحاًعليه السلام في كتابه الكريم، أردف بذكر شرط من شروط الشيعي الحقيقي قائلاً:

﴿**وإنّ من شيعته لإبراهيم * إذ جاء ربّه بقلب سليم**﴾.[٤]

فهذه الآية تدلّ بكلّ وضوح على أنّ من شروط الشيعي أن يكون قلبه سليماً للّه عزّ وجلّ.

وهناك روايات كثيرة تدلّ على صفات الشيعي الذي أرادها اللّه

---

١. الشعراء: ٢٠.

٢. الشعراء: ١٩.

٣. راجع: المنجد؛ الصحاح؛ معجم الفاظ القرآن الكريم لمجمع اللغة العربية، ط: القاهرة؛ المعجم الوجيز لألفاظ القرآن الكريم للدكتور نبيل عبدالسلام هارون.

٤. الصافّات: ٨٣ ـ ٨٤.

تعالى، منها:

عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام، قال:

«**ليهنكم الاسم**. قال، قلت: وما الاسم؟ قال: **الشيعة**. قال: **أما سمعت الله سبحانه يقول: ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوّه﴾**»؟[١]

ومنها ما عن الإمام العسكري عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«**إنّ مِنْ شيعتنا مَنْ شيّعنا وتبعنا في أعمالنا**».[٢]

ومن خلال تصفّحي آراء المفسّرين، لم أجد أحداً قد وقف وقارن بين كلمتي «استنصره» و«استصرخه» من قوله تعالى ﴿**فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه...**﴾.

السِبطي يوم أمس طلب النصرة والعون من النبيّ موسى عليه السلام فأعانه وقتل القبطي. ففي هذا المقطع كان التعسّف غير شديد بالسبطي، فكيف في اليوم الثاني بلغ التعسّف به حدّاً بحيث وصل إلى مرحلة الاستصراخ، أي يستغيث بموسى عليه السلام بوجد وشدّة؟

فالنبيّ موسى عليه السلام في هذه المرّة كذلك قد أصرخ السِبطي، وصاح بوجه القبطي بشدّة ﴿**إنّك لغويٌّ مبين**﴾ محاولاً ردعه عن أعماله التعسّفية، وكاد أن يبطش به كما قتل الأوّل، لولا أن ﴿**جاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنّي لك من الناصحين**﴾ أي ينصحه بالخروج الفوري وبدون تأخير من أرض مصر.

---

١. تفسير البرهان ٤: ٢٦١، نقلاً عن مجمع البيان للطبرسي.

٢. ميزان الحكمة ٣: ١٥٤١/٩٩٥٨، نقلاً عن تنبيه الخواطر ١٠٥/٢.

تحقيق الموضوع:

أفادنا القرآن الكريم عبر آياته الحكيمة، وكذلك الأحاديث الشريفة، وأيضاً إجماع المفسّرين والعلماء وكتبة التأريخ وأصحاب السير، عن سرعة غضب النبيّ موسى عليه السلام، وظهرت بصورة أوضح وأكثر جلاءً في سورة الكهف خلال مصاحبته الخضر عليه السلام في رحلة ليتعلّم منه ممّا علّمه اللّه تعالى، ونذكر هنا عدّة روايات كشاهد على ذلك:

«... قام الخضر إلى جوانب السفينة فكسّرها وحشّاها بالخرق والطين، فغضب موسى عليه السلام غضباً شديداً وقال للخضر: أخرقتها لتغرق أهلها؟... الآية»[1]

وعلى ما يبدو أنّ النبيّ موسى عليه السلام قالها بشدّة وعنف، مستنكراً لما فعله معلّمه. وعند قتل الخضر عليه السلام غلاماً:

«... وثب موسى إلى الخضر عليه السلام وجلد به الأرض ـ صرعه ـ فقال: أقتلت نفساً... الآية».[2]

وفي موضع آخر:

«... فغضب موسى وأخذ بتلبيبه، وقال له: أقتلت نفساً... الآية».[3]

في هذه المرّة أيضاً كان موسى عليه السلام غضبان على فعل النبيّ الخضر عليه السلام، وكذلك في تقويم الجدار الذي يريد أن ينقضّ، حتّى إنّ الصدوق رحمه الله بعد سرد هذه القصّة قال:

---

١. بحار الأنوار ١٣: ٢٧٩.

٢. المصدر السابق: ٢٨٠.

٣. المصدر السابق: ٢٨٧.

«إنّ موسى عليه السلام مع كمال عقله وفضله ومحلّه من اللّه تعالى ذكره لم يستدرك باستنباطه واستدلاله معنى أفعال الخضر عليه السلام حتى اشتبه عليه الأمر فيه وسخط جميع ما كان يشاهده حتى أُخبر بتأويله فرضي».[١]

وقال الطبرسي رحمه الله: روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«يرحم اللّه أخي موسى... فرجع إلى قومه ورآهم، فغضب وألقى الألواح».[٢]

وكذلك: «... **فأمر قارون أن يصبّ عليه رماداً قد خلط بالماء، فصبّ عليه، فغضب موسى غضباً شديداً، وكان في كتفه شعرات كان إذا غضب خرجت من ثيابه وقطر منها الدم، فقال موسى: يا ربّ إن لم تغضب لي فلست لك بنبي**»![٣]

وحين أراد موسى عليه السلام الدخول على فرعون طلب من الآذن أن يستأذنه، قال له:

«أما وجد ربّ العالمين من يرسله غيرك؟! قال: فغضب موسى فضرب بعصاه الباب...».[٤]

فما ذكرنا من الروايات قد أشارت إلى سرعة غضب النبيّ موسى عليه السلام، وقلّة صبره وعدم تريّثه لمعرفة واقع أمر الحوادث، وأيضاً فقد أشار اللّه تعالى إلى إحدى هذه الحالات عندما أخبره عزّ وجلّ في الميقات باتّخاذ قومه العجل ليعبدوه من دون اللّه، فرجع غضبان أسفاً وأخذ

١. علل الشرائع للصدوق: ٦٢.
٢. البحار ١٣: ٢٠٤.
٣. المصدر السابق: ٢٥٠.
٤. المصدر السابق: ١٣٧/٤٩.

برأس ولحية أخيه هارون عليه السلام بدون سؤال وجواب، وتصوّر أنّ أخاه لم يقم بالواجب المطلوب منه في قومه.

وكذلك فقد أفادنا الكثير من المفسّرين، في قوله تعالى ﴿**هذا من عمل الشيطان**﴾ تدخّل الشيطان بوسوسته في قتله للقبطي، منها:

«أي من إغوائه حتى زدت من الإيقاع به».[1]

«أي هذا من إغواء الشيطان، فهو الذي هيّج غضبي حتى ضربت هذا القبطي».[2]

«أي بسببه هيّج غضبي فضربته، فهو من إغرائه».[3]

«لكن الشيطان كما يوقع بوسوسته الإنسان في الإثم والمعصية كذلك يوقعه عليه السلام في أي مخالفة للصواب يقع بها في الكلفة والمشقّة».[4]

وأخيراً، فإنّ العلاّمة محمّد حسين فضل الله، بعدما رسم لنا أبعاد وسوسة الشيطان، أفادنا قائلاً:

«وهذا ما نفهمه من آية موسى عليه السلام؛ لأنّ قتله للقبطي قد يكون ناشئاً من الوسوسة الخفيّة التي نجحت في إحداث حالة من الإثارة التي تقود إلى ذلك».[5]

أعود للآية الكريمة ﴿**فوكزه موسى فقضى عليه**﴾ ليتبيّن للقارئ من

---

١. التبيان، الطوسي ٨: ١٣٦.

٢. صفوة التفاسير (المستمد من تفسير الطبري، والكشاف، والقرطبي، والآلوسي، وابن كثير، والبحر المحيط، وغيرها)، محمّد علي الصابوني، الآية.

٣. مجمع البيان، الطبرسي ٧: ٤٢٢.

٤. الميزان، الطباطبائي ١٦: ١٦.

٥. من وحي القرآن، السيد فضل الله ١٩: ٢٧٠.

خلال ما نقلنا من أحاديث وآراء العلماء، وكذلك ما سيأتي من تفاسير لهذه الآية، لماذا استغفر موسى عليه السلام من ربّ العالمين بعد قتله القبطي؟

«... فلمّا مرّ بهما موسى استغاث به ـ السامري ـ فقال موسى للقبطي: دعه فقال الخبّاز ـ القبطي ـ: إنّما آخذه لعمل، فأبى أن يخلّي سبيله، فغضب موسى فبطش وخلّص السامري من يده، فنازعه القبطي فوكزه موسى فقتله».[1]

«... فاستغاثه ـ استغاث موسى عليه السلام ـ الاسرائيلي على الفرعوني والاستغاثة طلب الغوث فغضب موسى واشتدّ غضبه لأنّه تناوله وهو يعلم منزلة موسى من بني إسرائيل وحفظه لهم...، فقال للفرعوني: خلّ سبيله فقال: أخذته ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك، فنازعه فقال الفرعوني: لقد هممت أن أحمله عليك، وكان موسى قد أُوتي بسطة في الخَلْق وشدّة في القوّة والبطش».[2]

«روي أنّه لمّا اشتدّ التناكر قال القبطي لموسى عليه السلام: لقد هممت أن أحمله ـ الحطب ـ عليك، فاشتدّ غضب موسى عليه السلام...».[3]

فمن خلال هذه التفاسير، قد ظهر أن القبطي قد أغضب موسى عليه السلام بصورة أو أخرى. أعود مرّة أخرى إلى الآيات:

﴿فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنّه عدوٌّ مضلٌّ مبين* قال ربّ إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنّه هو الغفور الرحيم﴾

---

١. بحار الأنوار ١٣: ٥٧.

٢. تفسير البغوي ٣: ٤٣٩.

٣. تفسير روح المعاني، الآلوسي ٢٠: ٥٤.

علمنا من خلال آيات القرآن الكريم، وكذلك من خلال الأحاديث أنّ النبيّ موسى عليه السلام كان سريع الغضب، وكذلك علمنا من خلال نقل آراء بعض العلماء أنّ الشيطان قد تدخّل بوسوسته في صراع الاثنين، وعرفنا أيضاً أنّ الفرعوني قد أغاظ موسى عليه السلام بصورة أو أخرى.

فيتّضح لنا أنّ موسى عليه السلام عندما وكز الفرعوني وهو غضبان قد استغلّ الشيطان هذه الحالة له، وانتهز هذه الفرصة لصالحه، لأنّ الغضب أحد مصائده لصدّ خيار الناس عن العمل في طاعة اللّه، ولهذا كان عمله عليه السلام ليس خالصاً لوجهه تعالى، وإن كان من الناحية الشرعية قتل الكافر ـ الفرعوني ـ صحيحاً كما أراد عليه السلام قتل الآخر في اليوم الثاني، ولكن الحالة الاضطرارية التي كان فيها منعته من ذلك.

ونحن نلاحظ في النبيّ موسى عليه السلام وهو قمّة في السموّ وقمّة في الأخلاق، أنّه يعتبر قتله للكافر ـ وهو غضبان لنفسه وليس للّه تعالى ـ عملاً قد أُهملت فيه طاعة اللّه، فقال: ﴿**هذا من عمل الشيطان**﴾.

وقد اشتملت روايات أهل البيت عليهم السلام على أنّ الغضب جمرة من نيران إبليس، وحذّروا الناس من ركوب هذه المطيّة، منها ما وصّى به أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عبداللّه بن عبّاس عند استخلافه إيّاه على البصرة:

«**وإيّاك والغضب فإنّه طيرة من الشيطان**».[1]

ومن كتابه عليه السلام لحارث الهمداني:

---

١. نهج البلاغة، كتاب ٧٦.

«**واحذر الغضب فإنّه جند عظيم من جنود إبليس**».[١]

وقال إبليس ـ عليه اللعنة ـ:

«**الغضب وهقي ومصيادي، وبه أصدّ خيار الخلق عن الجنّة وطريقها**».[٢]

ثمّ قال النبيّ موسى عليه السلام: ﴿**إنّه عدوٌّ مضلٌّ مبين**﴾.

وقد اشارت روايات أهل البيت عليهم السلام إلى هذا المعنى، منها:

«**الغضب عدوّ فلا تملّكه نفسك**».[٣]

وكذلك: «**الغضب مركب طيش. بكثرة الغضب يكون الطيش**».[٤]

ثمّ قال النبيّ موسى عليه السلام طالباً مغفرة ربّ العالمين:

﴿**ربّي إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي**﴾.

أي لم أجعل عملي هذا قربة إليك وطاعة لك، كما نبّه وحذّر أميرالمؤمنين عليه السلام من هذا العمل والتصرّف بقوله:

«**من أهمل العمل بطاعة اللّه ظلم نفسه**».[٥]

ومن هنا يتّضح لك، أيّها القارئ اللبيب، معنى قول اللّه عزّ وجلّ عن لسان موسى عليه السلام: ﴿**ولهم عليّ ذنب**﴾[٦] عندما أرسله اللّه تعالى إلى فرعون، فهو يقصد ذنبه عند اللّه تعالى وليس عند فرعون وملإه كما ذهب

---

١. نهج البلاغة، كتاب ٦٩

٢. بحار الأنوار ٧٣: ٢٦٥. والوهق: الحبل.

٣. ميزان الحكمة، الري شهري، نقلاً عن غرر الحكم (الغضب).

٤. المصدر السابق.

٥. ميزان الحكمة، نقلاً عن غرر الحكم.

٦. الشعراء: ١٤.

إليه المفسّرون، وكذلك قوله عليه السلام لفرعون: ﴿**فعلتها إذاً وأنا من الضالّين**﴾[1]، فهو يقصد كنت ضالاً من أن أجعل عملي هذا قربة له تعالى. فيبدو لي أنّ النبيّ موسى عليه السلام قد استعمل أسلوب التورية، أو التقيّة هنا، ففهم فرعون شيئاً آخر، وفسّرها العلماء والباحثون والمفسّرون، بترك الأولى أو الندب... الخ.



١. الشعراء: ٢٠.

داود عليه السلام

آيات متعلّقة بالبحث:

﴿وهل أتاك نبأُ الخصم إذ تسوّروا المحراب* إذ دخلوا على داوُد ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعضٍ فاحكم بيننا بالحقّ ولا تُشطط واهدنا إلى سواء الصراط* إنّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجةً ولي نعجةٌ واحدةٌ فقال أكفلينها وعزّني في الخطاب* قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإنّ كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعضٍ إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظنّ داوُد أنّما فتنّاه فاستغفر ربّه وخرّ راكعاً وأناب* فغفرنا له ذلك وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب* يا داوُد إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ...﴾[1]

* * *

ما تصفّحت تفسيراً لأعلم قصّة الخصم الذين تسوّروا المحراب، ودخولهما المفاجئ على النبيّ داوُد عليه السلام وتحاكمهما عنده، إلاّ وقد ربط

---

١. ص: ٢١ـ٢٦.

موضوعها بامرأة أُوريا من قريب أو بعيد، ومنهم من احتمل وقوع داوُدعليه السلام بسبب ميل الطباع، في هفوة بسبب هذه المرأة.[١]

ويمكن لنا أن نشير إلى نقطة تبيّن حقيقة موضوع امرأة أُوريا من خلال حوار الإمام الرضاعليه السلام مع علي بن محمّد بن الجهم، الذي استفسر من الإمام عن حقيقة موضوع أُوريا وداوُدعليه السلام وقصّتهما، بعد أن علم انتساب الفواحش إلى داودعليه السلام هو من أقوال عامّة الناس، أجابه الإمامعليه السلام قائلاً:

«إنّ المرأة في أيّام داوُدعليه السلام كانت إذا مات بعلها، أو قتل لا تتزوّج بعده أبداً، وأوّل من أباح اللّه عزّ وجل له أن يتزوّج بامرأة قتل بعلها، داوُدعليه السلام فتزوّج بامرأة أُوريا لمّا قتل وانقضت عدّتها منه، فلذلك شقّ على الناس...».[٢]

فنلاحظ من خلال هذه الرواية، أن أُناساً من اليهود ومن رواة المسلمين، ممّن في قلبه مرض واستحوذ عليه الشيطان، قد تشدّق بهذا الموضوع وطعن في النبيّ داوُدعليه السلام، ونسبوا إليه الفواحش. وكذلك نجد نبيّنا محمّداًصلى الله عليه وآله قد أُبتلي بهذا البلاء، ولم يسلم من هذا الطعن، وذلك عندما أمره المولى بتطليق زينب بنت جحش من زيد بن حارثة، الذي كان قد تبنّاهصلى الله عليه وآله والتزوج بها، لهدم عادة كانت سائدة في أيّام الجاهليّة.

١. للمزيد راجع: تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى؛ عصمة الأنبياء لفخر الدين الرازي؛ التبيان للطوسي؛ مجمع البيان للطبرسي؛ الميزان للعلامة الطباطبائي؛ الأمثل لناصر مكارم الشيرازي؛ من وحي القرآن للعلامة فضل اللّه؛ صفوة التفاسير (المستمد من تفسير الطبري، والكشاف، والقرطبي، والآلوسي، وابن كثير، والبحر المحيط، وغيرها)للصابوني؛ و... الخ.
٢. بحار الأنوار ١٤: ٢/٢٣.

ومن المؤسف أنّه ما زالت هذه الروايات تنقل في صفحات كتب التفسير، جيلاً بعد جيل، ويحسبون أنّهم قد أحسنوا فلهم الحسنى وزيادة!

أمّا موضوع الآيات التي نحن بصددها، فقد أبدى كلّ كاتب ومفسّر رأياً فيها، وهنا ننقل أهمّ الآراء في هذا المجال ثمّ نسجّل تحقيقنا فيه.

١ ـ كان حكم داوُد صحيحاً وعدلاً، وإلاّ لاعترض الثاني على حكمه وترك الندب في أمر القضاء.[١]

٢ ـ قول داوُد عليه السلام للخصم الأوّل: إن كان الأمر كما ذكرت فقد ظَلَمك ونَقَصك.[٢]

٣ ـ الذين تسوّروا المحراب كانوا قاصدين قتله، وظنّوا أنّه غافل، فلمّا رآهم داوُد عليه السلام خافهم، لما تقرر في العرف أنّه لا يتسوّر أحد دار غيره إلاّ لسوء في نفسه أو ماله أو أهله، فلمّا رأوه مستيقظاً انتقض عليهم التدبير، فاقترح بعضهم خصومة لا أصل لها.[٣]

أمّا الرأي الأوّل فهو ضعيف، لوجود كلمة «الخصم» في الآية الكريمة التي لم ينتبه إليها المفسرون، فهي تدلّ على أنّ كلّ واحد من هؤلاء يدّعي الحقّ إلى جانبه، وله دليل وكلام على ذلك، أي كلّ واحد منهما مدّعٍ ومدّعى عليه، وليس شاكياً ومشتكىً منه فقط، ولذلك لو استمع داوُد عليه السلام للقول الثاني من دون استماعه للقول الأوّل، لأفتى لصالح الثاني لما يقول ويقرّر من كلام لصالح نفسه كما قال الأوّل، ثمّ إنّه عليه السلام لم يعط

١. راجع تفسير الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي ١٤: ٤٣٣ ـ ٤٣٤؛ والتبيان، الشيخ الطوسي.

٢. راجع: تنزيه الأنبياء، الشريف المرتضى.

٣. عصمة الأنبياء للفخر الرازي.

فرصة للثاني لإبداء رأيه.

وعدم معارضة الثاني وسكوته على حكمه عليه السلام ليس دليلاً على رضاه، بل لا يمكن له عليه السلام إصدار حكم لصالح الثاني مرّة أخرى، أي يفتي لصالح الاثنين، وكفى خطأً في الحكم الأوّل.

أمّا الرأي الثاني فكذلك هو باطل، إذ لا يمكن لداوُد عليه السلام أن يحكم لصالح الأوّل على أساس «إذا كان الأمر كما ذكرت»؛ لأنّ الخصم حاضر في التحكيم ولم يغب، وهذا الرأي يشبه الرأي الأوّل وقد بيّنّا خطأه، ثمّ أنّ الآيات لا توحي بشيء من تبرير وتوجيه الشريف المرتضى رحمه الله أصلاً.

نحن وإن سلّمنا بهذا الرأي فهو طعن بنبوّة داود عليه السلام، لأنّه أصدر حكماً على سبيل الفرض، وخلاف ما طلب الخصمان منه، وهو الحكم بالحقّ، لا بالشطط، ويهديهم إلى سواء الصراط.

فهو عليه السلام إن علم بكلام ومراد الخصمين، وأصدر حكماً على ضوء ما قال الشريف المرتضى رحمه الله فهو طعن بشخصه عليه السلام.

وإن لم يعلم عليه السلام، ولم يفهم كلام الخصمين، ففيه طعن أكبر من الأوّل.

وأمّا الرأي الثالث فهو غريب وعجيب من عالِم كفخرالدين الرازي، حيث تصوّر أن السَّوْرَ في الآيات هو سور البيت، أي الحائط المترفع، والقرآن يقول: ﴿**تسوّروا المحراب**﴾، ولا يدري أنّ الأصل في مادة سور هو الهيجان مع اعتلاء وارتفاع وهذا المعنى يختلف خصوصيةً باختلاف المصاديق.[1]

ونحن ننقل هنا قول صاحب التحقيق في كلمات القرآن الكريم،

---

١. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، (س. و. ر).

ليتبيّن خطأ كلام فخرالدين الرازي ومن ذهب هذا المذهب.

«﴿إذ تسوّروا المحراب﴾

التسوّر تفعّل من السَوْر، وقلنا إنّه الهيجان مع اعتلاء، فيكون المعنى اختيار الهيجان والاعتلاء، واظهاره بالرغبة في محلّ المحراب، فإنّ التخاصم يقتضي تلك الحالة ويستدعي اختيار تلك المواثبة.

وبهذا التوضيح في تفسير تلك الآيات الكريمة، يتّضح ما في التفاسير وكتب اللغة من الوهن والاختلاف والخلاف. والله هو الهادي».(١)

ونرى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قد أشار إلى معنى السوْر، وهو الهيجان والاستعلاء بقوله:

«املك حميّة نفسك وسوْرَة غضبك (حدّك)».(٢)

وأيضاً أشار حفيده الإمام زين العابدين، عليّ بن الحسين عليه السلام إلى هذا المعنى في صحيفته السجّادية بقوله:

«اللّهمّ إنّي أعوذ بك من هيجان الحِرص وسوْرَة الغضب».(٣)

وشاهدنا أيضاً على أنّ السوْر في هذه الآيات هو ليس ارتفاع جدار، قوله تعالى: ﴿**إذ دخلوا على داود**﴾، فمن تسوّر جداراً أو شيئاً مرتفعاً لا يدخل فيه، بل ينزل منه، أي لنزلوا، أو هبطوا على داود عليه السلام.

ثمّ إنّ الخصم لو كانوا قد طلبوا داوُد للقتل، ووجدوه وقد فزع منهم،

---

١. المصدر السابق.

٢. غرر الحكم، ٦٨٦٣، ط: مركز الاعلام الإسلامي للحوزة العلمية بقم المقدّسة؛ مستدرك وسائل الشيعة ١٣: ١٥٠١٨/١٧.

٣. دعائه عليه السلام في الاستعاذة من المكاره وسيّئ الأخلاق ومذامّ الأفعال.

لكانت أفضل فرصة للقضاء عليه، فمالهم لم يقتلوه؟!

وكذلك نجد كلام وتفسير الرازي خلاف النصّ القرآني، إذ اللّه تعالى بيّن صفتهم في بادئ الأمر بأنّهم خصمان وليسا طالبي قتل داوُدعليه السلام.

فكلّ هذا يدلّ على فشل ووهن القول الثالث.

تحقيق الموضوع:

وقبل توضيح الموضوع، أودّ أن أنقل رأي السيّدين الطباطبائي وفضل اللّه، فقد قال العلاّمة الأوّلرحمه الله:

«وعلم داوُد أنّ هذه الواقعة إنّما كانت امتحاناً امتحنّاه، وأنّه أخطأ فاستغفر ربّه ممّا وقع منه، وخرّ منحنياً وتاب إليه».[١]

ثمّ جاء العلاّمة الثاني فتناول المسألة فوضّحها أكثر فأكثر، فقال:

«لابدّ من الاعتراف بأنّ مثل هذه الأخطاء لا تتنافى مع مقام النبوّة، لا سيّما إذا كانت الأمور جارية في بداياتها للإيقاع به في الخطأ من أجل أن يكون ذلك بمثابة الصدمة القويّة التي تمنع عن الخطأ في المستقبل».[٢]

الملاحظ من أجواء هذه القصّة، من دخول الخصمين بصورة غير طبيعية ومفاجئة، بحيث وصل طور دخولهم الفزع، أي «الخوف الشديد مع اضطراب ودهشة»[٣]، لنبيّ من أنبياء اللّه، وتنبّهعليه السلام على أنّه امتحان من اللّه تعالى، فكلّ ذلك يدلّ على أنّ الخصمين كانا من الملائكة الذين

---

١. الميزان، الطباطبائي ١٧: ١٩٤.

٢. من وحي القرآن، محمّد حسين فضل اللّه ١٩: ٢٤٩.

٣. راجع التحقيق في كلمات القرآن الكريم لحسن المصطفوي، (ف. ز. ع).

أرسلهم اللّه تعالى إليه. ثمّ إنّه قد أخطأ في الحكم بين الخصمين، فلو كان الخصمان من البشر، لظلم بحكمه أحدهما، وهو خلاف حفظ اللّه تعالى الذي أثبتناه فيما فيما يرتبط بعلاقة النبيّ مع الناس، فكلّ ذلك يدلّ على أنّ الخصمين كانا من الملائكة.*

فانتبه داوُد عليه السلام إلى أنّ هذا الحكم الذي أصدره بحقّهما كان خطأً، ولو كان حكماً صادراً منه بين خصمين من الناس لسقط من درجة النبوّة، ولقدح فيها، وسقوط اعتبارها في هذا الحكم، ولذلك انتبه الى هذا الموضوع، وأحسّ بالنفع، فاستغفر ربّه وخرّ راكعاً ثمّ أناب، فغفر اللّه سبحانه وتعالى له ذلك.

وكان هذا درساً من اللّه سبحانه له عليه السلام، لكشف نقطة ضعفه لما سيتصدّى له من مسؤولية فعلية تتعلّق بهذا الموضوع الخطير الذي يعتبر الأساس والأصل في بقاء وصلاح الرعية، أي العدل والحقّ**، وقد خاطبه اللّه تعالى مبيّناً له لزوم إقامة العدل، واجتناب ارتكاب مثل هذا الخطأ في الحكم بين الناس، لأنّه من الذنوب التي لا تغتفر، فقال تعالى: **﴿يا داوُد إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ﴾**

هذا ما ذهب إليه العلاّمة الطباطبائي رحمه الله بقوله:

---

*. وهو خلاف ما ذهب إليه الشريف المرتضى بقوله: «ليس هناك دليل على أنّ الخصمين من الملائكة»، راجع تنزيه الأنبياء.

**. الجدير بالذكر أنّه قد ورد أكثر من أربعين حديثاً في كتاب غرر الحكم تدلّ على أنّ أساس النظام والحكم الصالح هو العدل، للمزيد راجع الصفحات ٩٩، ٣٤٠، ٤٤٦ من هذا الكتاب، ط: مكتب الإعلام الإسلامي للحوزة العلمية بقم المقدّسة.

«قوله تعالى: «﴿يا داوُد إنّا جعلناك خليفة في الأرض﴾ إلى آخر الآية، الظاهر أنّ الكلام بتقدير القول، والتقدير: فغفرنا له ذلك وقلنا: يا داود... الخ».[١]

ثمّ قال رحمه الله في موضع آخر:

«إنّ المراد بجعل خلافته [هو] إخراجها من القوّة إلى الفعل في حقّه، لا مجرّد الخلافة الشأنية؛ لأنّ اللّه أكمله في صفاته وآتاه المُلك يحكم بين الناس».[٢]



١. الميزان، السيد الطباطبائي ١٧: ١٩٥.
٢. المصدر السابق: ١٩٦.

يونس عليه السلام

آيات متعلّقة بالبحث:

﴿وإنّ يونس لمن المرسلين* إذ أبق إلى الفلك المشحون* فساهم فكان من المدحضين* فالتقمه الحوت وهو مليم* فلولا أنّه كان من المسبّحين* للبث في بطنه إلى يوم يبعثون* فنبذناه بالعراء وهو سقيم* وأنبتنا عليه شجرة من يقطين* وأرسلناه إلى مائة ألفٍ أو يزيدون﴾.(١)

﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظنّ أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين﴾.(٢)

﴿فاصبر لحكم ربّك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم* لولا أن تداركه نعمةٌ من ربّه لنُبذ بالعراء وهو مذموم* فاجتباه ربّه فجعله من الصالحين﴾.(٣)

* * *

---

١. الصافّات: ١٣٩ـ١٤٧.

٢. الأنبياء: ٨٧.

٣. القلم: ٤٨ ـ ٥٠.

نبيّ آخر من أنبياء الّله، ذكر المولى عزّ وجلّ قصّته في كتابه المجيد، وحذّر رسوله الكريم صلى الله عليه وآله من أن يخطو كما خطا في عمل محظور، وأن لا يكون آبقاً كما أبق يونس عليه السلام إلى الفلك المشحون.

وقد حاول الكثير من المفسّرين توجيه وتبرير تصرّفه عليه السلام حين ذهب مغاضباً، ولكنّ الّله تعالى أطلق عليه كلمة «أبق»، أي هرب من مولاه عزّ وجلّ من غير استئذان، ونحن ننقل هنا أهم التبريرات التي وضعها المفسّرون أو العلماء لتصرّفه عليه السلام ثمّ نناقشها:

١ـ ﴿**فظنّ أن لن نقدر عليه**﴾ أي لا نضيّق عليه المسلك ونشدّد عليه المحنة كما في قوله تعالى: ﴿**وأمّا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه**﴾.(١)

٢ ـ رسالته جاءت متأخّرة بعد حادث التقام الحوت، لقوله تعالى ﴿**وأرسلناه...**﴾.(٢)

أمّا التبرير الأوّل فهو باطل لأنّ الّله سبحانه وتعالى لا يضيّق على أحد من الناس رزقه أو مسلكه، فهو تعالى يعطي من سأله ومن لم يسأله تحنّناً منه ورحمة، والمشاكل والصعاب التي يواجهها الإنسان في حياته هي بسبب ذنوبه ومعاصيه وبُعده عن مولاه الكريم.

---

١. راجع: تنزيه الأنبياء، الشريف المرتضى؛ عصمة الأنبياء، فخرالدين الرازي؛ ومن وحي القرآن، محمّد حسين فضل الّله؛ صفوة التفاسير (المستمد من تفسير الطبري، والكشاف، والقرطبي، والآلوسي، وابن كثير، والبحر المحيط، وغيرها)، محمّد علي الصابوني؛ المقتطف من عيون التفاسير، مصطفى خيري المنصوري؛ التفسير المبين، محمّد جواد مغنية؛ الميزان، الطباطبائي؛ التبيان، الطوسي؛ مجمع البيان، الطبرسي؛ الأمثل، ناصر مكارم الشيرازي.

٢. من وحي القرآن، السيد محمّد حسين فضل الّله ١٩: ٢١٨.

وأمّا الآية ﴿وأمّا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه﴾[١] التي استشهدوا بها على تضييق اللّه على العبد رزقه، فهو من باب الابتلاء إذ لم يلتفت بعض المفسّرين إلى ما ورد في صدر الآية، وهو قوله تعالى: ﴿إذا ما ابتلاه﴾، فمن هذه الناحية لا يظنّ المؤمن مطلقاً أنّ اللّه لا يضيّق عليه، بغضّ النظر عن كونه نبيّاً؛ لأنّ الحياة كلّها كدح وابتلاء، كما قال اللّه تعالى:

﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون* ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمنّ اللّه الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين﴾.[٢]

وقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾.[٣]

فالآيتان تشيران إلى أنّ حياة الإنسان مشحونة بمحن وبلاء، وأنّ البلاء يشتدّ كلّما كان الشخص متمتّعاً بإيمان وتقوى أعلى من غيره، كما نقل عن لسان الرسول صلى الله عليه وآله حيث قال:

«أشدّ الناس بلاءً الأنبياء، ثمّ الأولياء، ثمّ الأمثل فالأمثل».[٤]

وقال الشاعر وهو يصف الدنيا على ما هي عليه من مشاكل وبلاء:

طُبِعَت على كدرٍ وأنت تُريدها ... صفواً من الأقذاءِ والأكدارِ
ومكلِّف الأيّام ضدّ طباعها ... مُتَطلِّبٌ في الماء جَذْوَة نارِ
وإذا رجوتَ المستحيلَ فإنّما ... تبني البناء على شفيرٍ هارِ[٥]

---

١. الفجر: ١٦.

٢. العنكبوت: ١ ـ ٢.

٣. البلد: ٤.

٤. الكافي ٢: ٢/٢٥٢، باب شدّة بلاء المؤمن؛ سنن ابن ماجة ٢: ٤٠٢٣/١٣٣٤؛ سنن الدارمي ٢: ٣٢٠؛ الوسائل ٣: ١/٢٦١، الباب ٧٧ من أبواب الدفن.

٥. الأبيات للشاعر محمد التهامي (أبوالحسن)، نقلاً عن وفيّات الأعيان ٣: ٣٧٨ ـ ٤٧١/٣٨١؛

فلهذا لا يمكن أن يظنّ النبيّ يونس عليه السلام أنّ اللّه لا يضيّق عليه مسلكه.

وأيضاً معنى القَدَر هو القوّة في اختيار إتيان الفعل أو تركه، بمعنى أنّه قوّة إن شاء فعل بها وإن لم يشأ لم يفعل، ماديّة كانت أو معنويّة[1]، وأنّها تختلف في مصاديقها إن أتت مع كلمة أخرى، كما في كلمة «فقدر عليه رزقه» أي (فقدر رزقه عليه) أيّ ضيّق، وأمّا في آية يونس عليه السلام فهي لا تفيدنا هذا المعنى بل تفيد معنى القدرة والقوّة عليه.

فهذا دليل آخر على أنه عليه السلام لم يظنّ أنّ اللّه لا يضيّق عليه مسلكه.

ولكن الرأي الذي يتبلور ويقوى هنا، هو عندما دعا عليه السلام على قومه واستجيبت دعوته بتلويح وظهور سحابة العذاب وهي ترفرف على سماء المدينة، ظنّ (تيقّن) من حلول نقمة اللّه وعذابه تعالى بهم، وليس في حكمه عزّ وجلّ تردّد أو تراجع، فخرج من بينهم لأنّه يعلم أنّ اللّه ما كان ليعذّب قوماً ونبيّهم فيهم، ولم يتصوّر مطلقاً بأنّه تعالى سيرفع عنهم العذاب، ولم يكن يعلم أو يخطر بباله أنّه ما كان اللّه ليعذب قوماً وهم يستغفرون، كما يستظهر ذلك من قوله تعالى مخاطباً الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿**وما كان اللّه ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان اللّه معذّبهم وهم يستغفرون**﴾.[2]

فيقوى عندي: ﴿**فظنّ أن لن نقدر عليه**﴾ أي العذاب ورفعه ودفعه عن قومه، ولهذا غضب ولم يعد إلى مدينته ليستمرّ على نشاطه كنبيّ من أنبياء اللّه، وذهب إلى ما آل إليه، أو ﴿**لن نقدر عليه**﴾ نعفيه ونتركه، لأنّ

الأعلام للزركلي ٤: ٣٢٧.

١. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن المصطفوي، مادة (قدر).

٢. الأنفال: ٣٣.

العفو والترك يأتي بعد السلطة والمقدرة، وذلك أنّه عليه السلام بإباقه، عطّل التبليغ وتنازل عن منصب النبوّة، وربّما تصوّر عليه السلام أنّ اللّه يعفيه من مهمّته ويتركه، وأنّ التكليف والتشريف بمنصب النبوّة قد انتهى.

أمّا التبرير الثاني الذي ورد في تفاسير عديدة كالطبري وابن كثير في محتملات تفسير هذه الآية بكلمة «قيل»، وأثار هذا الاحتمال السيّد العلاّمة فضل اللّه عندما تناول تفسير قوله تعالى: ﴿**وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون**﴾، قال:

«ربّما يستوحي بعضهم من هذه الآية أنّ رسالته كانت متأخّرة من هذا الحدث الذي حلّ به؛ لأنّ الحديث عن الرسالة جاء بعد الحديث عنه».[١]

ثمّ أضاف السيّد فضل اللّه:

«وقد نلاحظ على ذلك أنّه لم يرد في كلّ الآيات المتعرّضة لقصّة يونس أنّه كان مرسلاً إلى قومه قبل التقام الحوت إيّاه لنستفيد من الآية المذكورة [أرسلناه]* أنّه أرسل إليهم ثانياً».[٢]

قد ذكر اللّه تعالى في كتابه الكريم أنّ يونس عليه السلام كان مبعوثاً إلى قومه قبل حادث التقام الحوت إيّاه، منها قوله سبحانه:

﴿**وإنّ يونس لمن المرسلين * إذ أبق إلى الفُلك المشحون**﴾.

فسياق الآية يدل على أنّ رسالته قد سبقت الحادث.

وكذلك قوله عزّ وجلّ:

---

١. من وحي القرآن ١٩: ٢١٨.

*. زيادة للتوضيح.

٢. المصدر السابق ١٩: ٢١٨ ـ ٢١٩.

﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلاّ قوم يونس لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي﴾.[١]

فقوله تعالى ﴿إلاّ﴾ دليل على أنّها البلدة أو القرية الوحيدة التي رفع عنها العذاب، أي التي كان فيها يونس عليه السلام الذي استجاب المولى دعاء قومه برفع العذاب عنهم.

فعملية حلول العذاب على بلدة، تحدث بعد تكذيب أهل تلك البلدة النبيّ أو الرسول، وبعد دعاء النبيّ بحلول العذاب عليهم، كما نلاحظ ذلك من خلال آي القرآن المجيد في عدّة مواطن من سوره الشريفة، وليس لمن كان داعية من غير أن يكون نبيّاً حقّ بالدعاء على هلاك قومه.

وكذلك خطاب اللّه تعالى وتحذيره للرسول محمّد صلى الله عليه وآله بأن لا يكون كالنبي يونس عليه السلام الذي فرّ من حكمه وأمره، فقال عزّ وجل:

﴿فاصبر لحكم ربّك ولا تكن كصاحب الحوت﴾.

فالخطاب، خطاب بصفته نبيّاً وليس بصفته صلى الله عليه وآله فرداً كباقي أفراد المجتمع، فهذا يدلّ على أنّ يونس عليه السلام كان له حكم ودور كنبيّ من أنبياء اللّه ولم يضطلع بحكم اللّه سبحانه.

تحقيق الموضوع:

لقد أصبح واضحاً أنّ اللّه تعالى قد بعث يونس عليه السلام مرّتين لتبليغ رسالته، ونحن هنا نذكر عدّة تفاسير استشهاداً على ذلك، منها قول

---

١. يونس: ٩٨.

العلاّمة الطباطبائي رحمه الله:

«ولا يخلو السياق من إشعار ـ بل دلالة ـ على أنّ المراد من إرساله في قوله: ﴿**وأرسلناه**﴾ أمره بالذهاب ثانياً إلى القوم».(١)

ثمّ أردف رحمه الله قائلاً:

«أنّ السياق كما سمعت يدلّ على كون إرساله بأمرٍ ثانٍ وأنّ إيمانهم كان إيماناً ثانياً بعد الإيمان والتوبة وأنّ تمتيعهم إلى حين كان مترتّباً على إيمانهم به لا على كشف العذاب عنهم فلم يكن اللّه سبحانه ليتركهم لو لم يؤمنوا برسوله ثانياً، كما آمنوا به وتابوا إليه أوّلاً في غيبته».(٢)

وقال محمّد جواد مغنية:

«﴿**وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون**﴾... فأعرضوا في البداية ثمّ ﴿**آمنوا فمتّعناهم إلى حين**﴾ ».(٣)

وقال الدكتور محمّد الصادقي:

«ذلك إرسال له ثانٍ ﴿**إلى مائة ألف أو يزيدون**﴾ بعد ما ذهب مغاضباً».(٤)

قد تبيّن لنا من خلال أجواء الآيات القرآنية وأقوال المفسّرين، أنّ اللّه سبحانه قد بعث يونس عليه السلام برسالتين إلى قومه، الأولى قبل حادثة الحوت، والثانية بعدها، علماً أنّ أطول مدّة ذكرت ـ من خلال الروايات ـ

---

١. الميزان، الطباطبائي ١٧: ١٦٦.

٢. المصدر السابق.

٣. التفسير المبين: ٥٩٥.

٤. تفسير الفرقان ٢٢و٢٣: ٢٠٧.

عن ذهاب النبيّ يونس عليه السلام ورجوعه إلى قومه ثمانية وعشرون يوماً، وهي فترة قصيرة لا يمكن أن نعتبر فيها أنّ الإرسال الثاني لقومه هو رسالة جديدة قد نسخت الرسالة الأولى إلاّ أن نقول بتكرر الإرسال من جديد، فهنا يحتمل وجوه:

١ ـ أن يكون اللّه قد أرسله مرّتين لأداء رسالة واحدة، وهذا لا يمكن.

٢ ـ أن يتصوّر عليه السلام عملية إبلاغ الرسالة قد انتهت بعد دعائه على قومه.

كذلك لا يجوز له عليه السلام هذا التصوّر؛ لأنّ إنهاء التكليف يأتي بأمر من المكلِّف، وليس للمكلَّف حقّ الإنهاء أو تصوّره.

٣ ـ غضبه بعد مشاهدة عدم نزول العذاب، وتخلّيه عن رسالته ونبوّته.

نعم، هذا ما أشارت إليه الآيات من الإباق، وتوبة اللّه عليه واجتبائه مرّة أخرى، وجعله من الصالحين للقيام بمهام الرسالة من جديد.

وقد أجمع المفسّرون على أنّه عليه السلام قد خرج من قومه ولم يعد إليهم بعد رفع العذاب عنهم بدون إذن مولاه، فهو خير دليل على أنّ يونس عليه السلام لم يعمل بمهامّه كنبيّ، منها:

«فخرج مغاضباً احتجاجاً على ذلك من دون أن يتلقّى أيّة تعليمات من اللّه تدعوه للخروج».[1]

وأضاف السيد قائلاً:

«ولكن اللّه اعتبر عمله نوعاً من الهروب فيما يمثله ذلك من معنى

---

١. من وحي القرآن، فضل اللّه ١٩: ٢١٧.

الإباق، تماماً كما هو إباق العبد من مولاه».[١]

فالعاقل البصير والعالم الرشيد يفهم أنّه عليه السلام بصفته نبيّاً أو داعية قد كلّف بتبليغ الأحكام الإلهية إلى قومه، فلم يمتثل لما أمر اللّه به، وخرج من قومه (بأي صورة من صور التبرير وأيّ شكل من أشكال التوجيه)، فهو خالف ما أمره المولى مرّتين:

الأوّل: عدم العودة إلى البلدة بعد رفع العذاب عنها، وكان قد أُمر بتبليغ الأحكام والمقام فيها.

الثاني: تعطيل عمل تبليغ الرسالة المكلّف بإيصالها لأبناء هذه البلدة.

فهذا التصرّف يعتبر معصية قد صدرت ما بين العبد وربّه كما حقّقناه.

وقد أورد العياشي في تفسيره عن أبي عبيدة الحذاء عن أبي جعفر عليه السلام أنّ يونس عليه السلام كان عاجزاً عن حمل أوقار النبوّة وأعلامها وأنّه تفسخ تحتها كما يتفسخ الجذع تحت حمله، فقذفها وخرج هارباً منها.[٢]

وإنّي لأعلم أنّ أكابر المفسّرين وأرباب العقائد، واقفون على تفاصيل حوادث الأنبياء وما يتعلّق بهم من آيات الذكر الحكيم، ولكن بسبب حصرهم لموضوع العصمة في ثلاثة موارد، أدّت بهم إلى هذا الابتعاد عن سواء السبيل، وهم غير مقتنعين تماماً بما يملؤنه في كتبهم وتفاسيرهم، منها قول الشريف المرتضى وتابعه الفخر الرازي في قوله تعالى: ﴿**ولا تكن**

---

١. المصدر السابق.

٢. نقل هذا الحديث أيضاً المجلسي في البحار ١٤: ٣٩٢ ـ ٣٩٩، وكذلك البحراني في تفسير البرهان ٢: ٢٠٠ ـ ٢٠٢، وأيضاً أورد الحاكم النيسابوري هذا الحديث بلفظ مقارب في مستدركه على الصحيحين ٩: ٤٠٩٣/٣٩٧.

كصاحب الحوت﴾.

«فليس على ما ظنّه الجهّال من أنّه عليه السلام ثقل عليه أعباء النبوّة لضيق خُلقه فقذفها، وإنّما الصحيح أنّ يونس عليه السلام لم يقو على الصبر على تلك المحنة التي ابتلاه اللّه تعالى بها».[1]

فالملاحظ أنّ تعبيرهما يدلّ على تخلّي يونس عليه السلام عن مهامّ النبوّة وعدم العمل بها، وإن كان التعبير في المقطع الأول تشنيعاً وفي الثاني تبريراً، والمستغرب منهما ذكر هذه الجملة «الصبر على المحنة.. ابتلاء اللّه» مع أنّ الأمر بتبليغ الرسالة والأحكام هو تشريف أوّلاً وتكليف ثانياً، وليس محنة أو ابتلاء، ولا أدري من أين أتيا واخترعا هاتين الكلمتين!



١. راجع تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى؛ وعصمة الأنبياء للفخر الرازي، قصة يونس عليه السلام.

رسول اللّه صلى الله عليه وآله

آيات متعلّقة بالبحث:

﴿إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً* ليغفر لك اللّه ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ويتمّ نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً* وينصرك اللّه نصراً عزيزاً﴾.[1]

* * *

لقد أورد مفسّرو القرآن الكريم[2] عدّة وجوه لمعنى الفتح، والمغفرة التي وعدها اللّه رسوله الكريم صلى الله عليه وآله، وكان من أشهرها:

١ ـ فتح مكّة.

٢ ـ فتح خيبر.

٣ ـ صلح الحديبية.

---

١. الفتح: ١ ـ ٣.

٢. راجع: تنزيه الأنبياء للمرتضى؛ عصمة الأنبياء للرازي؛ الميزان للطباطبائي؛ والأمثل للشيرازي؛ صفوة التفاسير (المستمد من تفسير الطبري، والكشاف، والقرطبي، والآلوسي، وابن كثير، والبحر المحيط، وغيرها) لمحمّد علي الصابوني؛ والمقتطف من عيون التفاسير لمصطفى خيري المنصوري؛ المبين لمحمّد جواد مغنية؛ التبيان للطوسي؛ البيان للطبرسي؛ من وحي القرآن لمحمّد حسين فضل اللّه.

٤ ـ الظفر على الأعداء بالحجج والمعجزات.

علماً بأنّ معظم المفسّرين قد مالوا إلى أنّه صلح الحديبية كمقدّمة للفتح الأكبر (فتح مكّة)، مستدلّين عليه بأسباب النزول، إذ نزلت بعد رجوع الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله من صلح الحديبية، أو في المدينة المنوّرة بعد رجوعه من صلحه، فتصفّح ما شئت من تفسير.

وكان أشهر ما قيل في كلمة «ليغفر لك» هو:

١ـ تحميل اللّه ذنوب أُمّته وشيعته عليه صلى الله عليه وآله ثمّ غفرانها له.

٢ ـ ما فرّط به من ترك الأُولى.

٣ ـ كان مذنباً في زعم المشركين.

وقد تناول السيّد الطباطبائي رحمه الله وجوه التفاسير لكلمة «الفتح»، فقال: «وقيل المراد بالفتح، فتح مكّة فالمراد بقوله ﴿**إنّا فتحنا لك**﴾ إنّا قضينا لك فتح مكّة، وفيه أنّ القرائن لا تساعده.

وقيل: المراد به فتح خيبر، ومعناه ـ على تقدير نزول السورة عند مرجع النبي صلى الله عليه وآله من الحديبية إلى المدينة ـ إنّا قضينا لك فتح خيبر، وحال هذا القول أيضاً كسابقه.

وقيل: المراد به الفتح المعنوي وهو الظفر على الأعداء بالحجج البيّنة والمعجزات الباهرة التي غلب بها كلمة الحقّ على الباطل وظهر الإسلام على الدين كلّه، وهذا الوجه وإن كان في نفسه لا بأس به لكنّ سياق الآيات لا يلائمه».[1]

ثمّ إنّه رحمه الله انتقى الرأي الثالث، أي (صلح الحديبية)، وقال:

---

١. الميزان ١٨: ٢٥٧.

«والمراد بهذا الفتح على ما تؤيّده قرائـن الكـلام هـو مـا رزق اللّـه نبيّه صلى الله عليه وآله من الفتح في صلح الحديبية».[١]

ثمّ أورد رحمه الله قرائن يعلل فيها نزول السورة بأسباب النزول.

ثمّ تناول رحمه الله تفسير قوله تعالى ﴿**ليغفر**﴾، فقال:

«اللام في قوله: ﴿**ليغفر**﴾ للتعليل على ما هو ظـاهر اللـفظ فـظاهره أنّ الغرض من هذاالفتح المبين هو مغفرة ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، ومن المعلوم أن لا ربط بين الفتح وبين مغفرة الذنب ولا معنى معقولاً لتعليله بالمغفرة. وقول بعضهم فراراً عن الإشكال: إن اللام المكسورة في ﴿**ليغفر**﴾ لام القسم، والأصل ليغفرنّ، حذفت نون التوكيد وبقي ما قبلها مـفتوحاً للدلالة على المحذوف [فهو]* غلط لا شاهد عليه من الاستعمال».[٢]

وأضاف السيّد كذلك:

«وكذا قول بعض آخر فراراً عن الإشكـال: (إنّ العـلّة هـو مـجموع المغفرة وما عطف عليه من إتمام النعمة والهداية والنصر العزيز من حيث المجموع فلا ينافي عدم كون البعض أي مغفرة الذنب فـي نـفسه عـلّة للفتح) كلام سخيف لا يغني طائلاً فإنّ مغفرة الذنب لا هي علّة أو جـزء علّة للفتح ولا مرتبطة نوع ارتباط بما عطف عليها حتى يوجّه دخـولها في ضمن علله، فلا مصحّح لذكرها وحدها ولا مع العلل وفي ضمنها.

وبالجملة هذا الإشكال نعم الشاهد على أنّ ليس المراد بالذنب فـي

١. المصدر السابق: ٢٥٦.

*. زيادة للتوضيح.

٢. الميزان للطباطبائي، الآيات الأولى من سورة الفتح.

الآية هو الذنب المعروف وهو مخالفة التكليف المولوي، ولا المراد بالمغفرة معناها المعروف وهو ترك العقاب على المخالفة المذكورة، فالذنب في اللغة على ما يستفاد من موارد استعمالاته هو العمل الذي له تبعة سيئة كيفما كان، والمغفرة هي الستر على الشيء وأمّا المعنيان المذكوران المتبادران من لفظي الذنب والمغفرة إلى أذهاننا اليوم أعني مخالفة الأمر المولوي المستتبع للعقاب وترك العقاب عليها فإنّما لزماهما بحسب عرف المتشرعين.

وقيام النبي صلى الله عليه وآله بالدعوة ونهضته على الكفر والوثنية فيما تقدّم على الهجرة وإدامته ذلك وما وقع من حروب والمغازي مع الكفار والمشركين فيما تأخّر عن الهجرة كان عملاً منه صلى الله عليه وآله ذا تبعة سيّئة عند الكفّار والمشركين وما كانوا ليغفروا له ذلك ما كانت لهم شوكة ومقدرة، وما كانوا لينسوا زهوق ملّتهم وانهدام سنّتهم وطريقتهم، ولا ثارات من قتل من صناديدهم دون أن يشفوا غليل صدرهم بالانتقام منه وإمحاء اسمه وإعفاء رسمه غير أنّ اللّه سبحانه رزقه صلى الله عليه وآله هذا الفتح وهو فتح مكّة أو فتح الحديبية المنتهي إلى فتح مكّة فذهب بشوكتهم وأخمد نارهم فستر بذلك عليه ما كان لهم عليه صلى الله عليه وآله من الذنب وآمنه منهم.

فالمراد بالذنب ـ والله أعلم ـ التبعة السيّئة التي لدعوته صلى الله عليه وآله عند الكفّار والمشركين وهو ذنب لهم عليه كما في قوله موسى لربّه: ﴿**ولهم عليّ ذنب...**﴾ *، وما تقدّم من ذنبه هو ما كان منه صلى الله عليه وآله بمكّة قبل الهجرة وما

---

* . لقد مرّت عليك أيها القارئ اللبيب قصّة موسى عليه السلام وتوضيح هذه الآية، وسنوضّح هنا أيضاً معنى الذنب من طريق آخر في هذه الآية بإذنه تعالى.

تأخّر من ذنبه هو ما كان منه بعد الهجرة، ومغفرته تعالى لذنبه هي ستره عليه بإبطال تبعته بإذهاب شوكتهم وهدم بنيتهم، ويؤيّده ما يتلوه من قوله: ﴿**ويتمّ نعمته عليك**﴾ إلى أن قال ﴿**وينصرك الله نصراً عزيزاً**﴾».[1]

نحن نفهم من الآيات الكريمة، وما أورده العلاّمة الطباطبائي رحمه الله ومن ذهب هذا المذهب، أنّ الفتح الذي مَنّ الله به على الرسول صلى الله عليه وآله مختصّ به فقط، دون الآخرين.

فالإشكال الأوّل على هذا التفسير أنّ فتح مكه أو صلح الحديبية هو فتح مبين ذو عوائد قد تمّ لأطراف ومنهم الكافرون، ولو لمدّة قصيرة، فكيف يُشْرَك بفتح الخاص برسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين أجمع والمشركين من قريش!

والإشكال الثاني ما نلاحظه في قول العلاّمة رحمه الله الذي مرّ آنفاً:

«ومن المعلوم أنْ لا ربط بين الفتح وبين مغفرة الذنب».

وكذلك قوله رحمه الله:

«فإنّ مغفرة الذنب لا هي علّة أو جزء علّة للفتح».

فتصوّر رحمه الله، وأغلب المفسّرين الذين ذهبوا هذا المذهب، أنّ كلمة فتحنا بمعنى الفتح العسكري أو النصر الربّاني، بيد أنّ هذه الكلمة التي نحن بصدد توضيحها، قد أتت بمعانٍ كثيرة في القرآن الكريم، ويفهم معناها من خلال الآيات السابقة أو اللاحقة لها.

ومن معاني هذا الفتح، ما جاء في المادّيات، كقوله تعالى:

---

١. الميزان في تفسير القرآن للعلامة الطباطبائي، الآيات الأُوَل من سورة الفتح.

﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾.[١]

ومنها في المعنويّات، كقوله سبحانه:

﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو﴾.[٢]

ومنها في المادّيات والمعنويّات، كقوله عزّ وجلّ:

﴿ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾.[٣]

وكذلك بمعنى العذاب والبلاء، كقول المولى:

﴿حتّى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذابٍ شديد﴾.[٤]

وأيضاً بمعنى القضاء، كقوله عزّ وجلّ:

﴿قل يجمع بيننا ربّنا ثمّ يفتح بيننا بالحقّ﴾.[٥]

وبمعنى البشارة، كقوله تعالى بعد تناوله تاريخ وصفات بني إسرائيل:

﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدّثونهم بما فتح اللّه عليكم ليحاجّوكم عند ربّكم﴾.[٦]

وفي موطن آخر قال تعالى:

﴿ولمّا جاءهم كتاب من عند اللّه مصدّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمّا جاءهم ما عرفوا به كفروا به فلعنة اللّه على

---

١. القمر: ١١.
٢. الأنعام: ٥٩.
٣. الأعراف: ٩٦.
٤. المؤمنون: ٧٧.
٥. سبأ: ٢٦.
٦. البقرة: ٧٦.

الكافرين﴾.[١]

ومنها بمعنى الوعد أو يوم الفصل كقوله عزّ وجلّ، بعد أن حذّر الكافرين من يوم الفصل وضرب لهم الأمثال:

﴿**ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين* قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون**﴾.[٢]

فمن خلال آيات القرآن المذكورة، نفهم أنّنا يجب علينا أن نستوحي معنى كلمة الفتح الواردة في السورة من خلال ما يدور حولها من آيات، كما استوحينا معنى كلمتها من خلال ما سبقها أو لحقها من آيات، فإذن هي لا تدلّ على النصر والفتح العسكري، كما ذهب إليه جمع غفير من المفسّرين.

تحقيق الموضوع:

إنّ العالم المنصف البصير، والقارئ اللبيب، عندما يتلو الآيات الثلاث الأُولى من هذه السورة يجدها تتعلّق بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله خالصة له.

وأنّي أستغرب لسرقة المفسّرين آيات رسول اللّه صلى الله عليه وآله وتخصيصها لغيره! فنحن نجد في الآيات الثلاث القصيرة في بداية هذه السورة، أنّ اللّه قد ذكر ضمير «ك» العائد إليه صلى الله عليه وآله ستّ مرّات، وهي:

«لك.. لك.. ذنبك.. عليك.. يهديك.. ينصرك».

١. البقرة: ٨٩.
٢. السجدة: ٢٨ ـ ٢٩.

فلا يفهم من هذه الآيات الفتوحات العسكرية، أو صلح الحديبيّة، أو الظفر على الأعداء بالحجج والمعجزات، وليس هناك أيّ قرينة عليها، وبمجرّد نزولها بعد رجوعه صلى الله عليه وآله من الحديبية في الطريق، أو في المدينة، لا يدلّ على أنّه فتح مكّة، أو النصر في صلح الحديبية.

وكذلك نحن لم نشاهد كلمات واردة في القرآن الكريم فسّرت بسبب نزول السورة، كي نجزم ونعترف بأنّ هذا الفتح في هذه السورة يقصد منه الصلح، أو فتح مكّة.

وقد أخرج البخاري ومسلم والترمذي، عن أنس، ما يدلّ على خلاف ذلك، حيث قال:

«أُنزلت على النبيّ صلى الله عليه وآله ﴿**ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر**﴾ بعد مرجعه من الحديبية فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: **لقد نزلت عليّ آية أحبّ إليّ ممّا على الأرض**، ثمّ قرأها عليهم فقالوا: هنيئاً مريئاً لك يا رسول الله قد بيّن لك ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت ﴿**ليدخل المؤمنين...**﴾».[1]

وقد علّل العلاّمة كلمة الفتح في هذه السورة مباشرة، وجعل الذنب معلولاً لها، بيد أنّنا قد بيّنا من خلال آيات القرآن الكريم أن كلمة الفتح تكون معلولة للعلّة، وهي الآيات المحيطة بها، فكذلك في هذه السورة، فإنّ كلمة الفتح هي معلولة لعلّة غفران الذنب.

أمّا كلمة الذنب، فإن دارت بين عبدين من عباد الله فيمكن حملها على المعنى اللغوي، ولكن إذا ما خاطب بها المولى عبده، وكذا العبد

١. أسباب النزول لجلال الدين السيوطي: ٣٤١؛ أسباب النزول للواحدي النيسابوري: ٣٨٢.

مولاه في دعائه ومناجاته، فهي تدلّ على المعنى الشرعي وليس المعنى اللغوي، وإلاّ لتغيّر الكثير من معاني آيات القرآن الكريم بحملها على غير ما هي عليه، وكذا الأدعية والمناجاة تكون سخيفة ولا معنى لها! ولهذا نجد أنّ موسى عليه السلام عندما خاطب ربّه: ﴿**ولهم عليّ ذنب**﴾ أنّه قصد عليه السلام ذنبه عند اللّه عزّ وجلّ، وقد بيّنّاه في التحقيق.

ولذا يفهم من الآيات المحيطة بكلمة الفتح، أنّه فتح متعلّق بغفران ما تقدّم من الذنب وما تأخّر عنه صلى الله عليه وآله.

فيتّضح لنا أنّ الفتح هنا بمعنى البشارة الكبرى والواضحة لما غفره اللّه من ذنوب رسول اللّه صلى الله عليه وآله السابقة واللاحقة فيما يجري بين العبد وربّه، كآية:

﴿**يا أيّها النبيّ لم تحرّم ما أحلّ اللّه لك**﴾.[1]

﴿**وتخشى الناس واللّه أحقّ أن تخشاه**﴾.[2]

وقد ذكر صاحب موسوعة بحار الأنوار، أكثر من عشر روايات حول هذا الموضوع، تدلّ على أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله لم يعارض من أنكر عليه واعترض على شدّة تهجّده واجتهاده في العبادة على أنّه قد غفر اللّه له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، بل كان يقول صلى الله عليه وآله: **أفلا أكون عبداً شكوراً؟** ومن هذه الروايات ما يلي:

عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال عليّ بن الحسين عليه السلام:

---

١. التحريم: ١.

٢. الأحزاب: ٣٧.

«انّ جدّي رسول اللّه صلى الله عليه وآله قد غفر اللّه ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، فلم يدع الاجتهاد له، وتعبّد بأبي هو وأُمّي حتّى انتفخ الساق، وورم القدم، وقيل له: أتفعل هذا وقد غفر اللّه لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً»؟(١)

وكذلك ما عن أبي جعفر عليه السلام، قال:

«كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول اللّه لِمَ تتعب نفسك وقد غفر اللّه ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فقال: يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً»؟(٢)

وفي حديث جابر بن عبداللّه مع زين العابدين عليه السلام وقد اعترض عليه لاجتهاده في العبادة ونصحه بقوله:

«... يابن رسول اللّه أما علمت أنّ اللّه إنّما خلق الجنّة لكم ولمن أحبّكم، وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم، فما هذا الجهد الذي كلّفته نفسك؟! فقال له عليّ بن الحسين عليه السلام: **يا صاحب رسول اللّه، أمّا علمت أنّ جدّي رسول اللّه صلى الله عليه وآله قد غفر اللّه ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، فلم يدع الاجتهاد له، وتعبّد ـ بأبي هو وأُمّي ـ حتى انتفخ الساق وورم القدم، وقيل له: أتفعل هذا وقد غفر اللّه لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً»؟**(٣)

هذا المعنى الأوّل لهذه الآية.

وأمّا المعنى الثاني لها، فهو أنّ الإنسان المؤمن هدفه الأقصى في

١. بحار الأنوار ١٦: ١٤٣/٢٨٧، نقلاً عن أمالي الشيخ: ٤٧ ـ ٤٨.
٢. بحار الأنوار ١٦: ٥٩/٢٦٤، نقلاً عن أصول الكافي ١: ٨٢.
٣. بحار الأنوار ٤٦: ٧٥/٧٩، نقلاً عن المناقب لابن شهرآشوب.

الحياة أن يرضى اللّه سبحانه عنه.

فهو يصبح ويمسي بين خوف ورجاء، خائفاً من ذنبه، وراجياً رحمة ربّه الكريم، فلا يدري ماذا سيفعل اللّه به غداً في المحشر أمام الخلائق، أيفضحه أمام الناس ويخزيه، ولا يقبل منه عملاً، أم يغضّ النظر عمّا اجترح من سيّئات الأعمال، ويلقي عليه نظرة رحيمة، ويسلك به إلى جنّة النعيم؟

وهذا الحال كان وما زال يشمل جميع من في الأرض منذ أول الخليقة إلى يوم القيامة حتى الأنبياء، إلاّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله. فلقد بشّره اللّه بأنّه لا كتاب ولا حساب عليه، وقد أعطاه هذا الوسام العظيم وهذا الشرف الكبير وهذا التكريم ما لم يعطِ أحداً من الناس، فهو وسام «**الفتح المبين**» وهي البشارة الواضحة بالرضى الكامل الذي ما زال الانسان يجهد لنيله من ربّه الكريم.

ومن معطيات هذا الفتح المبين، بشارته صلى الله عليه وآله بأرجى آية في القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿**ولسوف يعطيك ربّك فترضى**﴾[1] التي تدلّ على الشفاعة الكبرى في أُمّته كما حفلت بهذا المفهوم الروايات والتفاسير العامّة والخاصّة.

ويتجسّد معنى هذه الآية من خلال روايات أشارت إلى حال الخلائق جميعاً يوم الحشر، يوم البروز للّه الواحد القهّار وما يحصل للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله فيه من الجاه والمقام عند ربّه الأعلى، وما يعانيه

---

١. الضحى: ٥.

الخلائق يومئذ حتى الأنبياء، ومنها ما عن أبي جعفر عليه السلام، قال:

«لمّا نزلت هذه الآية (وجيء يومئذٍ بجهنّم) سئل عن ذلك رسول اللّه صلى الله عليه وآله فقال: أخبرني الروح الأمين أنّ اللّه -لا إله غيره- إذا جمع الأوّلين والآخرين، أُتي بجهنّم تقاد بألف زمام، أخذ بكلّ زمام مائة ألف ملك من الغلاظ الشداد، لها هدّة وتغيّظ وزفير، وإنّها لتزفر الزفرة، فلولا أنّ اللّه عزّ وجلّ أخّرهم إلى الحساب لأهلكت الجمع، ثمّ يخرج منها عنق يحيط بالخلائق: البرّ منهم والفاجر، فما خلق اللّه عزّ وجلّ عبداً من عباده، ملكاً ولا نبيّاً إلاّ نادى: ربّ! نفسي نفسي، وأنت يا نبيّ اللّه تنادي أُمّتي أُمّتي».[1]



١. بحار الأنوار ٧: ١/١٢٥، نقلاً عن أمالي الصدوق؛ الكافي ٨: ٤٨٦/٣١٢، وقد أخرج البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجة، وأحمد هذا الحديث بألفاظ مقاربة.

إبراهيم عليه السلام*

آية المتعلّقة بالبحث:

﴿قال ربّي أرني كيف تُحيي الموتى قال أَوَلَم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي﴾[1]

* * *

قبل أن نشرع ببحث وتحقيق هذه الآية المباركة، أحببت تزويد القارئ الكريم، على نحو الإجمال، بمقطع تاريخي حول الجوّ الديني والأفكار والعقائد السائدة للحضارة السابقة والحضارة التي عايشها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فإنّها لا تخلو من فائدة، لورود آيات قرآنية عن لسانه عليه السلام تصوّر لنا الأجواء الدينية آنذاك.

تشير الأبحاث والدراسات التاريخية، أنّ المعتقدات الدينية التي سادت خلال الحضارات الزراعية المنتشرة في الأقسام الشمالية من

---

*. أوردنا هذا البحث بعد البحث المتعلّق بالنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله لاقتضاء سياق تحقيقنا.

١. البقرة: ٢٦٠.

العراق، خلال الفترة (٥٠٠٠ ـ ٨٠٠٠ ق.م) والتي سبقت الحضارة السومرية والبابلية، هي عبادة الخصوبة وكلّ ما يساعد على وفرة الإنتاج في الحياة، وقد رمز سكّان تلك المناطق لهذه العبادة بالدمى المصوّرة للآلهة الأُمّ. والدافع الذي دعى سكّان تلك المناطق لعبادة الخصوبة، هو أنّهم رأوا أنّها العامل الحيويّ الذي يتحكّم في حياتهم.

وبما أنّ الأمطار لها دور مهمّ في خصوبة الأرض ووفرة الإنتاج والتي كانت متذبذبة في المناطق المذكورة، لأنّ الخصوبة بدت لا قيمة لها بلا مطر ذي كميّة كافية لنموّ الزرع الذي يعتبر مادّة غذائية أساسية للإنسان والحيوان، لذا دفع قاطنيها إلى أن يتّجهوا بأنظارهم إلى العوامل الجوّية المؤثّرة على المطر والزرع و الحصاد، أكثر من اهتمامهم بالخصوبة وكلّ ما يولّد وفرة الإنتاج.

فمن هنا تبلورت فكرة دينية جديدة على مسرح أرض الرافدين، تعتمد في طقوسها على قدسية العوامل الجوّية المؤثّرة على المطر والزرع والحياة، والنظر إلى الماء على أنّه أساس الحياة. فأكثر ملاحم وأساطير حضارة سومر و بابل التي عايشها النبيّ إبراهيم عليه السلام قد أشارت إلى تلك العوامل وعظّمتها على أنّها تمثّل فعلاً العوامل الجوّية المختلفة أو أنّها تحتضن تلك العوامل.

وبديهي أنّ المناطق ذات الأمطار الشحيحة أو المتذبذبة لا يمكنها استعياب كثافة سكانية عالية، لاختلال التوازن بين عدد السكان وكمية الموادّ الغذائية، ولهذا السبب سلكت الجماعات المهاجرة القسم الجنوبي من العراق، لأنّ القسم المذكور كان آنذاك خال من البشر، وكثرة أهواره

بما تحتويه من أسماك و طيور توفّر الغذاء السريع لمن يحطّ الرحال فيها، ومن هنا ترسّخت فكرة عبادة القوى الطبيعية المؤثّرة على المطر والزرع والحصاد، وانتشرت بين أولئك الأقوام.

وتؤكّد الدراسات على أنّ سكّان جنوب العراق كانوا من حملة الأفكار الدينية الجديدة، تختلف عن أفكار سكّان شماله الدينية التي كانت تتمثّل بالخصوبة وكلّ ما يسبّب الوفرة في الإنتاج، بظهور المعبد كمؤسّسة له طقوس و برنامج خاصّ به في هذه المناطق. فهذا الظهور يؤكّد على تبنّي سكّان جنوب العراق أفكاراً دينية تختلف عن أفكار سكّان شماله.[1]

وإيمان سكّان تلكما الحضارتين بتلك العوامل، ينشأ من إحساسهم بتأثيرها على حياتهم و محاصيلهم الزراعية، فحوّلوها إلى آلهة واعتبروها أزلية أيضاً، وكان من أبرز هذه الآلهة:

١ـ الإله آنو (إله السماء)، ويقع ترتيبه من حيث الأهمّية، في قمّة الآلهة السومرية والبابلية ويرمز إليه بشكل نجمة ذي ثمان جهات التي تشير إلى جميع جهات الكون الجغرافيه، وتهدف إلى التأكيد أنّ الإله آنو موجود في كلّ مكان من الكون. ويعتقد سكّان سومر و بابل أنّ آنو خلق آلهة المرض وآلهة الموت وأنّ الأرض زوجته، وأنّه ـ أي آنو ـ هو السبب في معظم ما يصيبهم من خير أو شرّ.

---

١. لمزيد الاطلاع راجع موسوعة حضارة العراق، ج ١، المعتقدات الدينية، ط دار الحرّية، بغداد ١٩٨٤م.

٢ـ الإله إينليل (إله الهواء)، ويأتي في المرتبة بعد الإله آنو، وقد لقّبته النصوص المسمارية المختلفة بعدّة ألقاب، منها: سيّد جميع البلدان، وبالجبل الكبير، والإله الذي يقرّر المصائر، والإله الذي لا رجعة لقراراته، والإله الذي يمتلك بين يديه ألواح القدر، وهو الذي قام بفصل السماء عن الأرض، وهو الذي خلق الفأس أداة العمل.

وإضافة على ذلك فانّ العراقيّين القدامى كانوا يرون في الإلهة إينليل، الإله الذي لا يردّ له طلب، ولذلك نصحت والدة الآلهة ننليل ابنتها بالاستجابة لغزل الإله إينليل، لأنّ ممانعتها لا تنفع بشيء، وكانوا يرون في القمر أنّه الجرم الوحيد في السماء الذي يماثل الشمس تقريباً في حجمه الظاهري، ولكنّه متلوّن ويضيء مرّة ويختفي مرّة أُخرى، وليس له ثبات لا في شكله ولا في ضوئه كما هو حال الشمس، ولذلك شبّهوا سلوكيات القمر بسلوكيات الأبناء غير الشرعيّين.

ورمز الإله إينليل يشبه رمز والده الإله آنو تماماً.

٣ـ الإله أنكي (إله الأرض وإله المياه الجوفية)، ومرتبته بين الآله تأتي بعد مرتبة الإله إينليل. وقد اعتبرت النصوص المسمارية هذا الإله، إله الحكمة أيضاً، وبحوزته القوى الإلهية. وهو الذي يطرد الجنّ والأرواح الشرّيرة من أجسام المرضى بمساعدة ابنه الإله (اسالوخي)، ليوفّر لهم الصحّة والسعادة.

٤ـ الإله أوتو (إله الشمس)، مع أنّه من جملة الآلهة الرئيسية، إلاّ أنّه يأتي في المرتبة من بعد مرتبة إله القمر، والنصوص المسمارية قد أشارت بهذه المرتبة للآلهة أوتو لأنّها تعتبره ابناً لإله القمر.

وإله الشمس الذي يستطيع أن يكشف بضيائه الظلمات، هو قادر على رؤية كلّ شيء، لذلك أعتبر إله الحقّ والعدل، وكذلك فقد اعتبر سيّد الكهّانة والعرّافة.

وكانت هناك آلهات متمثّلة للسلطة السياسية، فمن أشهرها الآلهة ننجرسو ومردوخ وآشور، وكذلك تأليه عدد من الملوك أنفسهم.[1]

أنظر رمز بعض الآلهة في الصفحة اللاحقة.

* * *

١. لمزيد التفصيل راجع المصدر السابق.



رمز الاله إنليل



رمز الاله آنو



رمز الاله انكي



نحت يمثل اله الشمس



نحت يمثل اله القمر



دمى لالهة الام

بعد هذا البيان عن مسرح الحياة الدينية السابقة والمعاصرة لأبي الأنبياء، هل من الممكن أو المحتمل أن يكون عليه السلام قد عبد تلك الآلهة أو بعضها أو جعلها مربوبة لفترة زمنيّة حتى وصل إلى التوحيد الإلهي؟

ذهب بعض إلى هذا الرأي لمّا شاهد ظاهر الآيات القرآنية تشير إلى ذلك، ولكنّنا نقول:

أفادنا القرآن الكريم بمحكم آياته الشريفة، أنّ النبيّ إبراهيم عليه السلام لم يتّخذ منها معبوداً قطّ، وكان على يقين لا يشوبه شك من أنّ ما يعبده أبناء مجتمعه ليس إلاّ صوراً من خلق اللّه سبحانه، وتخيّلات بشر يعايش الخرافة وأجواء التخلف الفكري، فمن هنا يتبيّن لنا أنّ الآيات التي ظهرت على لسانه عليه السلام، والتي تبدو انعكاساً لحالة الشرك والتشكيك، ما هي إلاّ أسلوباً من أساليب الحوار العلمي الهادئ، والمجادلة بالتي هي أحسن، الذي نهجه أبو الأنبياء لترسيخ فطرة التوحيد في عقول أبناء مجتمعه آنذاك؛ ودليل قولنا هذا، هو:

أوّلاً: ظهور و تكرّر عبارة الاستدلال والبرهان (حجّة) في آيات الحوار بين إبراهيم عليه السلام وأبناء زمانه، كـ: ﴿**وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيم**﴾[1] و: ﴿**وحاجّه قومه قال: أتحاجّونّي في اللّه وقد هدان**﴾[2] وكذلك: ﴿**ألَم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربّه**﴾.[3]

ثانياً: آيات إسلامه وأنّه على شريعة التوحيد الإلهي، وهي:

---

١. الانعام: ٨٣.
٢. الأنعام: ٨٠.
٣. البقرة: ٢٥٨.

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانيّاً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾.[١]

﴿قل صدق اللّه فاتّبعوا ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾.[٢]

﴿إنّ إبراهيم كان أُمّةً قانتاً للّه حنيفاً ولم يك من المشركين﴾.[٣]

﴿ثمّ أوحينا إليك أنِ اتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾.[٤]

فمن الواضح أنّ «ما» النافية، وكذلك «لَمْ» التي هي إحدى الأدوات الجازمة التي تدخل على الفعل المضارع فتحوّله إلى معنى ماضي، وتنفيه في الماضي مطلقاً، وهذا يوحي قطعاً بأنّ أبا الأنبياء لم يرتدي من ثياب الشرك شيئاً قطّ.

* * *

أمّا الآية المتعلّقة بالبحث، حول طلب ابراهيم عليه السلام رؤية كيفيّة إحياء الموتى من اللّه عزّ وجل، فقد صُوّر لها من خلال التفاسير وجوه، وهي:

١ـ بسبب توعّده من قبل نمرود إن لم يحيي اللّه الموتى فإنّه سوف يقتل، ولذلك طلبها، كي يطمئنّ قلبه بعدم قتله على يد جبّار زمانه.

٢ـ طلب رؤية الإحياء لقومه، كما طلبها موسى عليه السلام لقومه.

٣ـ طلب الرؤية كان بدافع الاستطلاع، لمعرفة هل هو صاحب الخلّة (خليل اللّه) آنذاك، أم هناك غيره من العباد.

---

١. آل عمران: ٦٧.
٢. آل عمران: ٩٥.
٣. النحل: ١٢٠.
٤. النحل: ١٢٣.

٤ـ كان بسبب تعجّبه عليه السلام عندما رأى جيفة على ساحل بحر تنهشها الحيتان وسباع البرّ وكواسر الطير، ثمّ حملت هذه الوحوش بعضها، فمزّق القويّ الضعيف، وتلاشى الجميع بعضه في بعض.

أمّا التفسير الأوّل للآية فهو ضعيف، لأنّ النصّ القرآني الذي أشار إلى تحطيم النبيّ الأصنام، الذي سبق تهديد نمرود، خير دليل على أنّه عليه السلام لم يعتره هاجس القتل، وكذلك حواره مع نمرود كان قد وافقه جدلاً على أنّه نمرود يحيي ويميت، ولكنّه عليه السلام انتقل إلى دليل آخر ألقم نمرود الحجر. فليس هناك داعٍ لنمرود كي يطلب منه البرهان على ذلك الإحياء.

وأيضاً أفادت عدّة روايات عن أهل البيت عليهم السلام على أنّ إبراهيم عليه السلام لم يعتره خوف القتل أبداً، منها ما رواه صاحب البحار عن أمالي الصدوق رحمه الله، حين قذف النبيّ إبراهيم عليه السلام بالمنجنيق نحو النار، وسأله جبرئيل عليه السلام: «**هل لك حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا**».(١)

وكذلك ما ورد في البحار عن كتاب الخصال، حيث جاء فيه:

«سألت أبا عبدالله الصادق عليه السلام عن موسى بن عمران عليه السلام لمّا رأى حبالهم وعصيّهم، كيف أوجس في نفسه خيفة ولم يوجسها إبراهيم عليه السلام حين وضع في المنجنيق وقذف به في النار؟ فقال عليه السلام: **إنّ إبراهيم عليه السلام حين وضع في المنجنيق كان مستنداً إلى ما في صلبه من أنوار حجج الله عزّ وجل، ولم يكن موسى عليه السلام كذلك، فلهذا أوجس في نفسه خيفة، ولم يوجسها**

---

١. البحار ١٢: ٣٥/ ١١.

إبراهيمعليه السلام».[١]

وأمّا التفسير الثاني الذي يقول إنّ إبراهيمعليه السلام طلب الرؤية لقومه كما طلبها موسىعليه السلام لقومه، فهو كذلك ضعيف، حيث لا نصّ قرآني يساعد على هذا التوجيه، ولا روايات تسعفنا فيه، بل كلّ ما هناك هو سؤال الخليل ربّه رؤية إحياء الموتى لاطمئنان قلبه.

والنبيّ موسىعليه السلام أيضاً طلب الرؤية لنفسه، وليس لقومه فقد أوردنا تحقيق هذا البحث في كتابنا الاسم الأعظم، حيث أهلك اللّه مجموعة من بني إسرائيل بالصاعقة وهي النار السماوية بظلمهم، أمّا موسى فقد صعق وغشي عليه بسبب التجلّي.[٢]

وأمّا التفسير الثالث، لمعرفة مقام الخلّة ضعيف أيضاً، لأنّ (لَمْ) كلمة نفي فإذا دخل عليها ألف الاستفهام تصبح كلمة استفهام تقريري، أو توبيخ، أو إستغراب تركّز على مسألة واضحة وعلم يقين بين اثنين أو أكثر، حسب مورد الاستفهام أو التوبيخ أو الاستغراب، كما في قوله تعالى عن لسان فرعون مخاطباً موسىعليه السلام: ﴿**أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا**﴾.[٣] وقوله تعالى مخاطباً آدم وزوجهعليهما السلام: ﴿**أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ**﴾.[٤]

أيضاً قوله تعالى مخاطباً الرسول الأعظمصلى الله عليه وآله والبشر جميعاً: ﴿**أَلَمْ تَرَ**

---

١. البحار ١٢: ٣٥/ ١٢، ولمزيد الإطّلاع على روايات أُخر، راجع المصدر، ص ٣٥ وما بعدها.
٢. لمزيد الاطّلاع حول هذه المسألة وبحث التجلّي، راجع الكتاب المذكور، ص ٦٢ ـ ٧١، ط: مؤسسة البلاغ، بيروت ٢٠٠١م.
٣. الشعراء: ١٨.
٤. الأعراف: ٢٢.

كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل * ألَم يجعل كيدهم في تضليل﴾.[١]

أو قوله تعالى: ﴿**ألَم يروا إلى الطير فوقهم**﴾.[٢]

وقال صاحب كتاب الفريد، في بيانه للاستفهام الوارد في الآية:

«وقوله ﴿**أوَلَم**﴾ الاستفهام بمعنى التقرير والإيجاب، أي أوَلَست قد آمنت. ﴿**قال بلى**﴾ إيجاب لما بعد النفي. وقد ذكرت فيما سلف من الكتاب أنّ الاستفهام مع النفي إذا أُريد به التقرير والإيجاب يكون جوابه ببلى، أي بلى آمنت».[٣]

فبعد هذا البيان نقول: من الواضح جدّاً إذا كان أصل الآية يتعلّق بمعرفة إبراهيم عليه السلام مقامه عند ربّه، وليس بأصل إحياء الموتى لاطمئنان قلبه وسكونه، فلا يزيد استمرار الحوار بين النبيّ وربّه الكريم، وكذلك عملية تقطيع الطير وإحيائها مرّة أُخرى بعد الاستفهام التقريري، يقين واطمئنان قلب النبيّ، لأنّ الاستفهام ذاته يجعل مسألة الخلّة مفروغاً منها، فيصبح إصرار النبيّ إبراهيم عليه السلام على مشاهدة الإحياء لأجل معرفة خلّته عند ربّه إصرار شخصية غير طبيعية وغير متوازنة ـ وحاشاه ـ وكذلك أمر المولى عزّ وجل بتقطيع الطير و إحيائها بإذنه يكون عبثاً ـ وتعالى ربّنا عن ذلك علوّاً كبيراً ـ.

وأمّا التفسير الرابع الذي يؤكّد على أنّ النبيّ إبراهيم عليه السلام طلب من

---

١. الفيل: ١ و٢.

٢. الملك: ١٩.

٣. الفريد في إعراب القرآن المجيد، لحسين بن أبي العزّ الهمداني (م ٦٤٣هـ) ١: ٥٠٣، ط: دار الثقافة، الدوحة، قطر.

المولى تعالى إحياء الموتى بعد تناسخها، فهو ينقسم قسمين:

الأوّل: الطلب كان لأجل المعرفة النظرية لإحياء الموتى، وليست العملية، لأنّها مجزية لاطمئنان القلب وسكونه.

الثاني: الطلب كان لأجل المشاهدة الفعلية للإحياء، لاطمئنان القلب.

ذهب إلى الرأي الأوّل محمّد رشيد رضا، صاحب تفسير المنار، متأثّراً بالمفسّر أبو مسلم، حيث نقل مقطعاً من تفسيره:

«ليس في الكلام ما يدلّ على أنّه فعل ذلك وما كلّ أمر يقصد به الامتثال. فانّ من الخبر ما يأتي بصيغة الأمر لاسيّما إذا أُريد زيادة البيان كما إذا سألك سائل كيف يصنع الحبر مثلاً؟ فتقول: خذ كذا وكذا يكن حبراً».[١]

ثمّ أضاف صاحب تفسير المنار قائلاً:

«وجملة القول: أنّ تفسير أبي مسلم للآية هو المتبادر الذي يدلّ عليه النظم».[٢]

ونجيب: توضيح فكرة إحياء اللّه الموتى لإبراهيم عليه السلام على ضوء القائلين بهذا التفسير، لا يبعث على اطمئنان وسكون قلب إبراهيم عليه السلام، حيث أنّه ـ كحدّ أدنى ـ يؤمن بأنّ اللّه لا يعزب عنه مثقال ذرّة في هذا الكون الرحيب، وأنّ اللّه بقدرته بدأ الخلق ثمّ ينشئ النشأة الآخرة، وأنّه على كلّ شيء قدير، بكلمة كن فيكون.

١. تفسير المنار: ٣: ٥٥ وما بعدها، ط: دار المعرفة، بيروت.

٢. لمزيد التفاصيل راجع المصدر.

فالتلميذ ـ مثلاً ـ يؤمن من خلال دراسته النظرية أنّ تركيب بعض العناصر مع بعض، ينتج عنها موادّ كيمياوية، فعندما يسأل أُستاذه أرني كيف تُصنع أو تَصنع المادّة الكذائية، فلا يتبادر إلى ذهن الأُستاذ أو إلى أحدٍ ممّن يسمعه أنّه يطلب من أُستاذه إعادة الدرس أو كتابة المعادلات الكيمياوية مرّة أُخرى، بل يفهم الجميع أنّه يريد الحالة العملية لما تعلّمه وآمن به نظريّاً، لاطمئنان قلبه، ويمكن للأُستاذ أن يسأله تقريراً أو استغراباً: أَوَلَم تؤمن بعد ثبوت تجربتها من خلال إنشاء مصانع لإنتاج تلك المواد الكيمياوية؟ فيقول التلميذ: بلى، ولكن ليطمئنّ قلبي.

فعند ذلك يأخذ الأُستاذ بيد هذا التلميذ إلى مختبر المدرسة ليريه عمليّاً كيف تتركب العناصر بعضها مع بعض لتعطي مادّة جديدة ليزداد التلميذ يقيناً.

فتركيب العناصر الوارد في مثال التلميذ، تعطي للسائل فرصة ليخوض تجربة تركيب العناصر وتكّون الموادّ بنفسه، ليشاهد عمليّاً ما آمن وتيقّن به نظريّاً، وأمّا من يقول بالتوضيح العلمي دون العملي، يجعل النبيّ إبراهيم عليه السلام دون المؤمنين إيماناً بالغيب، وغير متيقّن بالآخرة، بل يجعله شخصيّة في غاية السذاجة، لأنّ المسئلة تنظيريّاً مفروغ منها في مثال التلميذ، أمّا إبراهيم عليه السلام فهم يجعلونه في مرحلة النظريّات.

فيتبلور هنا القسم الثاني من التفسير الرابع، وهو طلب النبيّ إبراهيم عليه السلام المشاهدة الحسّية لاطمنان قلبه وسكونه بعد إيمانه بقدرة اللّه على إحياء الموتى، وهذا التفسير يؤيّده ظاهر الآية من خلال الحوار المتبادل بين الخليل وربّه المتعال، وكذلك تظافر روايات مدرسة أهل

البيت عليهم السلام بتأييد هذا التفسير، فمنها:

١ـ عن أبي بصير، عن أبي عبدالله عليه السلام:

«إنّ إبراهيم نظر إلى جيفة على ساحل البحر تأكله سباع البرّ و سباع البحر، ثمّ تحمل السباع بعضها على بعض فيأكل بعضها بعضاً. فتعجّب إبراهيم عليه السلام فقال: ربّ أرني كيف تحيي الموتى...الخ، فأخذ إبراهيم عليه السلام الطاووس والديك والحمام والغراب فقال الله عزّ وجلّ: فصرهنّ إليك أي قطّعهنّ ثمّ اخلط لحمهنّ وفرّقهنّ على عشرة جبال ثمّ خذ مناقيرهنّ وادعهنّ يأتينك سعياً، ففعل إبراهيم ذلك، وفرّقهنّ على عشرة جبال، ثمّ دعاهنّ فقال: أجبنني بإذن الله تعالى، فكانت تجمع ويتألف كلّ واحد وعظمه إلى رأسه وطارت إلى إبراهيم، فعند ذلك قال إبراهيم: إنّ الله عزيز حكيم». (١)

٢ـ عن أبي بصير أيضاً، عن أبي عبدالله عليه السلام:

«... ثمّ التفت فرأى جيفة على ساحل بعضها في الماء وبعضها في البرّ يجيء سباع البرّ فيأكل بعضها بعضاً وفسد بعضها عن بعض فيأكل بعضها بعضاً فعند ذلك تعجّب إبراهيم ممّا رأى، وقال: ربّ أرني كيف تحيي الموتى»؟ كيف يخرج ما تناسخ، هذه أُمم أكل بعضها بعضاً، قال: أولم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئنّ قلبي، يعنى حتى أرى هذا كما رأى الله الأشياء كلّها، قال: خذ أربعة من الطير فصرهنّ إليك ثمّ اجعل على كلّ جبل منهنّ جزءاً وتقطعهنّ وتخلطهنّ كما اختلطت هذه الجيفة في هذه السباع التي أكلت بعضها بعضاً، ثمّ اجعل على كلّ جبل منهنّ جزءاً ثمّ ادعهنّ يأتينك سعياً. فلمّا دعاهنّ أجبنه

---

١. بحار الأنوار ٧: ٣٦/٤، نقلاً عن تفسير العيّاشي.

وكانت الجبال عشرة».[١]

٣ـ عن صالح بن سهل الهمداني، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال:

«أخذ الهدهد والصرد والطاووس والغراب فذبحنّ و عزل رؤوسهنّ ثمّ نخر أبدانهنّ بالمنخار بريشهنّ ولحومهنّ وعظامهنّ حتى اختلط. ثمّ جزأهنّ عشرة أجزاء على عشرة جبال، ثمّ وضع عنده حبّاً و ماء، ثمّ جعل مناقيرهنّ بين أصابعه ثمّ قال: ائتينني سعياً بإذن الله فتطايرت بعضهنّ إلى بعض اللحوم والريش والعظام حتى استوت بالأبدان كما كانت وجاء كلّ بدن حتى التزق برقبته التي فيها المنقار. فخلى إبراهيم عن مناقيرهنّ فرفعن وشربن من ذلك الماء، والتقطن من ذلك الحب، ثمّ قلن: يا نبيّ الله أحييتنا أحياك الله. فقال: بل الله يحيي ويميت».[٢]

كذلك معظم تفاسير علماء المسلمين، خصوصاً تفاسير علماء مذهب أهل بيت النبوّة عليهم السلام قد تآزرت على أنّ طلب إبراهيم عليه السلام من المولى سبحانه هو المشاهدة الحسّية، لدفع وسوسة النفس والاضطراب القلبي، منها ما قال الشيخ الطوسي صاحب تفسير التبيان:

«إنّما سأله، لأنّه أحبّ أن يعلم ذلك علم عيان بعد إن كان عالماً به من جهة الاستدلال. وهو أقوى الوجوه».

وقال الشيخ الطبرسي صاحب مجمع البيان:

«(ورابعها) أنّه أحبّ أن يعلم ذلك علم عيان بعد أن كان عالماً به من

---

١. الكافي ٨: ٤٧٣/٣٠٥، وكذلك راجع تفسير العيّاشي ١: ١٤٢.
٢. تفسير العيّاشي ١: ٤٧٧/١٤٥.

جهة الاستدلال والبرهان، لتزول الخواطر ووساوس الشيطان، وهذا أقوى الوجوه».

وقال في تفسيره الثاني، جوامع الجامع:

«﴿**لكن ليطمئنّ قلبي**﴾ ليزيد سكوناً وطمأنينة بأن يضامّ العلم الضروري العلم الاستدلالي، وتظاهر الأدلّة أزيد للبصيرة. وأراد بطمأنينة القلب العلم الذي لا مجال فيه للشكّ».

وأفادنا محمد مرتضى الكاشاني صاحب تفسير المعين:

«سأل ذلك ليصير علمه عياناً».

وأشار سلطان محمّد الجنابادى من أعلام القرن الرابع، و صاحب تفسير بيان السعادة:

«فقال إبراهيم عليه السلام بعد العلم بذلك [الاستدلالي]*: إنّ علمي يهيّجني ويجعل قلبي مضطرباً في طلب العيان، فأطلب العيان ليطمئنّ قلبي».

وقال محمّد بن الحسن الشيباني، من أعلام القرن السابع، وصاحب تفسير نهج البيان:

«قال علماؤنا و مشايخنا ـ رضي اللّه عنهم ـ: لم يكن إبراهيم عليه السلام شاكّاً في ذلك، بل كان عالماً به. ولكن أحبّ أن يعلم ذلك من طريق المشاهدة كما علمه من جهة الدليل، فيزداد يقيناً إلى يقينه».

وأفادنا العلاّمة السيّد الطباطبايي، صاحب تفسير الميزان:

«وممّا ذكرنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسّرين: أنّ إبراهيم عليه السلام إنّما

---

*. إضافة منّا لمّا بيّنه المفسّر بعدة سطور.

سأل بقوله: ﴿ربّ أرني﴾ حصول العلم بكيفية حصول الإحياء دون مشاهدة كيفية الإحياء».

وزاد السيّد قائلاً:

«أنّ وجود الخطورات المنافية للعقائد اليقينية لا ينافي الإيمان والتصديق دائماً، غير أنّها تؤذي النفس، وتسلب السكون والقرار منها».

ويقول العلاّمة السيّد فضل الله، صاحب تفسير من وحي القرآن:

«... ولكنّها لا تمنع الهواجس الذاتية من أن تتحرّك في النفس في نطاق الأوهام الطارئة... ولهذا كانت الرغبة في المشاهدة من أجل تذويب كلّ ما يخطر في البال من أوهام».

وجاء في معاني مفردات هذا التفسير:

«﴿ليطمئن﴾: ليحصل الاطمئنان المطلق الذي لا مجال فيه للشكّ، والطمأنينة والاطمئنان: سكون النفس بعد انزعاجها واضطرابها».

وقال الشيخ محسن الفيض الكاشاني، صاحب تفسير الصافي:

«إنّما سأل ذلك ليصير علمه عياناً... لأزيدنّ بصيرة وسكون قلبي بمضامّة العيان إلى الوحي والبيان».

ويقول الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، صاحب تفسير الأمثل:

«وتلزم الإشارة هنا إلى أنّ إبراهيم عليه السلام طلب أن يرى مشهد البعث رؤية حسّية لكي يطمئنّ قلبه... ولكنّه كان يريد أن يدرك ذلك عن طريق الحسّ أيضاً».

ويفيدنا السيّد السبزواري صاحب تفسير مواهب الرحمن قائلاً

«أي قال إبراهيم: إنّي مؤمن بذلك ولكن المشاهدة والعيان يؤثّران في

استقرار النفس ورسوخ العلم في القلب، ويزداد بهما اليقين والوقوف على سرّ الإحياء وهذا ما لا يمكن دركه إلاّ بالمشاهدة والرؤية».

ويقول السيّد محمّدتقي المدرّسي، صاحب من هدي القرآن:

«﴿**وإذ قال إبراهيم... ليطمئنّ قلبي**﴾ ذلك أنّ الإيمان درجات، أعلاها درجة اليقين والاطمئنان، الذي يطرد تماماً شيطان الشك من النفس، ولا يعود الإنسان يرتاب أبداً».

فبظاهر النصّ القرآني والنصوص الروائية، وأيضاً تفسير قسم من العلماء البارزين في هذا العلم، نصل إلى أنّ إبراهيمعليه السلام عايش صراع التعجّب والاضطراب والحيرة مع ذاته، خلال ما رأى من تناسخ الكائنات، حتى طلب من المولى تعالى مشاهدة إحياء الموتى بالعين المادّية كي يطمئن قلبه، بعد أن آمن بقدرة اللّه سبحانه على الإحياء.

فالنصوص المذكورة كلّها تشير إلى أنّ خليل الرحمنعليه السلام كان يصارع حائل يحول بين قلبه المؤمن وبين اطمئنانه، وسعى لإزالته تماماً لرفع هذا الاضطراب، لحصول السكون القلبي والاستقرار النفسي، حيث قال صاحب التحقيق في كلمات القرآن الكريم، في معنى الاطمئنان:

«والتحقيق: أنّ الأصل الواحد في المادّة هو سكون بعد اضطراب، أي رفع الاضطراب واستقرار حالة السكون، ماديّاً أو معنويّاً».[١]

ثمّ قال السيّد المصطفوي:

«فالاطمئنان في القلب إنّما يتحصّل بنور اليقين والشهود، بحيث

---

١. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، السيّد حسن المصطفوي، مادّة (طمن).

يرتفع الاضطراب والتزلزل والتردّد».[١]

«واطمأنّ القلب ونحوه: سكن بعد انزعاج ولم يقلق».[٢]

فممّا أوردنا يظهر للعالم البصير والناقد الخبير بكلّ وضوح، أنّ الخليل عليه السلام قد انتابه التعجّب و خواطر ووساوس الشيطان[٣]، واضطراب وحيرة وشكّ حال بينه وبين إطمئنان قلبه، إذن فالخليل قد يعايش الشكّ بين مرحلتي الإيمان والاطمئنان (اليقين)، لأنّ «**سبب الحيرة الشكّ**»[٤] وكذلك «**ثمرة الشك الحيرة**».[٥]

وروايات أهل البيت عليهم السلام بيّنت أنّ النبيّ إبراهيم عليه السلام، قد انتابه الشك للحيلولة دون اطمئنان قلبه وسكونه، منها:

١ـ عن الحسين بن الحكم، قال: كتبت إلى العبد الصالح عليه السلام أخبره أنّي شاك، وقد قال إبراهيم: ﴿**ربّ أرني كيف تحيي الموتى**﴾ فإنّي أُحبّ أن تريني من ذلك. فكتب عليه السلام إليه: «**إنّ إبراهيم كان مؤمناً وأحبّ أن يزداد إيماناً وأنت شاك والشاكّ لا خير فيه**». وكتب إليه: «**إنّما الشكّ ما لم يأت اليقين. فإذا**

---

١. المصدر السابق.

٢. معجم ألفاظ الشخصية، الدكتور أحمد محمّد عبدالخالق، ط: مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت.

٣. أوردنا نصوصاً و تحقيقاً أنّ وسوسة الشيطان تعترى الأنبياء، وقد مرّ عليك أيّها القارئ الكريم في مواضيع سابقة هذه المسألة، أمّا في خصوص إبراهيم عليه السلام فإنّنا ننوّه بقول صاحب مجمع البيان: «لنزول الخواطر ووساوس الشيطان، وهذا أقوى الوجوه». وأيضاً قول: صاحب من هدي القرآن: «ذلك أنّ الإيمان درجات، أعلاها درجة اليقين والاطمئنان، الذي يطرد تماماً شيطان الشكّ من النفس، ولا يعود الإنسان يرتاب أبداً».

٤. غرر الحكم ودرر الكلم، الرقم: ١٠٦٥، ط: مكتب الإعلام الإسلامي للحوزة العلمية، قم.

٥. المصدر السابق، الرقم: ١٠٦٤.

جاء اليقين لم يجز الشكّ».[١]

فالرواية واضحة البيان بأنّ السائل إذا كان شاكّاً، فشكّه بأساس فكرة الإحياء وعدم الإيمان بقدرة اللّه تعالى، لا شكّ لازدياد اليقين، ولذلك كتب إليه الإمام «**والشاكّ لا خير فيه**»، لأنّ «**من كثر شكّه فسد دينه**».[٢]

ثمّ يقول له الإمام عليه السلام: «**إنّما الشكّ ما لم يأت اليقين، فإذا جاء اليقين لم يجز الشكّ**». وهي إشارة واضحة إلى إبراهيم عليه السلام أنّه عايش حالة الشكّ حتى وصل إلى مرحلة الإطمئنان واليقين.

والواقع أنّ الشكّ واليقين حالتان متباينتان، فإن اشتدّت الحالة الأولى ضمرت الثانية، وإذا اشتدت الحالة الثانية ضمرت الأولى، فإذا كمل اليقين امّحى الشكّ بالكامل، هذا ما نفهمه من روايات عديدة وردت عن لسان الأئمّة الأطهار عليهم السلام، منها ما ورد عن لسان أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، إذ قال: «**يسير الشكّ يفسد اليقين**»[٣]، أيضاً قوله عليه السلام: «**آفة اليقين الشكّ**»[٤].

٢ـ رواية نصر بن قابوس عن أبي عبداللّه عليه السلام، تكشف لنا بكلّ وضوح على أنّه عليه السلام قد عايش الحيرة والشكّ، إذ قال عليه السلام: «**إذا أحببت أحداً من إخوانك فأعلمه ذلك، فإنّ إبراهيم عليه السلام قال: ﴿ربّ أرني كيف تحيي الموتى قال أوَلَم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي﴾**».[٥]

---

١. الكافي ٢: ١/٣٩٩.
٢. غرر الحكم ودرر الكلم، الرقم، ١٠٥٦.
٣. غرر الحكم ودرر الكلم.
٤. غرر الحكم.
٥. الكافي ٢: ١/٦٤٤.

أي أخبر أخاك بما تكنّ له من محبّة ولا تجعله في شكّ وحيرة من ودادك إيّاه، وضرب الإمام عليه السلام الآية مثلاً لتشابه الحالة النفسية للطرفين اللذين يعايشان حالة الاضطراب وعدم السكون.

أمّا الرواية التي تنفى الشكّ عن إبراهيم عليه السلام مطلقاً كما عن صفوان بن يحيى الذي سأل أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قول اللّه لإبراهيم عليه السلام ﴿**أوَلَمْ تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي**﴾ أكان في قلبه شكّ؟ قال: «**لا، كان على يقين ولكن أراد من اللّه الزيادة في يقينه**».[1] فهي مردودة لأمرين:

الأوّل: القول الوارد عن لسان الإمام عليه السلام «**كان على يقين**» هو خلاف نص الآية القرآنية، إذ التقرير فيها عن الإيمان وليس الإيقان.

الثاني: أنّ ما يحول دون زيادة وتكامل اليقين هو الشكّ، ولا غير.

وقد وردت رواية عن أبي هريرة، من طرق العامّة مشيرة إلى شكّ الخليل عليه السلام، وهي:

أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله قال: «**نحن أحقّ بالشك من إبراهيم، إذ قال ربّ كيف تحيي الموتى قال أوَلَم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي**».[2]

وقد نفى كثير من علماء العامّة من خلال هذا الحديث شكّ إبراهيم عليه السلام و استبعدوه، ومن ذلك ما قال الشوكاني، في تفسيره لهذا الحديث:

«وأمّا قول النبيّ صلى الله عليه وآله: **نحن أحقّ بالشك من إبراهيم**، فمعناه أنّه لو كان شاكّاً لكنّا أحقّ به، ونحن لا نشكّ فإبراهيم أولى أن لا يشكّ، فالحديث

---

١. بحار الأنوار ٦٧: ٣٤/١٧٦.

٢. البخاري ٥: ١٦٣؛ ومسلم ١: ٩٢ و٧: ٩٨؛ ومسند أحمد ٢: ٣٢٦؛ وسنن ابن ماجة ٢: ١٣٣٥.

مبنيّ على نفي الشكّ عن إبراهيم».(١)

تأويل وتفسير هذا الحديث بهذه الصورة يكون صحيحاً فيما لو كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله دون مرتبة الخليل عليه السلام في الإيمان واليقين، ولكن بما أنّ الرسول صلى الله عليه وآله هو أشرف البشر وأسماهم إيماناً، عندما يتحدّث بهذا الحديث، نفهم أنّ الخليل عليه السلام قد انتابه الشكّ وما ينبغي له.

وقول رسولنا الكريم صلى الله عليه وآله بأنّه أحقّ بالشك من إبراهيم، هو إشارة إلى أنّ الخليل عليه السلام حينما أُلقي في النار ولم تحرقه بأمر اللّه، وكانت عليه برداً وسلاماً، لذا كان سؤاله لمشاهدة رجوع الحياة إلى الأجزاء المتناثرة غريب جدّاً. فمن هنا يظهر أنّ الاستفهام الربّاني من خليله ﴿**أَوَلَم تؤمن**﴾، لم يكن استفهاماً تقريريّاً، بل استفهاماً تعجبيّاً. وكأنّ المولى عزّ وجل يستغرب من طلب نبيّه، فسأله بقوله: كيف تسألني عن قانون الموت والحياة الذي أتحكّم فيه كما أشاء؟ ألم أُعطّل وأُلغي من أجلك قانون الموت، وجعلت نار نمرود روضة من رياض الجنّة، فلا قانون الإحراق شملك، ولا النار أثّرت في بدنك، بل جعلتها برداً وسلاماً عليك!

ربّما يستثقل أحد كلامنا ويقول معترضاً: أنّ الخليل عليه السلام لم يشك في قدرة اللّه، ولكنّه وقف متعجّباً من هذه القوّة العظيمة التي تجمع الأبدان المتناسخة والجزئيّات، لتعيدها مرّة أخرى، كما تعجّب العزير عليه السلام وهو مارّ على أطلال قرية، في قوله تعالى: ﴿**أوَ كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنّى يحيي هذه اللّه بعد موتها**﴾(٢)، فهذا النبيّ أماته اللّه ثمّ

١. فتح القدير ١: ٢٨١.

٢. البقرة: ١٥٩.

أحياه، ليريه قدرته، والخليل عرض عليه قدرته في الإماتة والإحياء بشكل آخر. إذن المسألة لا تتجاوز التعجّب من قدرته سبحانه.

ونجيب: أوّلاً، أنّ المسألة قد تجاوزت حدّ التعجّب ووصلت إلى التطبيق العملي لدفع أو رفع هذا التعجّب، فحديثنا عن دافع وعلّة التعجّب والباعث له، وهو عدم استقرار القلب واضطرابه.

ثانياً: نحن إن سلّمنا جدلاً أنّ المسألة لم تتجاوز حدّ التعجبّ، فهو أيضاً منهيّ عنه، كما ورد في قوله تعالى عن لسان الملائكة المقرّبين وهم يبشّرون سارة بإسحاق عليه السلام، بعد أن يئست تماماً من أن يكون لها نسل، حيث أنّها عاشت كلّ حياتها عقيماً، وأصبحت عجوزاً تجاوزت سنّ اليأس حتى بلغت التسعين من عمرها، وبعلها أيضاً شيخ كبير قد يئس بالمرّة من إنشاء النسل وتكوين الذراري، حيث بلغ من العمر آنذاك مائة وعشرين سنة: ﴿**أتعجبين من أمر الله**﴾[1]. إذن العجب كلّ العجب ما أن لا يؤمن الإنسان بقدرة الخالق سبحانه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿**وإن تعجب فعجب قولهم ءإذا كنّا تراباً ءإنّا لفي خلق جديد**﴾.[2]

وربّما يسأل أحد: كيف يشكّ نبيّ بأفعال اللّه سبحانه، وهو قدوة لغيره من البشر، خصوصاً وأنّه خليل الرحمن؟

ونجيب: أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام ليس أوّل وآخر نبيّ قد انتابته هذه الحالة، فالقرآن الكريم والروايات الشريفة قد أشارت إلى أنّ جميع

---

١. هود: ٧٣.
٢. الرعد: ٥.

الأنبياء، باستثناء خاتم الرسل وأهل بيته عليهم السلام قد مرّوا بمرحلة الشكّ والحيرة والتردّد فيما يتعلّق بعلاقتهم الإيمانية مع اللّه تعالى، وكان هذا الشكّ يظهر على صور شتّى، ومن ذلك ما تحدّث عنه القرآن عن أبي البشر آدم عليه السلام، في قوله تعالى:

﴿**ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما**﴾.[1]

وقوله تعالى: ﴿**فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد وملك لا يبلى**﴾.[2]

وقوله تعالى عن لسان الشيطان الرجيم: ﴿**ما نهاكما ربّكما عن هذه الشجرة إلاّ أن تكونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين**﴾.[3]

وقد بيّن عليّ عليه السلام نقطة الضعف التي مرّ بها آدم عليه السلام، وما اعتراه من صراع نفسي آنذاك، حيث قال: «**فباع اليقين بشكّه والعزيمة بوهنه**».[4]

وقال سيّد الساجدين، حفيد سيّد الموحّدين، عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب في دعائه بالصلاة على آدم عليه السلام: «**والمنيب الذي لم يصرّ على معصيتك... والمتوسّل بعد المعصية بالطاعة إلى عفوك**».[5]

فنلاحظ ممّا ورد من نصوص حول آدم عليه السلام أُموراً:

١ـ وسوسة وتغرير الشيطان، ٢ـ نسيان لما عُهد إليه، ٣ـ الشكّ فيما

١. طه: ١١٥.
٢. طه: ١٢٠.
٣. الأعراف: ٢٠.
٤. نهج البلاغة، خطبه ١.
٥. الصحيفة السجّادية، من دعائه في الصلاة على آدم عليه السلام.

نهي عنه، ٤ـ المعصية ثمّ الإنابة.

ونشاهد من خلال الآيات والروايات، مجادلة النبيّ إبراهيم عليه السلام سفراء المولى تعالى للحيلولة دون وقوع العذاب على قوم لوط عليه السلام.

كذلك حدّثنا القرآن الكريم من خلال آية ٦٦ ـ ٧٨ سورة الكهف، عدم نجاح النبيّ موسى في مواصلة رفقته للخضر عليه السلام في رحلة تعلّم العلم الإلهي على يديه، بسبب اعتراضاته المتكرّرة والمخالفة لما شرط عليه العبد الصالح عليه السلام من أن لا يسأل ولا يعترض بأيّ وجه من الوجوه على تصرّفات أُستاذه، على طول الرحلة، حتى يكشف له عن كنهها: ﴿**فإن اتّبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدث لك منه ذكراً**﴾، وهذه الاعتراضات جاءت بأشكال شتّى:

١ـ الشكّ والاعتراض الأوّل كان بسبب خرق السفينة، جاء على صورة نسيان، ثمّ طلب موسى عليه السلام من استاذه عدم المؤاخذة على نسيانه، لأنّ المؤاخذه على النسيان ظاهرة غير عقلائية.

٢ـ الشكّ الثاني صدر منه على هيئة ردّة فعل عنيفة تجاه قتل أُستاذه غلاماً عمداً، ولم يكن نسياناً، ثمّ تعهّد للخضر عليه السلام بسبب هذا الاعتراض الشديد بأن لا يسأله شيئاً، حيث تمّت الحجّة عليه: ﴿**إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدنّي عذراً**﴾.[1]

٣ـ اعتراض التلميذ على معلّمه بإقامة الجدار، جاء في المرّة الثالثة على صورة سخط.

---

١. الكهف: ٦٧.

ونحن جميعاً نعلم أنّ المعلّم كان سفيراً من قِبَل اللّه سبحانه للتلميذ، ولمّا لم يطق التلميذ أعمال أُستاذه التي جاءت بأمره عزّ وجل، حتى سخطها جميعاً، بمعنى أنّ اعتراضات موسى عليه السلام كانت في حقيقتها على أفعال ربّه لا على أستاذه.

فإن قيل: إنّ موسى عليه السلام لم يواعد معلّمه على عدم الاعتراض أبداً، بل وكل الأمر إلى مشيئة اللّه، كما جاء عن لسانه في قوله تعالى: ﴿**ستجدني إن شاء اللّه صابراً ولا أُعصي لك أمراً**﴾.[1]

نقول: كان تعهّد موسى عليه السلام: ﴿**لا أُعصي...**﴾ على ما شرط الأُستاذ: ﴿**فإن اتّبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً**﴾. فشرط الصحبة إذن كان على شرط أن لا ينبس النبيّ موسى عليه السلام ببنت شفة أبداً في كلّ الاحوال، ومهما كانت تصرّفات الخضر التعليمية، طالما هما معاً في رحلتهما، حتى يحين وقت الإخبار بكنه التصرفات.

فيظهر قول موسى عليه السلام ﴿**إن شاء اللّه**﴾ بمعنى أن لا مشيئة للإنسان إلاّ بعد مشيئة اللّه عزّ وجل، ولا يجزم إنس ولا جان بشيء دون أمر المولى تعالى، كما ورد في سورة الكهف: ﴿**ولا تقولنّ لشيء إنّي فاعل ذلك غداً * إلاّ أن يشاء اللّه**﴾ من حيث أنّ عبارة: «إن شاء اللّه» أمر مفروغ منه، وهي بمثابة ثقافة عامّة في حياة كلّ مسلم ومؤمن، يلهج بها لسانه إن أراد إنجاز عمل في المستقبل، حيث إنّه قد آمن أنّ إرادته لا تتحقّق إلاّ بتحقّق إرادة المولى سبحانه.

---

١. الكهف: ٧٨.

ملائكة الرحمن عليهم السلام

الآية المتعلّقة بالبحث:

﴿وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إنّي أعلم ما لا تعلمون﴾.[1]

* * *

مسألة العصيان والسخط والشكّ على بعض إرادات اللّه تعالى وكلامه، لم يعايشها الأنبياء فحسب، بل عايشها ملائكة الرحمن أيضاً! ولذا فإنّ بحثنا في الشكّ الذى مرّ في الصفحات السابقة، لم ينته بعد، وقد ارتأينا أن نسلّط الضوء علاوة على اعتراضات الملائكة وعدم رضاهم على بعض إرادات اللّه العظيم وأقواله، كذلك سنبحثها في آية التطهير ومسألة الإمامة في بحثينا اللاحقين.

الفقيه النبريس والعالم المتبحّر في علوم القرآن وتفسيره، والباحث

---

١. البقرة: ٣٠.

في أحاديث المدرستين الخلفائية والإمامية يجد أنّ الملائكة قد ظهر منها عصيان المولى والاعتراض عليه تعالى، وقد جاءت هذه الأمور في المصادر السنيّة باهتة اللون، أمّا في مصادر أهل البيت عليهم السلام فقد جائت هذه الذنوب والاعتراضات بشكل واضح للغاية ومعترف بها. ويمكن القول أنّ جميع علماء المسلمين* قد غضّوا النظر عن هذه الروايات، ولم يولوها اهتماماً لمعارضتها ـ حسب تصوّرهم ـ النصّ القرآني، مثل: ﴿**لا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾.(١)

وعلى هذا، فإنّ علماء السنّة ومحدّثيهم لم يعطوا لتلك الروايات أهميّة، باعتبارها معارضة لصريح القرآن، ولعلّ هذا كان سبباً إلى إسقاطها من صحاحهم ومسانيدهم.

والحاكم النيسابوري صاحب المستدرك على الصحيحين، بعد سرده رواية بخصوص آية بحثنا، علّق عليها قائلاً: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».(٢) علماً بأنّا لم نعثر على رواية واحدة من الصحيحين بخصوص آيات اعتراض الملائكة على خلق آدم عليه السلام!

وعلماؤنا الشيعة أيضاً بعد إيمانهم بتلك الروايات، قالوا بوجوب التأويل أو القول بأنّها من الإسرائيليّات!

---

*. لم أعثر على رأي أو تحقيق ينفي عصمة جميع الملائكة.

١. التحريم: ٦. هذا مقطع من الآية، وهو لا يفيد عموم الملائكة، بل يشير إلى خصائص الملائكة الموكّلين على جهنم، ومن خصائصهم أنّهم غلاظ شداد. ﴿يا أيّها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾.

٢. المستدرك ٢: ٢٨٧.

فمن علمائنا السابقين، صاحب موسوعة البحار رحمه الله، صرّح في موسوعته بعد أن أورد طائفة من الروايات بعدم عصمة الملائكة، قال:

«وجملة القول في ذلك، إنّه لمّا ثبت بالنصوص وإجماع الفرقة المحقّة، عصمة الملائكة، لابدّ من تأويل ما يوهم صدور المعصية منهم على نحو ما مرّ في عصمة الأنبياء عليهم السلام».(١)

وأنا لم أعثر، ولا أدري أين النصوص التي تصرّح بعصمة الملائكة التي نوّه عنها العلاّمة رحمه الله! أمّا الإجماع فهو ليس بشيء في مقابل الروايات، فالتشبّث بالإجماع في مقابل النصّ يبعث على استغرابنا!

والأغرب من ذلك، أنّه رحمه الله نسب قول معصية الملائكة إلى الحشوية* وقد زخرت موسوعته البحارية بروايات صدرت عن أهل البيت عليهم السلام تصرّح بعدم العصمة!(٢)

ومن المعاصرين، آيةالله جوادى الآملي، بعد أن سرد في تفسيره ثمان روايات في معصية الملائكة في الردّ على الله بخلق آدم عليه السلام، قال:

«كما أنّ ظاهر بعض الآيات المتعلّقة بالتوحيد أو النبوّة، بحاجة إلى تبرير و توجيه، كذلك بعض الروايات [حول الملائكة]** على فرض صحّتها واعتبارها بحاجة إلى توضيح و توجيه».(٣)

---

١. البحار ١١: ١٢٥.

*. الحشوية: شرذمة يفسرون آيات القرآن على ظاهرها.

٢. راجع بيانه في بحار الأنوار: ١١، ص ١٢٣.

**. ما بين المعقوفين للتوضيح.

٣. تفسير تسنيم ٣: ١٥٧.

تصريحات علمائنا وعلى رأسهم صاحب موسوعة البحار رحمه الله، تكشف للجميع أنّ القول بمعصية الملائكة من خلال روايات أهل البيت عليهم السلام مفروغ منها، وأمّا التأويل والتوجيه لها إن لم يكن مبنيّاً على أُسس ومرتكزات علمية، كإرجاع الفرع إلى الأصل فلا قيمة له إطلاقاً. فنحن عندما نؤوّل و نفسّر بعض آيات المتعلّقة بالتوحيد، كالعين واليد ـ مثلاً ـ بالإحاطة والسطوة، لأنّا نجد النصّ القرآني والروائي، وكذلك تعابير ومعاني الأدب العربي، كلّها تساندنا بكلّ قوّة، أمّا تأويل وتوجيه معصية الملائكة فليس لدينا أيّ مرتكز ومستند، غير آية قرآنية واحدة لا تفيد في بيان العصمة، وفي مقابلها آية قرآنية وفيضان الروايات بعدم العصمة!

وقسم آخر، مع تمسّكه بآية عصمة الملائكة ـ حسب تصوّره ـ تمسّك ببعض الأخبار المبعّضة في عصمتهم قد وردت في مصادر أهل السنة، وقال بعصمة الملائكة السماوية دون الأرضية، ولكن الألوسي لم يؤمن بتلك الأحاديث ورفض مثل هذا التفسير. هذا ما شاهدناه في تفسيره روح المعاني، حيث جاء فيه:

«ومن العجيب أنّ مولانا الشعراني وهو من أكابر أهل السنّة بل من مشياخ أهل اللّه تعالى نقل عن شيخه الخوّاص أنّه خصّ العصمة بملائكة السماء معلّلاً له بأنّهم عقول مجرّدة بلا منازع ولا شهوة وقال: إنّ الملائكة الأرضية غير معصومين ولذلك وقع إبليس فيما وقع إذ كان من ملائكة الأرض الساكنين بجبل الياقوت بالمشرق عند خطّ الاستواء فعليه لا يبعد الاعتراض ممّن كان في الأرض – والعياذ باللّه تعالى –

ويستأنس بما ورد في بعض الأخبار أنّ القائلين كانوا عشرة آلاف نزلت عليهم نار فأحرقتهم وعندي أنّ ذلك غير صحيح».[١]

هذه النظرة العامّة لآراء العلماء من الطائفتين، حول عصمة الملائكة، أمّا نحن فنقول: لا يمكننا ردّ النصّ القرآني أو تأويله، لكونه لا يتلائم مع المزاج النفسي ولا يمكننا أيضاً ضرب ما يفيض ويشتهر من نصوص روائية صادرة عن أهل البيت عليهم السلام المفسّرة لآي الذكر الحكيم عرض الجدار، فالروايات في هذا الصدد بلغت إلى حدّ يوجب التمسّك بها، وتحاشيها هو خروج من مدرستهم عليهم السلام، وانحراف سافر عن صراطهم المستقيم.

فمن مبدأ التمسّك بالثقلين، الذي أمرنا به النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله، يظهر أنّ الخلل لم يكن في النصوص الروائية المتعلّقة بذنوب الملائكة، بل ظهور عجزنا من فهم هذه النصوص، للتوفيق بين الآية القرآنية المشتبه في دلالتها على العصمة، والروايات الصادرة عن أهل بيت النبوّة عليهم السلام وكذلك السنّية الدالّة على عدم العصمة.

فالعالم البصير المتمعّن في الأحاديث المعنيّة، يجد أنّ ذنوب الملائكة لم تكن في دائرة الأمر والنهي، كما أشارت إليه الآية القرآنية: ﴿**لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾، بل كانت ذنوبها بأشكال أُخر، كردٍّ على إخبار الله، أو اعتراض على إرادته سبحانه، ممّا ينوّه عن اعتقادها نقصاً في ذات الله ـ تعالى ربّنا عن ذلك علوّاً كبيراً ـ.

---

١. روح المعاني، الآلوسي ١: ٢٢٢، ولم أحصل على مصدر للشعراني في هذا المورد.

إذن، فطاعة الملائكة المطلقة، حسب الآية القرآنية، تقتصر على الأمر والنهي الربّاني، أمّا خارج هذا النطاق، لم نشاهد ولم نستبين من خلال آية أو آيات قرآنية على طاعتها.

وقد ذهب السواد الأعظم من مفسّري الشيعة[١] والسنة[٢]، على أنّ قول الملائكة ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك**﴾ ليس من باب الاعتراض على اللّه، وليس ذنباً، لأنّهم خير مطلق، بل كان السؤال لكشف وجه الحكمة الخفية لهذا الاستخلاف، واستخبار عمّا يرشدهم و يزيل شبهتهم عن هذا الكائن المراد خلقه.

وهناك أيضاً تفاسير من الفريقين قد أوردت الوجوه التفسيرية، من رواية وبيان للآية، سلباً أو أيجاباً، وبما أنّهم لم يبيّنوا رأيهم الخاصّ بوضوح غضضنا النظر عن ذكرها.

ونادر ما انفلت من الفريقين مَن قال باعتراض الملائكة على إرادة اللّه تعالى، منهم السيّد محمّدتقي المدرّسي في تفسيره من هدي القرآن، حيث قال: «إنّهم اعترضوا على اللّه»[٣] وابن العربي في تفسيره قال:

١. راجع: تفسير الميزان للطباطبائي؛ إرشاد الأذهان لمحمّد بن حبيب اللّه السبزواري؛ كنز الدقائق لمحمّد بن محمّدرضا المشهدي؛ من وحي القرآن لمحمّد حسين فضل اللّه؛ الأمثل لمكارم الشيرازي؛ آلاء الرحمن لمحمّد جواد البلاغي؛ تقريب القرآن إلى الأذهان لمحمّد الحسيني الشيرازي؛ مواهب الرحمن لعبدالأعلى السبزواري.

٢. راجع: روح المعاني للآلوسي؛ محاسن التأويل للقاسمي؛ التنزيل لابن جزّي الغرناطي؛ تفسير البيضاوي؛ في ظلال القرآن للسيّد قطب.

٣. لاحظ المصدر في تفسير الآية ٣٠ من سورة البقرة.

«﴿أتجعل فيها...﴾ تعريضهم بأولويّتهم لذلك بقولهم ﴿ونحن نسبح﴾».[١]

ونحن نقول: إنّ الدليل القرآني والروائي، يشيران إلى أنّ الملائكة اعترضت وسخطت لدى سماعها خبر المولى سبحانه بخلق الإنسان واستخلافه في الأرض، واتهمته بالإفساد وسفك الدماء، وهو لم يخلق بعد،وكذلك منّت بعبادتها عليه سبحانه، فالاعتراض والتساؤول لا ينبغي إلاّ على من كان في ذاته نقص، وعلى من لا يشخّص الصلاح والفساد.

ألم تر إلى من يملك معملاً أو مكتباً خاصّاً، وهو صاحب الأمر كلّه، عندما يخبر خادمه أو القائم بأعماله: إنّي خارج لساعة ـ مثلاً ـ فهل يستسيغ أحد سؤال أو اعتراض الخادم أو القائم بأعماله: لِمَ أو لماذا تخرج لساعة؟! فإذا كان هذا السؤال أو الاعتراض غير لائق من عامل لرئيسه، فكيف نجوّز تساؤل الملائكه أو اعتراضهم على اللّه الحكيم الذي لا تكون أفعاله إلاّ على الوجه الأتمّ الأكمل؟!

واللّه تعالى عندما أخبر الملائكة بخلق آدم عليه السلام، لم يطلب المشورة منهم، لأنّ المشورة دالّة على مشاركة العقول، أي أنّ هناك نقصاً في المشاور، لهذا كان الواجب منها هو التسليم والتسبيح والتقديس. فمن له أدنى إلمام بالأدب العربي، يجد في النصّ القرآني أنّ حوار الملائكة كان حوار مطالبة واستجواب، وإليك الدليل القرآن على معصية الملائكة:

١ـ إذا كان كلامهم استفساراً لتوقّفوا عند قولهم: ﴿... **ويسفك الدماء**﴾ لا أن يسترسلوا بالقول ويزدوا: ﴿**ونحن نسبّح بحمدك و نقدس لك**﴾، لأنّ

---

١. راجع المصدر.

الحديث عن خلق الإنسان والاستخلاف، ولا مناسبة هنا لاعتراض الملائكة على ذلك، وتقديم أنفسهم كبديل في مسألة الاستخلاف!

٢ـ إذا كان كلام الملائكة استفساراً واستكشاف حقيقة، وأنّه غير محذور، لأجابهم المولى تعالى، لا أن يسمعوا ردّاً منه سبحانه: ﴿**إنّي أعلم ما لا تعلمون**﴾، فمن هنا يتبيّن أن ليس هناك استفسار لكشف حقيقة، بل هو اعتراض و استنكار واضحين، صدرا عن جهل ﴿**سبحانك لا علم لنا**﴾.

٣ـ نحن إنّ سلّمنا جدلاً بأن كلام الملائكة هو لاستكشاف الحكمة والاستخبار، فهو كذلك لا يجوز، لأنّ اللّه ﴿**لا يُسأل عمّا يفعل**﴾.[1]

أمّا الروايات الدالّة على معصية الملائكة فكثيرة، لا يجد أحد مفرّاً إلاّ طريق الأخذ بها، خاضعاً للحقّ غير مستكبر، ونحن وجدنا هذه الروايات قد وردت في حالات شتّى، تشير إلى عدم امتثال الملائكة لما يريده المولى تعالى.

الحالة الأولى ـ الآية المتعلّقة بالبحث، وفيها روايات، نذكر منها:

١ـ «قالوا: ربّنا نحن أطوع لك من بني آدم».[2]

٢ـ «إنّ الملائكة الذين قالوا: ﴿**أتجعل فيها... ونقدس لك**﴾ كانوا عشرة آلاف، فخرجت نار من عند اللّه فأحرقتهم».[3]

---

١. الأنبياء: ٢٣.

٢. مسند أحمد بن حنبل ١٢: ٤٣٩؛ السنن الكبرى للبيهقي ١٠: ٥؛ شعب الايمان للبيهقي ١: ١٧٥؛ صحيح ابن حبان ٢٥: ١٣؛ مسند عبد بن حميد ٢: ٤٠٦؛ الدرّ المنثور ١: ١١٤.

٣. تفسير ابن أبي حاتم ٢: ٢٢؛ تفسير ابن كثير ١: ١٩٣.

٣ـ «قالت الملائكة: ما اللّه بخالق خلقاً هو أعلم منّا ولا أكرم على اللّه منّا، قال: فابتليت الملائكة بخلق آدم».[١]

٤ـ «﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾ كانت هفوة منهم ورجماً بالغيب... حتى تابوا وأنابوا إليه ممّا قالوا».[٢]

٥ ـ «قالوا: لا تجعل في الأرض خليفة».[٣]

٦ـ «﴿**أتجعل فيها من يفسد... ونقدس لك**﴾ فغضب عليهم، فعاذوا بعرشه وطافوا حوله سبعة أشواط يسترضون ربّهم حتى رضي عنهم».[٤]

٧ـ «﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء**﴾ فرادّوه، فأعرض عنهم، فطافوا بالعرش ستّ سنين يقولون: لبّيك لبّيك اعتذاراً إليك، لبّيك لبّيك نستغفرك ونتوب إليك».[٥]

٨ـ «فظنّت الملائكة أنّ ما قالوا ردٌّ على ربّهم عزّ وجل وأنّه قد غضب عليهم من قولهم، فلاذوا بالعرش... يتضرّعون ويبكون إشفاقاً لغضبه فأطافوا بالعرش».[٦]

٩ـ فقال عليه السلام: «إنّ اللّه عزّ وجل لمّا أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم عليه السلام، ردّوا عليه فقالوا: ﴿**أتجعل فيها... إنّي أعلم ما لا تعلمون**﴾ فغضب عليهم، ثمّ سألوه التوبة فأمرهم أن يطوفوا بالضراح وهو البيت المعمور ومكثوا

١. مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ٢: ٢٩؛ البداية والنهاية ١: ٧٨، باختلاف الألفاظ.
٢. تفسير الطبري ١: ٢٣٢، و٢٥١، باختلاف الألفاظ.
٣. تفسير الطبري ١٠: ٦٠٤.
٤. تفسير القرطبي ٢: ١١٩.
٥. فتح القدير ١: ٩٩.
٦. الدرّ المنثور ١: ٣١٠.

يطوفون به سبع سنين و يستغفرون اللّه عزّ وجل ممّا قالوا، ثمّ تاب عليهم من بعد ذلك و رضي عنهم».[١]

١٠ـ «ردّوا على اللّه فقالوا: ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء**﴾ ... ﴿**ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك**﴾، فمنّوا على اللّه بعبادتهم إيّاه، فأعرض عنهم...، فلمّا رفعوا رءوسهم قال اللّه يعلم ما تبدون من ردّكم عليّ وما كنتم تكتمون، ظنّاً أن لا يخلق اللّه خلقاً أكرم عليه منّا، فلمّا عرفت الملائكة أنّها وقعت في خطيئة لاذوا بالعرش...».[٢]

١١ـ «﴿**إذ قال ربّك للملائكة... ونقدس لك**﴾ قال: كان في قوله هذا منّة منهم على الله بعبادتهم... فأعرض عنهم... فعلموا أنّهم قد وقعوا في الخطيئة فلاذوا بالعرش فطافوا حوله يسترضون ربّهم فرضى عنهم وأمر الله الملائكة أن تبني في الأرض بيتاً ليطوف به من أصاب ذنباً من ولد آدم عليه السلام ... رضى عنهم كما رضي عن الملائكة».[٣]

١٢ـ «فقالت الملائكة: سبحانك! أتجعل فيها من يفسد فيها كما أفسد بنو الجان... فاجعل ذلك الخليفة منّا فإنّا لا نتحاسد ولا نتباغض ولا نسفك الدماء ونسبّح بحمدك ونقدس لك... فباعدهم اللّه من العرش مسيرة خمس مائة عالم، قال: فلاذوا بالعرش وأشاروا بالأصابع فنظر الربّ عزّ وجل إليهم ونزلت الرحمة فوضع البيت المعمور فقال: طوفوا به

---

١. الكافي ٤: ٢/١٨٨؛ وورد الحديث بدلاً من «ردّوا» ردّت في تفسير العيّاشي ٢: ٣٠، وأورد صاحب مستدرك الوسائل هذا الحديث في ١: ٢/٣٧٠، وأيضاً صاحب البحار في ٩٦: ١٨/٢٠٥، نقلاً عن تفسير العيّاشي.

٢. تفسير العيّاشي ١: ٣، وورد في المستدرك ١: ٣/٣٧٠، وأيضاً في البحار ٩٦: ١٩/٢٠٥.

٣. دعائم الاسلام ١: ٢٩١؛ مستدرك الوسائل ٨: ٣/٣٢٤؛ البحار ٩٦: ٣٦/٤٦.

ودعوا العرش فإنّه لي رضىً... فوضع اللّه البيت المعمور توبة لأهل السماء ووضع الكعبة توبة لأهل الأرض».[1]

١٣ـ «فقالت الملائكة: سبحانك ﴿**أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدس لك**﴾ قالوا: فاجعله منّا فإنّا لا نفسد في الأرض ولا نسفك الدماء».[2]

الحالة الثانية ـ غضب جبرئيل عليه السلام للنبيّ إبراهيم عليه السلام واعتراضه على اللّه حين وضعوه في المنجيق لقذفه في النار، منها:

«وأنّ إبراهيم عليه السلام لمّا وضع في كفّة المنجنيق غضب جبرئيل فأوحى اللّه عزّوجل إليه: ما يغضبك يا جبرئيل، قال: يا ربّ خليلك ليس من يعبدك على وجه الأرض غيره سلّطت عليه عدوّك وعدوّه فأوحى اللّه إليه: اسكت إنّما يعجل العبد الذي يخاف الفوت مثلك».[3]

الحالة الثالثة ـ عدم إيثار جبرئيل وميكائيل عليهما السلام أحدهما الآخر على نفسه بالحياة ليلة مبيت علي عليه السلام في فراش الرسول صلى الله عليه وآله

«لمّا آخى سبحانه وتعالى بين الملائكة، آخى بين جبرئيل وميكائيل

---

١. تفسير القمي ١: ٣٦، وذكره صاحب البحار ١١: ١٠/١٠٣.

٢. بحار الأنوار ٥٨: ٧/٢٩٨، و ج ٦٠: ٣٩/٨٢، نقلاً عن علل الشرائع.

٣. أمالي الصدوق: ٤٥٦، المجلس السبعون؛ الخصال ١: ٣٣٥؛ تفسير القمي ٢: ٧٢؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ح ٢٠٦؛ وورد في مستدرك الوسائل ٣: ٥/٣٠٣؛ والبحار ١١: ١/٦٢، و١٢: ٨/٣١، و ١١/٣٥. ووردت هذه الحادثة في تفاسير أهل السنّة كتفسير القرطبي ١١: ٢٦٥، والعبارة هكذا: «فضجّت السماوات والأرض ومن فيهنّ من الملائكة وجميع الخلق إلاّ الثقلين ضجّة واحدة»؛ وتفسير البغوي ١: ٣٢٦، وكذلك تفسير روح المعاني ١٧: ٦٨، ذكرا «فصاحت» بدلاً من «فضجت».

وقال سبحانه وتعالى إنّي آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر فأيّكما يؤثر أخاه بالحياة على نفسه؟ فاختار كلاهما الحياة، فقال اللّه عزّوجل أفلا تكونا مثل عليّ بن أبي طالب آخيت بينه وبين حبيبي محمّد فآثره بالحياة على نفسه في هذه الليلة وقد بات على فراشه يفديه بنفسه، إهبطا فاحفظاه من عدوّه، فهبطا إلى الأرض فجلس جبرئيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وهما يقولان بخ بخ لك يا ابن أبي طالب من مثلك وقد باهى اللّه بك ملائكة السماوات وفاخر بك؟![1]

الحالة الرابعة ـ قصّة المَلَك فطرس

«إنّ الحسين بن علي عليه السلام لمّا ولد، أمر اللّه عزّوجل جبرئيل أن يهبط في ألف من الملائكة فيهنّئ رسول اللّه صلى الله عليه وآله من اللّه ومن جبرئيل قال فهبط جبرئيل فمرّ على جزيرة في البحر فيها مَلَك يقال له فطرس كان من الحملة بعثه اللّه عزّوجل في شيء فأبطأ عليه فكسر جناحه وألقاه في تلك الجزيرة فعبد اللّه تبارك وتعالى فيها سبعمائة عالم حتى ولد الحسين بن علي عليه السلام فقال الملك لجبرئيل يا جبرئيل أين تريد قال إنّ اللّه عزّوجل أنعم على محمّد بنعمة فبعثت أهنّئه من اللّه ومنّي فقال يا

١. بحار الأنوار ١٩: ٣٦/٨٥ نقلاً عن الفضائل لابن شاذان؛ وكذلك نقلها في ٣٦: ٢/٤٠، نقلاً عن كشف الغمّة للحنبلي الموصلي؛ وأورد هذه الحادثة الطوسي في أماليه: ٤٦٩، المجلس السادس عشر؛ والديلمي في أرشاد القلوب ٢: ٢٤٤؛ والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ١: ١٣٣/١٢٣؛ ونقلت الحادثة أيضاً في أسد الغابة ١: ٧٨٦؛ و تخريج أحاديث الاحياء ٣: ٢٠٠؛ وكتاب السلسة الضعيفة للألباني ١٠: ٤٥٠؛ وإحياء علوم الدين للغزالي ٣: ٢٥٨؛ وأوردها الثعلبي في تفسيره للآية ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة اللّه﴾.

جبرئيل احملني معك لعلّ محمّداً صلى الله عليه وآله يدعو لي قال فحمله قال فلمّا دخل جبرئيل على النبيّ صلى الله عليه وآله هنّأه من اللّه عزّ وجل ومنه وأخبره بحال فطرس فقال النبيّ صلى الله عليه وآله قل له تمسّح بهذا المولود وعد إلى مكانك قال فتمسّح فطرس بالحسين بن علي عليه السلام وارتفع».[1]

فالقارئ اللبيب والعالم البصير ومن له أدنى معرفة بالأدب العربي، على علم تامّ بأنّ الحوار بين الملائكة والربّ يشير إلى أنّ الملائكة لم يراعوا جلال وكمال اللّه تعالى، وأنّهم تجاوزوا قوانينهم وانفلتوا من انضباطهم وتقيّدهم، وأيضاً النصّ القرآني المانع لأيّ فرد من الخلائق أن يستجوب اللّه سبحانه عن تصرّفاته وأفعاله، حيث إنّه سبحانه ﴿**لا يسأل عمّا يفعل**﴾، وأمّا فيض الروايات، وخصوصاً الصادرة عن أهل بيت النبوّة عليهم السلام الذين هم ترجمان وحي اللّه، والتي أشارت إلى خطأ وتجاوز الملائكة حدودهم، لا يردّها ولا يؤوّلها ولا يجعلها من الإسرائيليات إلاّ من يرتكب منهيّات العترة الطاهرة (صلوات اللّه عليهم أجمعين)، فما ورد عن الباقر عليه السلام عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله:

«**فما ورد عليكم من حديث آل محمّد فلانت له قلوبكم وعرفتموه فاقبلوه وما اشمأزّت منه قلوبكم وأنكرتموه فردّوه إلى اللّه وإلى الرسول وإلى العالم من**

---

١. أمالي الصدوق: ١٣٧، المجلس الثامن والعشرون؛ ونقله صاحب بحار الأنوار في ٤٣: ١٨/٢٤٣، وكذلك في ٢٦: ١٠/٢٤٠ عن بصائر الدرجات، و٤٣: ٢٧/٣٥٠، عن السرائر، و٤٤: ٧/١٨٢، عن الخرائج والجرائح، و٥٠: ٤٧/٦٦ عن رجال الكشي؛ وفي الإقبال والمصباح والبلد الأمين، ورد دعاء في الثالث من شعبان بمناسبة يوم ميلاد الإمام الحسين عليه السلام فيه: «وعاذ فطرس بمهده»، ونقل الشيخ عبّاس القمي هذا الدعاء في مفاتيح الجنان أيضاً.

آل محمّد وإنّما الهالك أن يحدّث أحدكم بشيء منه لا يحتمله فيقول: والله ما كان هذا والله ما كان هذا، والإنكار هو الكفر».[1]

وأيضاً عنه عليه السلام:

«فإذا ورد عليك يا جابر شيء من أمرنا فلان له قلبك فاحمد الله، وإن أنكرته فردّه إلينا أهل البيت ولا تقل: كيف جاء هذا وكيف كان وكيف هو فإنّ هذا والله الشرك بالله العظيم».[2]



١. الكافي ١: ٤٠١/١.
٢. رجال الكشّي: ١٩٣/ ٣٤١.

ماهيّة آية التطهير وتعلّقها

الآية المتعلّقة بالبحث:

﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾.(1)

* * *

آية من آي الذكر الحكيم، قد اختلف علماء مدرسة أهل بيت النبوّة عليهم السلام وعلماء مدرسة الخلفاء والصحابة في تفسيرها وبيان من هم أهل البيت فيها، وكلّ قد استدلّ على تفسيرها بشواهد و منطلقات لا يقيم الثاني لها وزناً.

ومن الواضح أنّ الجهل والجحد، وكذلك الانفعال الذاتي، والانسياق ألاّ شعوري نحو الشبهات المثارة حول الآية، كان له دور سلبيّ في تفسيرها، وطمّ معانيها، ونحن هنا نسعى لكشف ما تنطوي عليه هذه الآية من مفاهيم، مسايرين كلّ فرقة بحسب ما تؤمن به وتلتزم من

---

1. الأحزاب: ٣٣؛ ربّما يقول بعض إنّها ليست بآية، بل جزء من آية، ولكن هذا لا يمنع من إطلاق كلمة آية على أجزاء من آيات القرآن الكريم.

مصادر وشواهد تفسيرها.

١ـ مناقشة أدلّة علماء الشيعة:

قد وردت كلمة الرجس في الأدب العربي وآيات كتاب اللّه المجيد بمعانٍ كثيرة، منها: اللعنة والعذاب، والشرك، والشيطان، والقذر، والنتن، ولحم الخنزير، والخمر، والميسر، والأنصاب والأزلام، وكذلك الأوثان، وأيضاً اهتزاز البناء والحركة الخفيفة[١]، والوزغ.[٢] ولكنّ ائمّة أهل البيت عليهم السلام قد حصروا، أو ـ على أقلّ التقادير ـ بيّنوا مصداق الرجس في آية التطهير بكلمة «الشكّ»، وحتى المخالفين للطائفة الشيعية قد فسّروا الرجس في هذه الآية بالشكّ[٣]. فالخطأ الواضح الذي وقع فيه علماء الشيعة في تفسير الآية، هو خلق معنى عامّ للرجس، وتعميمه على كلّ موارد الكلمة، ممّا أدّى إلى انحراف بيّن في مسير تحقيق الآية، وحتى صاحب التحقيق في كلمات القرآن قد تأثّر بالفكر المتداول في مذهبنا الديني، وجعل لكلمة الرجس «أصل واحد، وهو ما يكون غير مناسب و غير لائق شديداً، بحيث يعدّ في الخارج عند العرف العادلة والعقل السالم

١. لمزيد التفاصيل، راجع آيات القرآن كريم ومعاجم اللغة في مادّة «رجس».

٢. الكافي ٨: ٢٣٢/٣٠٥.

٣. راجع: مجموع مؤلفات عقائد الرافضة والردّ عليها ١٩٤: ٨و ١٩٥: ٨، جاء فيها:
«٤ـ الشكّ ومنه قوله تعالى: ﴿إنّما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ ».
وقد وردت في عديد من تفاسير السنّة كلمة «الشكّ» في بيان معنى الرجس عن مجاهد، منها: تفسير السراج المنير ١: ٣٣٧٠؛ اللباب في علوم الكتاب ١٣: ٨١؛ تفسير الثعلبي ١: ١٨٠٣؛ الكشف والبيان ٨: ٣٥؛ تفسير البغوي ٦: ٣٥٠؛ وراجع: عقيدة أهل السنّة والجماعة في الصحابة الكرام، المبحث الثاني، فضل أهل البيت عموماً وزوجات النبي خصوصاً ١: ٣٣٩.

مكروهاً وقبيحاً مؤكّداً».[١]

كيف يكون الحركة الخفيفة، أو اللعنة والعذاب الذي ينزله اللّه تعالى بالكافرين غير لائق شديداً، أو مكروهاً وقبيحاً مؤكّداً!

ومن المضحك أيضاً أن نقول مثلاً: «إنّما يريد اللّه ليذهب عنكم كلّ ما هو غير لائق كالحركة الخفيفة، أو الشرك، أو الشيطان، أو الأوثان، أو لحم الخنزير، أو الخمر، أو الأنصاب، أو الأزلام، أو الوزغ، أو جميع هذه المسمّيات، عنكم أهل البيت ويطهّركم تطهيراً»!!

وأنت أيّها القارئ اللبيب على يقين لولا الروايات الكثيرة الواردة عن النبيّ والأئمّة عليهم السلام بنزول آية التطهير في أصحاب الكساء، لالتبس علينا معنى أهل بيته في هذه الآية، وكذا لولا الروايات الواردة عن أئمّتنا عليهم السلام بتبيين الرجس في الآية، لالتبس علينا معناها بين العموم والتخصيص. فالمعنى المتعيّن للرجس في آية التطهير عبر روايات أهل البيت عليهم السلام كما ذكرنا، هو:

١ـ عن أبي عبداللّه عليه السلام: «الرجس هو الشكّ، واللّه لا نشكّ في ربّنا أبداً».[٢]

٢ـ عن أبي جعفر عليه السلام: «وكيف يوصف قوم رفع اللّه عنهم الرجس، وهو الشكّ»[٣].

٣ـ عن علي بن الحسين عليه السلام: «فأذهب عنّا الرجس وطهّرنا تطهيراً،

١. التحقيق في كلمات القرآن كريم، حسن مصطفوي، مادّة «رجس».
٢. الكافي ١: ١/٢٨٦.
٣. الكافي ٢: ١٦/١٨٢؛ وعنه بحار الانوار ٧٣: ٢٦/٣٠.

والرجس هو الشكّ، فلا نشكّ في اللّه الحقّ وديننا أبداً».[١]

٤ـ عن أبي جعفر عليه السلام: «الرجس هو الشكّ ولا نشكّ في ديننا أبداً».[٢]

٥ ـ عن أبي عبداللّه: «الرجس هو الشكّ».[٣]

٦ـ عن أبي جعفر عليه السلام: «الرجس هو الشكّ، واللّه لا نشكّ في ديننا أبداً».[٤]

وعن ابن عباس: «والرجس هو الشكّ»[٥]، وقيل لواثلة بن الأسقع ما الرجس؟ قال: «الشكّ في دين اللّه».[٦]

٧ـ بيّن أهل البيت عليهم السلام الرجس بالشكّ، في آيات أُخر من الذكر الحكيم، كما في قوله تعالى: ﴿**كذلك يجعل اللّه الرجس على الذين لا يؤمنون**﴾.[٧]

وأيضاً جاء التعبير «شكّاً إلى شكّهم» في بيان قوله سبحانه: ﴿**رجساً إلى رجسهم**﴾.[٨]

هذا أوّلاً، وأمّا الثاني: أنّ الروايات الكثيرة الواردة في تفسير هذه

---

١. أمالي الطوسي: ٥٦١، مجلس ٢١، وعنه بحار الأنوار ١٠: ٥/١٣٨، و ٦٩: ٢٩/١٥١، نقلاً عن كتاب البرهان.

٢. بصائر الدرجات: ١٣/٢٠٦؛ وعنه البحار ٢٣: ٤٨/٢٠٣.

٣. معاني الأخبار: ١/١٣٨؛ وعنه البحار ٣٥: ٥/٢٠٨.

٤. تفسير العيّاشي ٢: ١٦٩/٢٤٩؛ وعنه البحار ٣٥: ١٢/٢١٠.

٥. شواهد التنزيل ٢: ٦٧١/٥٢.

٦. شواهد التنزيل ٢: ٦٨؛ العمدة ١٥/٣٤.

٧. بحار الأنوار ٦٩: ١٤/١٢٨، نقلاً عن تفسير العياشي، وراجع أيضاً عيون أخبار الرضا ١: ٢٧/١٣١.

٨. بحار الأنوار ٢٣: ١٤/١٥٠، نقلاً عن تفسير القمي، و ٦٩: ٤/١٢٦، نقلاً عن تفسير العياشي.

الآية تؤكّد على أنّها لم تشمل الرسول صلى الله عليه وآله، وكيف تشمله وهو الذي دعا اللّه سبحانه بإذهاب الرجس عن أهل بيته بقوله: «**اللهمّ هـؤلاء**»، «**فأذهب عنهم**»، «**وطهّرهم**»، ولم يكن دعاءه صلى الله عليه وآله «فأذهب عنّي»، أو «فأذهب عنّا»، وكذلك لم يطلب: «طهّرني»، أو «طهّرنا»!

وهذا يدلّ على أنّ الرجس كان مذهوباً عن النبيّ صلى الله عليه وآله وطلبه لأهل بيته أيضاً، ومن هنا لا يمكن القول بأنّ الرجس كان فيه صلى الله عليه وآله وقد طلب الإذهاب عن أهل بيته فقط، وأيضاً لا يمكن القول بأنّ الرجس لم يكن في أهل بيته إطلاقاً، أو عدم جعله في محتملات التفعّل والتحقق فيهم ـ كحد أدنى ـ، فيكون حينئذٍ دعاء الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وإستجابة المولى تحصيل حاصل.

وتفادياً لهذا الإشكال، قيل: إنّ الإذهاب بمعنى الدفع لا الرفع، ونجيب: أنّ عدم الدفع على ضوء هذا التوجيه ليس له أيّ أثر أيضاً على أبدانهم أو نفوسهم عليهم السلام. فدفع الرجس وعدمه سيّان عندهم.

آخرون يرون أنّ طلب الرسول بإذهاب الرجس هو يفيد الاستمرارية، كقوله تعالى: ﴿**اهدنا الصراط المستقيم**﴾[1]، وأيضا: ﴿**ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا**﴾[2]، ونجيب: أنّ الرسول قد خصّ أهل بيته بالدعاء دون نفسه صلى الله عليه وآله، لهذا فهو لا يدلّ على الاستمرار، بل هو طلب خاصّ لمن دعا لهم.

---

١. البقرة: ٦.

٢. آل عمران: ٨.

تحقيق الموضوع:

قد علمنا أنّ اهتزاز البناء، وكـذلك الحـركة الخـفيفة، ومـا ورد فـي الروايات بأنّه الشكّ، الذي هو مباين لليقين والاطمئنان القلبي، نفهم أنّ أحد مصاديق الرجس هو الاضطراب و عدم الاستقرار والسكون.

ومن هنا نفهم أنّ اللّه سبحانه وتـعالى قـد أذهب مـن أئـمّة أهـل البيت عليهم السلام الرجس، وهو اضطراب ايمان القلوب لاختلاطها بـالشكوك والتردد. وقد بيّن لنا الإمام الصادق عليه السلام أنّ جميع الناس بما فيهم الأنبياء والأولياء والأصفياء والخواصّ، مع قربهم من اللّه وعلوّ شأنهم، لهم توبة من الذنوب، كلّ حسب مقامه التقوائي ومعرفته باللّه، وأنّ الأنـبياء لهـم توبة من الاضطراب القلبي لعدم اليقين الكامل، بـمعنى شـوب قـلوبهم بشيء من الرجس بقوله عليه السلام:

«التوبة حبل اللّه ومدد عنايته، ولابدّ للعبد من مداومة التوبة على كلّ حال، فكلّ فرقة من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من اضطراب السرّ وتوبة الأولياء من...».[1]

فما نستخلص ممّا تقدّم، أنّ المراد من كلمة الرجس في آية التـطهير هو «الشكّ»، وأنّ النصوص القرآنية، وكذلك الأدب العـربي، فـي هـذه الكلمة، لا يرفدانا لأعطاء كلمة الرجس معنىً عامّاً في آية التطهير.

هذا أولاً، وأمّا الثاني فقد تحقق للقارئ الكريم في صفحاتنا الماضية،

١. مصباح الشريعة: ٤٣٤، ط: نشر صدوق؛ ومستدرك الوسائل ٢: ٣٤٨، كتاب الجهاد، أبـواب جهاد النفس وما يناسبه.

أنّ الأنبياء جميعاً، إلاّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، قد عايشوا الصراع النفسي والاضطراب القلبي أمام بعض كلام وإرادات اللّه سبحانه ممّا أدّى إلى ردود فعل منهم لا يرتضيها ربّ العالمين، منها:

١ـ شكّ أبو البشر آدم عليه السلام بسبب تأثير وسوسة الشيطان الرجيم.

«فباع اليقين بشكّه والعزيمة بوهنه، واستبدل بالجذل وجلاً وبالاغترار ندماً. ثمّ بسط اللّه سبحانه في توبته ولقّاه كلمة رحمته».[1]

٢ـ اعتراضات موسى على الخضر عليهما السلام ثلاث مرّات في رحلته التعليمية، حيث كانت أفعال الخضر عليه السلام آنذاك بأمر من اللّه عزّ وجل.[2]

٣ـ يونس عليه السلام ينسلخ عن النبوّة ويعطّل أمر التبليغ، اعتراضاً على مولاه، وعبّر القرآن عن هذا التصرّف بالإباق.[3]

ونحن لو لاحظنا حياة وسيرة أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، من خلال آيات القرآن الكريم، نجد فيها شوب قلبه بشيء من الشكّ والتردّد كباقي الأنبياء على أوامر المولى تعالى وتصرّفاته، وذلك قبل حصوله على مقام الإمامة الإلهية، من اضطراب قلبه وعدم سكونه، في كيفية إحياء الموتى، وكذلك مجادلته مع اللّه تعالى عن طريق سفراء المولى سبحانه، وأيضاً تعجّبه واستغرابه من بشارة الملائكة له بميلاد إسحاق عليه السلام.

وسكوت القرآن وعدم تنويهه بنقاط ضعف هذا النبيّ قطّ بعد حصوله على مقام الإمامة، وروايات المدارس الإسلامية جميعاً هي أيضاً لم

١. نهج البلاغ، خ ١.
٢. راجع الآيات ٦٥ ـ ٨٢ من سورة الكهف.
٣. الأنبياء: ٨٧.

تخبرنا بشكوك و اضطراب قلب هذا النبيّ بعد حيازته على هذا المقام.

فمن هنا يتّضح لنا، أنّ مقام الإمامة منصب إلهيّ شامخ، يصل إليه الإنسان في ذروة تقواه، بعد انسلاخه من الرجس الذي ما استطاع حتى الأنبياء وأصحاب الرسالات الانسلاخ منه:

﴿وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمهنّ قال إنّي جاعلكَ للنّاس إماما﴾.[1]

وقد بيّن لنا أئمّة أهل البيت عليهم السلام، من خلال الروايات الصادرة عنهم، مراحل سير التكامل الإنساني الذي سلكه أبو الأنبياء عليه السلام، حتى سُرّ بنيل هذه المرتبة العظمية والسامية في أواخر حياته المباركة، منها ما ورد عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام حيث قال:

«إنّ الله تبارك و تعالى اتّخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتّخذه نبيّاً وإنّ الله اتّخذه نبيّاً قبل أن يتّخذه رسولاً وإنّ الله اتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً وإنّ الله اتّخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً. فلمّا جمع له الأشياء قال: ﴿إنّي جاعلك للنّاس إماما﴾ فمن عظمها في عين ابراهيم عليه السلام قال: يا ربّ ﴿ومِن ذرّيّتي﴾».[2]

فجاءه الردّ: **﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾**.[3]

فيظهر ممّا قدّمنا، أنّ النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله أراد بدعائه من أذهاب الرجس عن أهل بيته هو رفع الامتحان عنهم، كما امتحن سائر الأنبياء، والثاني إظهار منصب إمامتهم من القوّة إلى الفعل، ومعرفة المسلمين مقام هؤلاء الأصفياء بشهادة ربّ السماوات والأرض.

١. البقرة: ١٢٤.
٢. الكافي ١: ٢/١٧٥.
٣. البقره: ١٢٤.

ونجيب لمن يتساءل: هل كان الرجس موجوداً في ذات هذه الصفوة حتى دعا النبيّ صلى الله عليه وآله لهم بالإذهاب؟! أنّ مصادرنا التشريعة ـ حسب تحقيقنا ـ لم تشر بوجود الرجس في ذاتهم أبداً؛ وكيف يجد أحد رجساً فيهم وهم الصراط المستقيم الذي أمر اللّه المسلمين سلوكه، وهم كلمة التقوى التي ألزمنا المولى إيّاها، وهم الذين لم يغضب المولى عليهم قطّ، بل يغضب لغضبهم ويرضى لرضاهم، والذين هم ليسوا بضالّين ولا مضلّين، والذين قرن اللّه طاعة العباد لهم بطاعته.

ونجيب أيضاً لمن يقول: إذن ما فلسفة دعاء النبيّ بالإذهاب؟ بأنّ الدعاء كان لأمرين:

الأوّل: كما قلنا هو إظهار وتفعيل هذا المقام، فلولا الدعاء والإجابة لم نعرف منزلة ومقام إئمّتنا الطاهرين عليهم السلام بصورة واضحة وجليّة، ولم يتّضح لنا حيازتهم لهذا المقام الإلهي الكبير.

الثاني: وهو علّة الأمر الأوّل؛ بمعنى أنّ الانسان كلّما ازداد تقوىً وورعاً، ازداد قرباً من المولى تعالى، وما تفضيل اللّه الأنبياء والرسل بعضهم على بعض، والعباد أحدهم على الآخر إلاّ بالتقوى، وما ابتلاء اللّه عباده إلاّ ليبيّن لهم أيّهم أحسن عملاً ولتظهر كلّ نفس جوهرتها.

ونحن نجد من خلال آي الذكر الحكيم أُناساً يوليهم اللّه الحكيم اهتماماً بالغاً مسبقاً، ويكون هذا الاهتمام البالغ بامتحان مرّة أو بحكمة من غير امتحان، ليؤتيهم فضلاً، وليصطفيهم لأداء مهمّات رسالية؛ لوجود أرضية صالحة فيهم للقيام بدورهم الرسالي، كاصطفاء آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، كما نجد أيضاً من يؤتيه الحكم صبيّاً،

وآخر يجعله نبيّاً ويوصيه بالصلاة والزكاة وهو ما زال في المهد صبيّاً، ومنهم من يصطفيها ويطهّرها ويصطفيها على نساء عالمها. فاللّه الحكيم يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، فهو تعالى صاحب الاختيار التامّ، يخلق ما يشاء ويختار، وما كان لبشر الخيرة في عملية الاصطفاء والتطهير الربّاني، أو أن يعترض على حكمته سبحانه، أو يحسد هؤلاء على ما آتاهم اللّه من فضله، هذا ما أشارت إليه محكمات آياته.

ومن هنا نجد أنّ اللّه يهيّئ ظروف الاصطفاء لأشخاص، بين عشيّة وضحاها، بعد أن كانت معدومة بالمرّة، بفضل دعاء صادق صادر من قلب مفعم بالإيمان، أو يفعّلها فوراً لهم، وهي مازالت في علمه وحكمته تعالى قبل أن تتحقّق، أو يخبر عنها في المستقبل، هذا ما نشاهده في قضيّة تفعيل وزارة ونبوّة هارون بفضل دعاء أخيه موسى عليهما السلام. فلولا طلب ودعاء موسى عليه السلام لانعدمت وزارة ونبوّة أخيه هارون عليه السلام أو جاءت متأخرة عن وقت الدعاء. ولا غرو أن يشبّه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله مقام علي عليه السلام من خلال حديث المنزلة، من نفسه كمقام هارون من موسى عليهما السلام إلاّ أنّه لا نبيّ بعده صلى الله عليه وآله.

٢ـ مناقشة آراء أهل السنة:

وردت آراء شتّى ونظرات عديدة على لسان علماء أهل السنّة، في من هم أهل البيت في آية التطهير، فالقارئ يجد فكره جوّالاً وغير مستقرّ على المعنيّين في هذه الآية، فهو يجدها من خلال مصادرهم الروائية والتفسيرية في:

١ـ نساء النبيّ صلى الله عليه وآله.

٢ـ جميع بني هاشم (آل عليّ، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عبّاس).

٣ـ فاطمه وعليّ والحسنان عليهم السلام.

٤ـ نساء النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل الكساء (فاطمة وعليّ والحسنان عليهم السلام).

٥ ـ من لم يكن بينه و بينه قرابة سببيّة ولا نسبية في أهل البيت، توسعاً و تشبيهاً كسلمان الفارسي وواثلة.

٦ـ بعد أن ذكر الآلوسي البغدادي هذه الوجوه، أفادنا رأياً آخر بقوله: «وقال بعض المتأخّرين: إنّ دخولهم في العموم ممّا لا بأس به عند أهل السنّة، لأنّ الآية عندهم لا تدلّ على العصمة، ولا حجر على رحمة اللّه عزّ وجل».[١]

٧ـ النبيّ صلى الله عليه وآله ونسائه فقط.[٢]

هذا ما ورد من آراء في المعنيين من أهل البيت عليهم السلام في آية التطهير، عند أهل الصحابة والجماعة.

ونجيب عن هذه الأقوال، بأنّ الجنس البشري يجمعهم مشتركات، منها في النشأة والخلق ـ كحدّ أدنى ـ أو عقائدية ـ كحدّ أعلى ـ هذا ما نفهمه من كلام مولانا عليّ أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه لمالك الأشتر النخعي لمّا ولاّه مصر:

«وأشعر قلبك الرحمة للرعية... فإنّهم، صنفان إمّا أخٌ لك في الدين أو نظيرٌ

١. لمزيد من التفاصيل راجع تفسير روح المعاني ١١: ١٩٣ ـ ١٩٧، ط: الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٢. رأي عثرنا عليه في مقالات وحوارات عبر شبكة الأنترنت.

لك في الخلق».[١]

والقرآن كريم أيضاً يلفت انتباهنا إلى أصول مشتركة بيننا كمسلمين، وبين أهل الكتاب لإلزامهم الحقّ وبيان أنّهم لايلتزمون بهذه الأصول، لا فكراً ولا عملاً:

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ اللّه ولا نشرك به شيئاً ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللّه فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون﴾.[٢]

دفع القرآن الكريم بهذه الآية، الأباطيل والتشويه من الدين، والتأكيد على كلمة منصفة، ليس فيها أيّ غشّ وانحراف عن الحقّ ودعى إلى إحياء أصول مشتركة بين الأديان السماوية التي أكّد عليها جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام بلا استثناء، فالمنكر لهذه الأصول يعتبر مشركاً وناكراً، للتوحيد ومعوجّاً عن طريق الاستقامة والرشاد. فالآية تكشف لنا أنّ أهل الكتاب لم يلتزموا بهذه الكلمة وانفصلوا عن الصراط المستقيم.

ومن هذا المنطلق فنحن كأبناء الدين الإسلامي، أيضاً تجمعنا أصول وأحكام مشتركة، فالجاحد منّا لهذه الأصول والأحكام يكون خارجاً من الدين الحنيف، ومن هذه الأصول: عدم توحيد الخالق، وعدم القول ببعثة النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله، وإنكار حكم الصلاة والصوم والحجّ و... الخ.

ومن هذه الأصول والأحكام أيضاً التي نلتزم بها كمسلمين، من خلال

---

١. نهج البلاغه، كتاب ٥٣.

٢. آل عمران: ٦٤.

الآيات القرآنية، هو التبرّي من الظالمين ولعنهم. ومن جملة الظالمين الملعونين في القرآن: الكاذبون، والذين يكتمون الحقّ، والمنافقون، وضُلاّل كبار وسادات القوم وطوائفهم المضلّة، و محرّفوا كلام اللّه، والناقضون لمواثيقه تعالى، وعبّاد الطواغيت، والمفسدون في الأرض.

ومن جملة هذه الآيات الدالّة على لعنهم والبراءة منهم:

﴿ثمّ نبتهل فنجعل لعنة اللّه على الكاذبين﴾.[1]

﴿أولئك جزاؤهم أنّ عليهم لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين﴾.[2]

﴿الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعد ما بيّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم اللّه ويلعنهم اللاعنون﴾.[3]

فما ورد من نصوص قرآنية كثيرة في هذا السياق، لا مندوحة لمسلم بمولاة الظالم والركون إليه، بل سوّغ القرآن للمسلمين كافّة لعن الظالمين أبد الآبدين.

فنحن أبناء الدين الإسلامي، سواء قلنا إنّ أهل البيت هم أصحاب الكساء، أو نساء النبيّ صلى الله عليه وآله، أو أقرباءه، أو... الخ، يجب أعلان الولاء لهم والتبرّي من ظالميهم ولعنهم أبد الدهر، حيث أنّ أهل البيت، هم أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله الذين يجب علينا أن نواليهم، بمقتضى أمر ووصاية رسول اللّه صلى الله عليه وآله، والظالم لهم يجب إعلان البراءة من عمله، بمحكم آيات الكتاب

---

١. آل عمران: ٦١.

٢. آل عمران: ٨٧.

٣. البقرة: ١٥٩.

المبين، باعتبار أنّ الظلم واقع على من أوصى النبيّ صلى الله عليه وآله بولائهم.[١]

إذن، فإعلان الولاء لأهل البيت والتبرّي من ظالميهم، لا ينحصر في حقبة تاريخية معيّنة حتى نقول إنّ ما حدث من ظلم لأهل البيت بين الحين والآخر هو من الاجتهادات الخاطئة، وأنّ اللّه يعفو عمّا سلف، بل هو شعار المؤمنين والمسلمين على طول مسيرة الحياة البشرية.

وقد التزم المذهب الشيعي بالنصوص القرآنية ووصاية النبيّ بإعلان حبّه لأهل بيته، وبراءته من ظالميهم ولعنهم، بعكس المذهب السنّي الذي أعلن الولاء لهم ولظالميهم!!، وكان وما زال المذهب السنّي يكتفي بإعلان الحبّ لأهل البيت دون إعلان البراءة من ظالميهم، فالسنّة والجماعة بمنهجم هذا، نبذوا آيات القرآن الكريم ووصاية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وراء ظهورهم في هذا السياق، كأنّهم قد أُلقموا حجراً على طول مسيرة حياة الإسلام.

فالمسلمون جميعاً مدعوّون بنصوص القرآن ووصاية النبيّ صلى الله عليه وآله إلى التبرّي من الظالمين، خصوصاً ممن ظلم أهل البيت عليهم السلام، ويجب أن تظهر هذه البراءة بشكل صريح في جميع وسائل الإعلام، ليستبين للناس وخصوصاً المسلمين جميعاً مدى تمسّكنا بأحكام الشريعة الإسلامية.

فمن لم يعلن براءته من ظالمي أهل البيت عليهم السلام فهو كمن له قلبان في جوفه، يعشق التوحيد والشرك، والإيمان والكفر، والإسلام والنفاق في

---

١. «إنّ محبّة أهل البيت (رضي اللّه عنهم) من الواجبات عندنا معاشر أهل السنّة لما سبق من الأخبار الصحيحة والآثار الرجيحة، فإنّهم يتميّز بحبهم إيمان المرء من نفاقه...». صبّ العذاب على من سبّ الأصحاب، لأبي المعالي محمود شكري الآلوسي: ١٦٧.

آن واحد!

فالبطاقة أو الهويّة الشخصية لكلّ مسلم على مدى حياته، يجب أن تكون إعلان ولائه لأهل البيت النبيّ صلى الله عليه وآله، والتبرّي من ظالميهم، ولعنهم عبر كافّة وسائل الإعلام إلى يوم القيامة.



الفرق بين مقام النبوّة والإمامة

من خلال تجوالنا وبحثنا في موضوع الفرق بين مقام النبوّة والإمامة عند علماء مدرسة أهل البيتعليهم السلام، عثرنا على أربع آراء في هذا المجال، وهي:

الرأي الأوّل:

هو القائل أنّ الامام من يُقتدى به في أقواله وأفعاله، ولا منافاة بين كون إبراهيمعليه السلام كان نبيّاً ورسولاً ولم يكن إماماً عامّاً، ثمّ صار كذلك جزاء إتمام الكلمات التي امتحن بها، وأيضاً أنّ الامامة قد لا تحمل مفهوماً مقابلاً للنبوّة في مفهومها الواقعي العام و... الخ.[1]

ونجيب أولاً: أنّ الأنبياء كلّهم هم قدوة للناس جميعاً، فالبشارة بالامامة لإبراهيمعليه السلام حينئذ تكون تحصيلاً للحاصل.

---

١. لمزيد الاطلاع راجع تفسير من وحي القرآن، للسيد محمد حسين فضل الله؛ وتقريب القرآن إلى الأذهان، للسيد محمد الشيرازي؛ وتأويل الآيات الظاهرة للسيد شرفالدين الحسيني الاسترآبادي، من أعلام القرن العاشر.

الثاني: روايات أهل البيت عليهم السلام تشير أنّ إبراهيم عليه السلام نال مقام الامامة بعد رقيّه مراتب العبودية، ثمّ النبوية، ثمّ الرسولية، ثمّ الخلية، ومنها:

«**إنّ الله تبارك وتعالى اتّخذ ابراهيم عبداً قبل أن يتّخذه نبيّاً وإنّ الله اتّخذه نبيّاً قبل أن يتّخذه رسولاً وإنّ الله اتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً وإنّ الله اتّخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً فلمّا جمع له الأشياء قال إنّي جاعلك للناس إماماً**».[1]

وهذا يعني أنّ الامامة وإن كانت تلتقي مع النبوة والرسالة في مفهوم الهداية والقدوة، إلاّ أنّها تنفرد عنهما بخصائص أُخر، كما تنفرد الرسالة عن النبوة بنزول الصحف والكتب السماوية.

الرأي الثاني

وهو القائل بالتفاوت في نوع تلقي الوحي والأوامر الإلهية بين النبيّ والإمام، لورود روايات كثيرة تبيّن نوعية الاتّصال بالغيب، وهو رأي مال إليه العلاّمة محمّدباقر المجلسي صاحب موسوعة البحار[2]، وهو غير مقتنع تماماً بهذا الرأي، وقد سرد في موسوعته روايات جمّة في خصائص الإمامة وتفاوت نوع تلقّي الوحي والأوامر الإلهية بين النبيّ والإمام، انتقينا منها:

١ـ عن زرارة: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنّ أباك حدّثني أنّ عليّاً

١. الكافي ١: ٢/١٧٥ و ٤؛ الاختصاص، الشيخ المفيد: ٢٢ و ٢٣.
٢. ومن المعاصرين آية الله أميني، مال إلى هذا الرأي أيضاً في كتابه: بررسى مسائل كلى امامت، فرق دوم: ٢٧٢، ط: مكتب الإعلام الإسلامي للحوزة العلمية بقم المقدّسة.

والحسن والحسين عليهم السلام كانوا محدّثين، قال فقال: كيف حدّثك؟ قلت حدّثني أنّه ينكت في آذانهم، قال: **صدق أبي**».[١]

٢ـ عن بريد العجلي: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الرسول والنبيّ والمحدّث، قال: **الرسول الذي تأتيه الملائكة تبلّغه عن الله تبارك و تعالى والنبيّ الذي يرى في المنام فما رأى فهو كما رأى والمحدّث الذي يسمع كلام الملائكة وينقر في أُذنه وينكت في قلبه**».[٢]

٣ـ عن أبي بصير: «سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: **إنّا لنزاد في الليل والنهار ولو لم نزد لنفذ ما عندنا**. قال أبو بصير: جعلت فداك من يأتيكم به، قال: **إنّ منّا من يعاين وإنّ منّا لمن ينقر في قلبه كيت و كيت ومنّا من يسمع بأُذنه وقعاً كوقع السلسة في الطست**. فقلت له: من الذي يأتيكم بذلك، قال: **خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل**».[٣]

٤ـ عن بريد العجلي: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن الرسول والنبيّ والمحدّث، فقال: **الرسول الذي تأتيه الملائكة ويعاينهم، تبلغه الرسالة من الله والنبي يرى في المنام فما رأى فهو كما رأى والمحدّث الذي يسمع كلام الملائكة وحديثهم ولا يرى شيئاً بل ينقر في أُذنه وينكت في قلبه**».[٤]

بعد أن سرد العلاّمة المجلسي رحمه الله في بحاره هذه الروايات، قال:

«استنباط الفرق بين النبيّ والإمام من تلك الأخبار لا يخلو من

---

١. البحار ٢٦: ٩/٦٩، نقلاً بصائر الدرجات.
٢. المصدر سابق: ٢٥/٧٤، نقلاً عن بصائر الدرجات.
٣. المصدر السابق: ٤/٨٧، نقلاً عن بصائر الدرجات.
٤. المصدر السابق: ٤٥/٨٢ نقلاً عن كنز جامع الفوائد.

إشكال وكذا الجمع بينها مشكل جدّاً والذي يظهر من أكثرها هو أنّ الإمام يرى الحكم الشرعي في المنام والنبيّ قد يراه فيه وأمّا الفرق بين الإمام والنبيّ والرسول، أنّ الرسول يرى الملك عند إلقاء الحكم والنبيّ غير الرسول والإمام لا يريانه في تلك الحال وإن رأياه في سائر الأحوال ويمكن أن يخصّ الملك الذي لا يريانه بجبرئيل ويعمّ الأحوال لكن فيه أيضاً منافاة لبعض الأخبار. ومع قطع النظر عن الأخبار لعلّ الفرق بين الأئمّة عليهم السلام وغير أُولي العزم من الأنبياء أنّ الأئمّة عليهم السلام نواب للرسول صلى الله عليه وآله لا يبلّغون إلاّ بالنيابة وأمّا الأنبياء وإن كانوا تابعين لشريعة غيرهم لكنّهم مبعوثون بالأصالة وإن كانت تلك النيابة أشرف من تلك الأصالة... ولا يصل عقولنا إلى فرق بين النبوّة والإمامة وما دلّت عليه الأخبار فقد عرفته والله تعالى يعلم حقائق أحوالهم صلوات الله عليهم أجمعين».[1]

والفكر الشيعي عندما يذعن بوجود كمالات لصاحب الإمامة، وأنّ مقام الإمامة أعلى وأسمى من مقام النبوّة والرسالة، فالروايات الواردة عن كيفية اتّصال الجميع بعالم الغيب، لا يكون فيها مؤشّراً واضحاً عن اختلاف مقامات هؤلاء جميعاً، فالشيطان الرجيم كان متّصلاً بالغيب وتكلّم مع ربّ العالمين، ومريم العذراء قد تمثّل لها الروح ـ وهو خلق عظيم ـ على شكل بشر، وأُمّ موسى قد أُلهمت طريقة نجاة ابنها، وكذلك الخضر العبد الصالح، يخبر موسى أنّه لم يؤدّ أفعاله بنوازع نفسية، بل كانت بأمر إلهي، وأيضاً نجد أنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام يسمع ويرى ما

١. بحار الأنوار ٢٦: ٨٢.

يسمع و يرى النبيّ إلاّ أنّه ليس بنبي، و... الخ.

فطريقة الاتّصال بالغيب لا تدلّ على السموّ والرفعة، أو اختلاف المقامات، ولهذا نجد أنّ العلاّمة المجلسي رحمه الله يرى أنّ روايات اختلاف تلقّي الوحي بين النبيّ والإمام، لا تكشف ولا تبعث على الإيقان باختلاف مقاماتهم، فيقول:

«وما دلّت عليه الأخبار فقد عرفته، واللّه تعالى يعلم حقائق أحوالهم صلوات اللّه عليهم أجمعين».

الرأي الثالث:

ما يذهب إليه بعض العلماء على أنّ الفرق بين النبيّ والإمام، هو أنّ النبيّ تنحصر مسؤوليّته في بيان الحلال والحرام، وإراءته طريق صلاح وخير البشر، وتحفيزهم إلى كلّ ما يقرّبهم من رضا اللّه وجنّته، وتحذيرهم من كلّ ما يغضب الربّ ويدخلهم ناره وحسب، أمّا الإمام عندهم فهو من يقوم بتدبير الأُمّة، سياسيّاً واجتماعياً، وإجراء الأحكام والحدود الإلهية، و... الخ.

هذا ما فهمناه من المحقق نصيرالدين الطوسي رحمه الله من خلال قوله:

«أنّه [الإمام]* يقوم بتدبير الأُمّة وسياستها وتأديب جناتها والقيام بالدفاع عنها وحرب من يعاديها وتولية ولاية من الأمراء والقضاة وغير ذلك وإقامة الحدود على مستحقيها... فلا يجب في كلّ نبيّ أن يكون القيّم بتدبير الخلق ومحاربة الأعداء والدفاع عن أمر اللّه بالدفاع عنه من

*. ما بين [] اضافة منّا.

المؤمنين لأنّه لا يمتنع أن تقتضي المصلحة بعثة نبيّ وتكليفه إبلاغ الخلق ما فيه مصلحتهم ولطفهم في الواجبات العقلية وإن لم يُكلّف تأديب أحد ولا محاربة أحد ولا تولية غيره، ومن أوجب هذا في النبيّ من حيث كان نبيّاً فقد أبعد وقال ما لا حجّة له عليه».[١]

ونجيب، أوّلاً:

أنّ القيام بتشكيل دولة إلهية وتدبير أُمّة وسياستها وإجراء الأحكام، لا ينحصر في مقام الإمامة، ولا يكون من علاماتها الفارقة بينها وبين مقام النبيّ، كي نجزم ونقول الفارق هو ذاك، بل تشكيل دولة إلهية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو أيضاً من واجبات الفقهاء والمؤمنين في عصر الغيبة، بل هو من مستلزمات و مبادئ المجتمع الإنساني كلّه، فالإنسان محكوم بسياسة وحكومة منذ نعومة أظفاره، في أصغر خلية اجتماعية وهي العائلة، سواء كانت هذه السياسة والحكومة مفيدة له أو مضرّة به، راضياً بها أو مكرهاً عليها. وكلّما اتّسعت هذه الخليّة الاجتماعية، يجد الإنسان نفسه محاصراً بأمواج من السياسات والأحكام، فالمحلّة والمنطقة والمدينة و... مسيّسة بأحكام لابدّ من مراعاتها، ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«**لابدّ للنّاس من أمير، برٍّ أو فاجر**».[٢]

وكذلك قال عليه السلام: «**أوصيكم عباد الله بتقوى الله ونظم أمركم**».[٣]

١. لمزيد التفصيل راجع الرسائل العشر، مسألة في الفرق بين النبيّ والإمام.
٢. نهج البلاغة، خطبة ٤٠.
٣. المصدر السابق، خطبة ٤٧.

فنظم أُمور المجتمع الإسلامي، أو الإنساني، لا يتحقق إلاّ بحكومة وتقنين قوانين ومراعات حدودها. وعلى هذا الأساس فالنبيّ والإمام كلاهما ملزمان بإقامة حدود الشريعة الإلهية فيما لو أتاحت الظروف لهم إقامتها، هذا ما نفهمه من آيات عديدة وردت في القرآن الكريم تشير إلى إلزام الإنسان المتشرّع بإقامة القوانين الإلهية ومراعات حدودها، وأنّ تعطيلها مع وجود الأرضية المناسبة لها، وعدم تحمّل المسؤولية تجاهها، يؤدّى إلى الكفر والفسوق والعصيان، وظهور أحكام الجاهلية. فمن هذه الآيات:

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم اللّه من ينصره ورسله بالغيب إنّ اللّه قويّ عزيز﴾.(١)

وأيضاً قوله تعالى:

﴿وكيف يحكّموك وعندهم التوراة فيها حكم اللّه ثمّ يتولّون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى و نور يحكم بها النبيّون الذين أسلموا للذين هادوا والربّانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب اللّه وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم الكافرون *... ومن لم يحكم بما أنزل اللّه فأولئك هم الظالمون *... وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل اللّه فيه ومن لم يحكم بما أنزل

١. الحديد: ٢٥.

الله فأولئك هم الفاسقون ﴾... أفحكم الجاهلية يبغون﴾.(١)

وثانياً:

لم نعثر على نصّ قرآني أو روائي، على أنّ نبيّاً من أنبياء اللّه تهيّأت له أجواء إقامة حكومة وتدبير أُمّة ونهاه اللّه عزّ وجل عن إقامتها.

وثالثاً:

من السذاجة أن نقول إنّ إبراهيم الخليل عليه السلام لم يكن في مرحلة النبوّة أو الرسالة، مؤهّلاً لقيادة وتدبير كتلة بشرية، حتى نال هذه القدرة في أواخر عمره، علماً أنّه عليه السلام بُشّر بهذه المنزلة في صحراء قاحلة، خالية من مجموعة وتكتّل سكّاني آنذاك!

فهل كانت مسيرة حياة ابراهيم عليه السلام التكاملية وكذلك الابتلاءات الربانية له، من أجل حصوله في آخر مطاف كمالاته الإنسانية على أهلية تدبير تكتّل بشري، و من سعادته وفرحته بهذه الأهلية يطلبها لذرّيته!

إذن، اختلاف مقامات البشر، وتنوّع التكليف الإلهي لهم، لا يعني استثناء بعضهم بعدم تطبيق أحكام الشريعة السماوية فيما لو تحقّقت لديهم أرضيّة تطبيقها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

الرأي الرابع:

أنّ مقام الإمامة يتمتّع بهداية ملكوتية لإيصال البشر إلى الغاية المنشودة من خلقهم دون مجرّد ارائة الطريق الذي هو شأن من كان في منصب النبوّة والرسالة. ويفيدنا العلاّمة السيّد الطباطبائي رحمه الله في هذا

١. المائدة: ٤٢ ـ ٥٠.

السياق قائلاً:

«والذي نجده في كلامه تعالى: إنّه كلّما تعرّض لمعنى الإمامة تعرّض معها للهداية تعرّض التفسير، قال تعالى في قصص إبراهيم عليه السلام: ﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين وجعلناهم أئـمّة يـهدون بأمرنا﴾ (الأنبياء: ٧٣) وقال سبحانه: ﴿وجعلنا منهم أئمّة يهدون بأمـرنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ (السـجدة: ٢٤)، فـوصفها بـالهدايـة وصف تعريف، ثمّ قيدها بالأمر، فبيّن أنّ الإمامة ليست مطلق الهداية، بل هي الهداية التي تقع بأمر اللّه، وهذا الأمر هو الذي بيّن حقيقته في قوله: ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يـقول له كـن فـيكون، فسـبحان الذي بـيده ملكوت كلّ شيء﴾ (يس: ٨٣)، وقوله: ﴿ومـا أمـرنا إلاّ واحـدة كـلمح بالبصر﴾ (القمر: ٥٠)، وسنبيّن في الآيتين أنّ الأمر الإلهـي، وهـو الذي تسمّيه الآية المذكورة بالملكوت وجه آخر للخلق، يواجـهون بـه اللّـه سبحانه، طاهر مطهّر من قيود الزمان والمكان، خالٍ من التغيّر والتـبدّل وهو المراد بكلمة «كن» الذي ليس إلاّ وجود الشيء العيني، وهو قـبال الخلق الذي هو وجه آخر من وجـهي الأشـياء، فـيه التـغيّر والتـدرّج والانطباق على قوانين الحركة والزمان».[1]

ثمّ يقول رحمه الله:

«وبالجملة، فالإمام هادي يهدي بأمر ملكوتي يـصاحبه، فـالإمامة بحسب الباطن نحو ولاية الناس في أعمالهم، وهدايتها إيصالها إيّـاهم

١. الميزان في تفسير القرآن، الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

إلى المطلوب بأمر من اللّه دون مجرّد إرائة الطريق الذي هو شأن النبيّ والرسول».[١]

ويزيدنا السيّد الطباطبائي رحمه الله قائلاً:

«ثمّ انّه تعالى بيّن سبب موهبته الإمامة بقوله ﴿لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ فبيّن انّ الملاك في ذلك صبرهم في جنب اللّـه ـ وقد أطلق الصبر ـ في كلّ ما يبتلى ويمتحن به عبد في عبوديته، وكونهم قبل ذلك موقنين».

وكذلك:

«وبالجملة فالإمام يجب أن يكون إنساناً ذا يقين مكشوفاً له عالم الملكوت».[٢]

فمن خلال النصوص المذكورة، يتبيّن للعالم البصير أنّ أصحاب هذه النظرية، وعلى رأسهم العلاّمة الطباطبائي رحمه الله، قد آمن بها من خلال الآية الثالثة والسبعين من سورة الأنبياء، وكذلك الآية الرابعة والعشرين من سورة السجدة، ولكن التمسّك بالقرآن وحده دون الرجوع إلى روايات أهل البيت عليهم السلام التي بيّنت و فسّرت الآيتين المذكورتين، غير مقبول في منهج التحقيق والاستنباط والتنظير، للأمر النبوي القائل بالتمسّك بالثقلين. ثمّ شفع العلاّمة تنظيره بآيات أُخر، وهو محظور، للنهي العلويّ القائل بعدم جواز عطف القرآن وآياته على الآراء الشخصية.[٣]

١. راجع المصدر.
٢. راجع المصدر.
٣. غرر الحكم، ١٦٥٨؛ نهج البلاغه، خطبه ٨٧.

ولنا على هذه النظرية ردود:

الردّ الأوّل:

لم يستشهد أصحاب هذه النظرية بالروايات المفسّرة للآيتين المستدلّ بها على منصب الإمامة إطلاقاً، حيث أنّ الروايات في هذا السياق إمّا بيّنت خصوصية الإمام أو حصرت منزلة الإمامة في أئمّة أهل البيت عليهم السلام خاصّة، أو الشكّ أو منزلة الصبر، ولم تشر أحدى هذه الروايات إلى هداية ملكوتية ـ كما قيل ـ منها:

عن زيد بن جعفر عن أبيه عليه السلام:

«قال اللّه عزّوجل: ﴿وجعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا﴾ لا بأمر الناس يقدّمون أمر اللّه قبل أمرهم وحكم اللّه قبل حكمهم».(١)

ومنها عن حفص بن غياث قال، قال أبو عبداللّه عليه السلام:

«... ثمّ بشّر في عترته بالأئمّة ووُصفوا بالصبر قال تعالى جلّ ثناؤه: ﴿وجعلنا منهم أئمّة يهدون بأمرنا لمّا صبروا وكانوا بآيتنا يوقنون﴾ فعند ذلك قال صلى الله عليه وآله الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد».(٢)

ومنها أيضاً، عن الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: **﴿وجعلنا منهم أئمّة﴾** قال عليه السلام: **«نزلت هذه الآية في ولد فاطمة عليه السلام خاصّة وجعل اللّه منهم أئمّة يهدون بأمره».**(٣)

١. الكافي ١: ٢/٢١٦؛ الاختصاص: ٢١، حديث الغار؛ بصائر الدرجات: ٢/٣٢؛ تفسير القمي ٢: ١٧٠.

٢. الكافي ٢: ٣/٨٨؛ البحار ١٨: ١٣/١٨٢، نقلاً عن تفسير القمي؛ الوسائل ١٥: ٢٠٤٥٤/٢٦١.

٣. بحار الأنوار ٢٤: ٢٠/١٥٨، نقلاً عن تفسير فرات بن إبراهيم، وكذلك راجع تأويل الآيات

فالتفسير الروائي لهذه الآيتين ـ كما هو واضح ـ لم يساند أصحاب نظرية الهداية الملكوتية، بل يساند ما حققناه في آية التطهير، وكذلك يساند ما سجّلناه في تحقيق هذا الموضوع، كما سيأتي.

الردّ الثاني:

إذا كانت هناك هدايتان، هداية تُري الطريق و هو شأن الأنبياء والرسل، وأخرى توصل إلى المطلوب وهو شأن الإمامة، فإنّهما لا تخلوان من أن تكون الهداية الأُولى أسمى أو مساوية للثانية، فعند ذلك لم يتبيّن الفرق بين مقام النبوّة والإمامة، أو نقول بأنّ الهداية الثانية هي أسمى من الأُولى، فعند ذلك لا يجوز لمن كانت هدايته أسمى أن يقتدي بمن هو دونه هداية، والحال أنّ الأدلّة الواردة من أهل البيت عليهم السلام تشير إلى أنّ رسول اللّه والأئمّة كانوا مأمورين بالإقتداء بهداية الماضين من الأنبياء، ومن هذه الروايات ما عن التفسير القمي:

«ثمّ قال تأديباً لرسول اللّه صلى الله عليه وآله ﴿أولئك الذين هدى اللّه فبهداهم اقتده﴾ يا محمّد».[١]

وأيضاً عن محمّد بن الحنفية والصادق عليه السلام:

«قال اللّه عزّ وجل لأعزّ خلقه محمّد صلى الله عليه وآله: ﴿أولئك الذين هدى اللّه فبهداهم اقتده﴾ وقال عزّ وجل: ﴿ثمّ أوحينا إليك أن اتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً﴾ فلو كان لدين اللّه مسلك أقوم من الاقتداء لندب أنبياءه وأولياءه إليه».[٢]

الظاهرة للسيّد شرف الدين، سورة السجدة وما فيها من الآيات في الأئمّة.

١. التفسير القمي ١: ٢٠٩، ولادة إبراهيم عليه السلام.

٢. بحار الأنوار ٢: ١٩/٢٦٥؛ مصباح الشريعة: ١٥٦، باب في الاقتداء.

وكذلك ما ورد عن أبي عبدالله عليه السلام:

«إنّ الله قد أخذ ميثاق كلّ نبيّ وكلّ مؤمن ليؤمننّ بمحمّد وعليّ وبكلّ نبيّ بالولاية، ثمّ قال لمحمّد: ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ يعني آدم ونوحاً وكلّ نبيّ بعده».(١)

الردّ الثالث:

لم أعثر على آيات أو روايات تشير إلى تمتّع أناس بهداية ملكوتية، يأخذوا بأيدي الناس ليوصلوهم إلى المطلوب. فمن يتلو آيات الذكر الحكيم يجد فيها أنّ الله لا يكره أحداً على دينه، وأنّه تعالى لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم وأنّ الرسول لا يهدي من أحبّ ولكن الله يهدي من يشاء، وأنّ الإنسان قد أُلهم النجدين إمّا شاكراً وإمّا كفوراً، فليس هناك سلطة قهرية تتحكّم بقلوب البشر.

ومن هنا، فجميع الأنبياء والرسل والأولياء، وإن تعددت طرق اتصالهم بالغيب، فهم مكلّفون بتبليغ الرسالة وهداية الناس للتي هي أقوم، بأمر من الله، وإيصالهم إلى المطلوب.

الردّ الرابع:

استشهد أصحاب نظرية الهداية الملكوتية بأمر اللّه، برواية عن الصادق عليه السلام تدلّ على أنّ إبراهيم عليه السلام مرّ بأربع مراحل كمالية، ثمّ نال الإمامة في المرحلة الخامسة، وهي: العبودية، ثمّ النبوية، ثمّ الرسولية، ثمّ الخِلّية.

فإذا كانت الإمامة دالّة على الهداية الملكوتية، والنبوّة والرسالة

١. بحار الانوار: ٢٦ ٢٨٤/٤٢، نقلاً عن بصائر الدرجات.

دالّتان على الهداية التشريعية، إذن فما هي هداية مرحلة الخلّية والعبودية في إبراهيم؟! كذلك ما هي هداية الكليمية عند موسى عليه السلام، والروحية عند عيسى عليه السلام والحبيبية عند محمّد صلى الله عليه وآله، وأيضاً ما هي هدايات الأنبياء كالأوّابية عند داود عليه السلام، أو الحليمية والأوّاهية والمنيبيّة عند أبو الأنبياء عليه السلام و... الخ!

فالظاهر والواضح من الثقلين، أنّ جميع الأنبياء وخلفاءهم، تكليفهم تجاه البشرية واحد، وهو تبليغ الشريعة، وإيصالهم إلى المطلوب، وإن تفاوتت أبعاد أداء المهمّة عندهم، يقول أبو الأئمّة، عليّ عليه السلام:

«واصطفى سبحانه من ولده أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم... فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكّروهم منسيّ نعمته ويحتجّوا عليهم بالتبليغ... ولم يُخلِ اللّه سبحانه خلقه من نبيّ مرسل، أو كتاب منزل، أو حجّة لازمة، أو محجّة قائمة... إلى أن بعث اللّه سبحانه محمّداً رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم لإنجاز عِدَتِه وإتمام نبوّته، مأخوذاً على النبيّين ميثاقه... وخلّف فيكم ما خلّفت الأنبياء في أممها إذ لم يتركوهم هملاً، بغير طريق واضح، ولا عَلَم قائم».[1]

الردّ الخامس:

حدّثنا القرآن الكريم بآيات كثيرة، عن قيادة النبيّ موسى عليه السلام بني إسرائيل إلى المطلوب، فأصبحت أمّته أفضل الأمم بشهادة اللّه في تلك العصور، ومع ذلك كان هذا الرسول مفتقراً شرطين أساسيّين من شروط الإمامة، والتي أشارت اليهما الآية الرابعة والعشرين من سورة السجدة،

---

١. نهج البلاغة، خطبه ١.

وهما الصبر واليقين، فرحلته مع الخضر عليه السلام قد بيّنت لنا بوضوح تامّ فقدانه الحدّ المطلوب من الصبر واليقين الضروريّان لمقام الإمامة. وكذلك خليفتيه هارون ويوشع عليهما السلام اللذان كانا يهديان بني إسرائيل إلى المطلوب، ليس لدينا أيّ دليل قرآني أو روائي على إمامتهما، ولا يجزم ولا يرتضي أحد القول بأنّهما كانا أفضل وأسمى منزلة عند اللّه من النبيّ إبراهيم عليه السلام في مرحلتيه النبوية والرسالية.

الردّ السادس:

وردت نصوص قرآنية كثيرة تدلّ على أنّ جميع الأنبياء والمرسلين يأخذون بأيدي المكلّفين إلى الغاية المطلوبة، ويوصلونهم إلى الهدف المنشود، فتلك الآيات تحرّض الناس والمؤمنين على الاقتداء بالأنبياء والرسل، ونهج منهجهم، منها آيات كثيرة حفلت بمشتقات مادّة «تَبَعَ» وهي بمعنى السير في أثرهم، والانقياد التامّ لهم، والمضيّ معهم، والامتثال لهم، وحذو حذوهم. منها:

﴿سنشدّ عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومَن اتّبعكما الغالبون﴾.[1]

أيضاً:

﴿وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا قوم اتّبعوا المرسلين﴾.[2]

وكذلك:

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئنِ اتّبعتم شعيباً إنّكم إذاً

---

١. القصص: ٣٥.

٢. يس: ٢٠.

لخاسرون﴾.[١]

إذن لا ينحصر مقام النبوّة والرسالة بارائة الطريق فقط، كما قيل، فالقيام بتدبير الأُمّة وسياستها هو من واجبات المؤمنين ما استطاعوا إليه سبيلاً، بل نظام البشرية يوجب ذلك، وكذلك ليس هناك هداية ملكوتية تأخذ بأيدي الناس جبراً وقسراً لتوصلهم إلى المطلوب، فهو خلاف نصوص محكمات آيات القرآن الكريم.

الردّ السابع:

من الواضح أنّ عاملي الصبر واليقين هما سبب مقام الإمامة، وبما أنّ الأنبياء جميعاً يتمتعّون بهذين العاملين أيضاً، فمن هنا لم يبيّن السيّد الطباطبايي رحمه الله مميّزات صبر مقام الإمامة ويقينها عن صبر ويقين مقام النبوة والرسالة.

* * *

ما تقدّم من نظريات في الفرق بين مقام النبيّ والإمام هو ما وجدناه في كتب علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وقد سجّلنا ردودنا عليها.

تحقيق الموضوع:

هو ما حقّقناه من خلال آية التطهير، من أنّ مقام الإمامة دالّ على عدم الشكّ في أمر اللّه تعالى وعدم الاعتراض على أفعاله سبحانه، ونزيد:

أنّ الإمامة منزلة سامية ومقام رفيع، طالما حلم بمقامها الأنبياء وأوصياؤهم، وبذلوا قصارى جهدهم في ساحة عبودية اللّه سبحانه

---

١. الأعراف: ٩٠.

لحصولهم هذا المقام، فالقرآن الكريم بيّن لنا مؤهلات المؤمن صاحب هذا المقام، والمتشرّف بهذه الفضيلة، بقوله:

﴿**وجعلنا منهم أئمّة يهدون بأمرنا لمّا صبروا وكانوا بآيتنا يوقنون**﴾.[١]

فهذه الآية المباركة تشير إلى مؤهّلين أساسيّين لنيل مقام الإمامة، وهما الصبر واليقين، ومع تمتّع جميع الأنبياء والرسل بخصلتي الصبر واليقين، إلاّ أنّهم لم ينالوا مقام الإمامة. للتبعيض في الآية ﴿**وجعلنا منهم**﴾. فمن هنا نفهم أنّ وسام الإمامة لم يقلّد إلاّ لمن وصل من المؤمنين الأتقياء الذورة العليا من الصبر واليقين، والمرتبة المطلوبة والدرجة الرفيعة في هاتين الصفتين عند اللّه، ومن لم يحصل الحدّ المطلوب من الصبر واليقين، لم ينل مقام الإمامة أبداً.

وقد ذكرنا لك أيّها القارئ اللبيب، في الصفحات السابقة، مقامات إبراهيم الخليل عليه السلام الدينية، قبل أن ينال مقام الإمامة، وأنّه عليه السلام كان قبل حصوله على هذا المقام قد عايش اضطراب القلب والشكّ في أفعال اللّه، وكذلك كان ممّن جادل ربّ العالمين للحيلولة دون وقوع العذاب على قوم لوط عليه السلام، ولم يستبشر بما أخبرته الملائكة من إرادة المولى تعالى بميلاد إسحاق ويعقوب عليهما السلام.

والصادقين عليهما السلام بيّنا لنا مراحل تكامل إيمان أبي الأنبياء بقولهما:

«**إنّ اللّه تبارك وتعالى اتّخذ ابراهيم عبداً قبل أن يتّخذه نبيّاً وإنّ اللّه اتّخذه نبيّاً قبل أن يتّخذه رسولاً وإنّ اللّه اتّخذه رسولاً قبل أن يتّخذه خليلاً وإنّ اللّه**

١. السجدة: ٢٤.

اتّخذه خليلاً قبل أن يجعله إماماً فلمّا جمع له الأشياء قال إنّي جاعلك للناس إماماً».[١]

هذا ما كان يعايشه النبيّ إبراهيم عليه السلام من ضعف إيمان بالنسبة إلى مقام الإمامة، حتى تسامى ونال مقامها بتهذيب النفس، والعمل بما يريد المولى تعالى، وبعد عبوره الابتلاءات والامتحانات الربّانية بنجاح.

وتطرّق القرآن الكريم أيضاً إلى رسول من رسل ربّ العالمين، ونبيّ من أنبياء أولي العزم، وأشار إلى ضعف صبره ويقينه، وفشله في مسايرة عبد صالح لتعلّم العلم اللدنّي منه، وهو موسى كليم اللّه عليه السلام الذي اعترض على أفعال أُستاذه الخضر عليه السلام، وقد نبّأه هذا الأُستاذ قبل الرحلة بأنّه سيعترض، ولا يستطيع رعاية أدب التعلّم بسبب فقدان الصبر واليقين، فقال له: ﴿**إنّك لن تستطيع معي صبراً**﴾، ثمّ أكد له مرّة ثانية: ﴿**وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً**﴾.[٢] وبعد أن أذعن موسى عليه السلام أنّه لا يقوى على المسايرة للتعلّم، قال له العبد الصالح: ﴿**وما فعلته عن أمري**﴾[٣] أي أنّ كلّ ذلك كان بأمر من اللّه سبحانه، وأنّ اعتراضات الرسول موسى عليه السلام في الواقع كانت على أوامر وأفعال ربّ العالمين.

فإذا كان صبر و علم موسى عليه السلام، وهو نبيّ من أولي العزم آنذاك، لا يقاس ولا يقارن بصر وعلم الخضر عليه السلام، الذي هو من تلامذة أهل البيت عليهم السلام، فهل يمكن لنا أن نقارن صبر وعلم وإيمان موسى عليه السلام بصبر

١. الكافي ١: ٢/١٧٥ و ٤؛ الاختصاص، الشيخ المفيد: ٢٢ و ٢٣.
٢. الكهف: ٦٧ و ٦٨.
٣. الكهف: ٨٢.

وعلم وإيمان أهل بيت النبوّة عليهم السلام! إنّ الذي يقوم بالمقارنة والمقايسة، فهو جاهل وظالم لآل النبيّ صلى الله عليه وآله، حيث ورد عن لسانهم:

«لا يقاس بنا أحد».[1]

فممّا تقدّم، يظهر جليّاً أنّ الفارق بين مقام النبوّة والإمامة لا يكمن في تولّي أحدهم السلطة الإجرائية وتدبير وسياسة الأُمّة وتنظيم شؤونها دون الآخر، فهذه الأُمور من وظائف العباد جميعاً لتنظيم أمورهم الحياتية، بل الفارق بينهما إنّما هو في درجات الإيمان والتقوى، والتسليم لإرادة المولى تعالى، وأن لا يشكّ أو يعترض على قول وإرادة اللّه سبحانه.

تنويه:

يقوى عندي أنّ جميع الأنبياء، بإستثناء النبيّ إبراهيم عليه السلام، لم يصلوا إلى مرتبة الإمامة الربّانية، لأنّ نصّ آيات القرآن يقضي عندي بعدم كون أحد منهم إماماً، وكذلك روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام لم تشر إلى إمامة أحد من الأنبياء إلاّ إمامته عليه السلام.



١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٩٧/٦٦؛ علل الشرائع ١: ٢/١٧٧.

خاتمة أبحاث الكتاب

يمكن لنا تلخيص بحوثنا في هذا الكتاب بأنّ الشارطين وجوب العصمة في مدّعي النبوّة هو لتسكين نفوسهم وتطمين قلوبهم، بأنّ كلّ ما يرد إليهم من مدّعي النبوّة هو مراد المولى تعالى. وبما أنّ مسألة التشريع الإلهي يدور مدارها بين ثلاث أطراف وهم: المُرسِل، والرسول، والمرَسل إليه، فشرط العصمة لا تزيد على ثلاث احتمالات:

الاحتمال الأوّل:

أن يشرط المرسَل إليه، على المُرسِل عصمة الرسول، وإلاّ فلا يؤمن بالوحي لانعدام الثقة وعدم سكون النفس.

هذا الشرط غير وارد، لأنّ المرسِل ﴿**لا يُسأل عمّا يفعل**﴾[1] وكذلك إنّ عملية تلقي الوحي والإبلاغ تقع مسؤوليتها على الرسول تجاه المرسِل، والمرسِل هو الناظر على الرسول في هذه المسألة:

---

١. الأنبياء: ٢٣.

﴿ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثمّ قطعنا منه الوتين﴾.[١]

ولا يتدخّل أحد من البشر في هذه المسألة ليشرط وينظّر على اللّه بما تشتهيه نفسه حتى يقول: لا واللّه لا يكون الرسول إلاّ بكذا وكذا:

﴿مالكم كيف تحكمون * أم لكم كتاب فيه تدرسون * إنّ لكم فيها لمَا تخيّرون * أم لكم أيمان علينا بالغةٌ إلى يوم القيامة إنّ لكم لمَا تحكمون﴾.[٢]

وكذلك:

﴿وربّك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان اللّه وتعالى عمّا يشركون﴾.[٣]

الاحتمال الثاني:

أن يشرط المرسَل إليه على الرسول العصمة، ليتحقق لهم الثقة، وتسكن أنفسهم بما يخبرهم الرسول من أخبار الغيب.

ويجيب الرسول على هذا الشرط بأنّي رجل مثلكم، قد امتزت عنكم بتكليف إيصال رسالة ربّ العالمين إليكم بشاهد معجز، ولا يهمّني فيما لو كفرتم، وما أنا بباخع نفسي على أن تكونوا مؤمنين، فعليّ ما حُمّلت وعليكم ما حمّلتم، ما عليّ إلاّ البلاغ، وما عليكم إلاّ الإيمان، وليس من وظائفي إعطاء كلّ نفس ثقتها وسكونها بما ينزل عليّ من وحي، حيث إنّ

١. الحاقّة: ٤٤ـ٤٦.
٢. القلم: ٣٦ـ٣٩.
٣. القصص: ٦٨.

طرق سكون نفوس البشر متفاوتة على قدر أنفاسهم. أنتم تطلبون العصمة لسكون واطمئنان أنفسكم وقلوبكم، وآخرون يطلبون أن يكون الرسول من الملائكة كي يكونوا أكثر اطمئناناً منكم، وبعض يشمئزّون منّي لأنّي آكل الطعام وأمشي في الأسواق، وأعيش كإنسان مثلهم اُلبّي حاجاتي المادّية، وبعض آخر يطلب رؤية اللّه جهرة، وآخرون لم يطلبوا منّي رؤية اللّه وحسب، بل طلبوا علاوة على ذلك، مشاهدة الملائكة جميعاً، وفي عصر التقنية يطلب الناس منّي مراكب فضائية للهبوط على سطح الشمس، وأُخرى تخترق المجموعة الشمسية بطرفة عين، والسبح في مجاميع أخرى، وأُناس يطلبون منّي قضاء فترة زمينة مع عالم الملائكة والجنّ! كلّ ذلك من أجل اطمئنان قلوبهم وسكون أنفسهم.

فالذي يشرط عليّ العصمة فهو على حدّ سواء مع الذي يطلب أموراً غيرها لاطمئنان قلبه وسكونه، كإحياء من في القبور جميعاً ليسألوهم عن صدق دعوتي. فهل تكليفي بدلاً من إبلاغ رسالات ربّي، بات إعطاء كلّ فوج من الناس ما يريح قلوبهم وأنفسهم؟!

وسواء كنت معصوماً أو غير معصوم، وبعد معرفتكم بأنّي مرسَل عن ربّ العالمين بدليل المعجز، فتكليفكم هو العمل وفق ما أخبرتكم من أنباء الغيب، فإنّه دليل على عبوديّتكم للّه تعالى، التي خلقكم من أجلها، وعلى الامتثال للأمر الإلهي.

الاحتمال الثالث:

أن يستدلّ أصحاب نظرية عصمة الأنبياء عليهم السلام على عصمتهم بأدلّة

عقلية وآيات قرآنية، وقد ناقشنا أدلّتها عبر هذا التحقيق، والحاكم هـو القارئ اللبيب والعالم البصير.

وهنا إشارة:

فنحن مرّة نتلو قوله تعالى: ﴿**فاتّقوا اللّه ما استطعتم**﴾ ثمّ نقيس الناس مع الأنبياء والأولياء علماً وتقىً، فنجد هناك فارق كبير جدّاً وبون شاسع بين الطرفين، فلا يمكننا تصوّر نسبة إيمانية بينهما مطلقاً وإن تـفاوتت درجات وفضل الأنبياء والأولياء فيما بينهم عند الله سبحانه، وقـد مـرّ علينا أيضاً أنّه لا يقاس بآل محمّد صلى الله عليه وآله أحد، حتى الأنبياء والمـرسلين الملائكة المقرّبين عليهم السلام، فمن يفعل فهو ظلم بيّن.

ومرّة نتلو قوله تعالى: ﴿**يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا اللّه حقّ تقاته**﴾ فلا نجد أحداً من البشر قد طبّق هذا الأمر الإلهي في حياته الفكـرية والعـملية بنجاح تامّ، وذلك أنّ الإنسان مهما بلغ من التقوى وسلك مدارج العـلم والإيمان، يكون لا شيء وفان أمام الكمال المطلق، فهو قاصر ومـقصّر أمام المولى تعالى. فجميع البشر فلا يتّقونه حقّ تقاته، فهم ﴿**الفـقراء إلى اللّه**﴾.

فالأنبياء والأولياء، وإن كانوا في درجات سامية جدّاً في التقوى، ولا يمكن مقايسة إيمانهم وتقواهم مع سائر البشر إطلاقاً، أمّا قـياساً لإرادة اللّه من ضرورة جذب المكلّف جميع المنافع، ودفع جميع المضارّ ـ كمّا عرّفنا العصمة ـ فالعصمة مفقودة عند الجميع. هذا ما يخبرنا عنه القرآن عن لسان النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله بقوله:

﴿**قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً إلاّ ما شـاء اللّـه ولو كـنت أعـلم الغـيب**

لاستكثرت من الخير وما مسّني السوء إن أنا إلاّ نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾.[١]

والإمام الصادق عليه السلام أيضاً يزيح لنا ستاراً ليكشف لنا عن سبب توبة البشر بما فيهم الأنبياء والأولياء قائلاً:

«التوبة حبل الله ومدد عنايته ولابدّ للعبد من مداومة التوبة على كلّ حال وكلّ فرقة من العباد لهم توبة. فتوبة الأنبياء من اضطراب السرّ، وتوبة الأولياء من تكوين (تلوين) الخطرات، وتوبة الأصفياء من التنفيس (التنفّس) وتوبة الخاص من الاشتغال بغير الله تعالى، وتوبة العام من الذنوب ولكلّ واحد منهم معرفة وعلم في أصل توبته ومنتهى أمره».[٢]

وأخيراً نعيد سؤالنا المفتوح مرة أخرى على جميع من يعتقد بعصمة الأنبياء ويدافع عنها بقوّة:

إذا كانت النواهي بصيغة (لا تفعل) للأنبياء الواردة في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿**ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾، و: ﴿**فلا يخرجنّكما من الجنّة فتشقى**﴾، و﴿**لا تخاطبني في الذين ظلموا إنّهم مغرقون**﴾، و: ﴿**لا تكن كصاحب الحوت إذ أبق إلى الفلك المشحون**﴾، و: ﴿**فاحكم بيننا بالحقّ ولا تشطط**﴾ و... الخ، لا تدلّ على نهي مولوي، بل تدلّ على النهي الإشاري وفاعل هذا النهي من الأنبياء عليهم السلام هو تارك للأولى، ومرخّص

١. الأعراف: ١٨٨.

٢. مستدرك الوسائل ١٢: ١٣٧١١/١٣١؛ البحار الأنوار ٦: ٣٨/٣١؛ كلاهما نقلاً عن مصباح الشريعة: ٩٧، الباب الرابع والأربعون في التوبة.

في فعلها مرّات و مـرّات، لعـدم حـرمتها، إذن بـيّنوا جـميع النـواهـي الإرشادية الواردة في كتاب اللّه بصيغة (لا تفعل) لي ـ كأحد المكلّفين ـ كي لا أقف عند هذه النواهي، لعدم حرمتها ـ كما تقولون ـ وبدليل وجوب الاستنان بجميع أفعال الأنبياء عليهم السلام لأنّهم قدوة البشر.



تمّ الفراغ من التحقيق ثانية ليلة ميلاد فاطمة الزهراء عليها السلام، المصادف التاسع عشر من جمادي الثاني سنة ١٤٤٦هـ.ق، والموافق لليلة الثانية من الشهر العاشر سنة ١٤٠٣هـ.ش، وآخر دعوانـا أن الحـمد للّـه ربّ العالمين، وصلّى اللّه على سادة الخلق، محمّد وآله الطيّبين الطاهرين.

المحتويات

تمهيد الطبعة الثانية ٧

مفهوم العصمة لغة وشرعاً ٢٧

العصمة وآراء الطوائف الإسلامية فيها ٣٣

مناقشة أدلّة القائلين بالعصمة وعدمها ٣٧

بحث عام في العصمة ٧١

العامل الرئيسي لاختلاف المسلمين في العصمة وأبعادها ٩٥

العصمة وأبعادها ٩٩

آدم عليه السلام ١١٧

من هم المخلصون ومن هم الغاوون ١٢١

نوح عليه السلام ١٢٥

يوسف عليه السلام ١٣١

موسى عليه السلام ١٤٥

داود عليه السلام ١٥٧

يونس عليه السلام ١٦٥

رسول الله صلى الله عليه وآله ١٧٥
إبراهيم عليه السلام ١٨٧
ملائكة الرحمن عليهم السلام ٢١٣
ماهيّة آية التطهير وتعلّقها ٢٢٧
الفرق بين مقام النبوّة والإمامة ٢٤٣
خاتمة أبحاث الكتاب ٢٦٣